مُناقشة هادئة

لإسلاميات عباس محمود العقاد

بقلم الدكتور

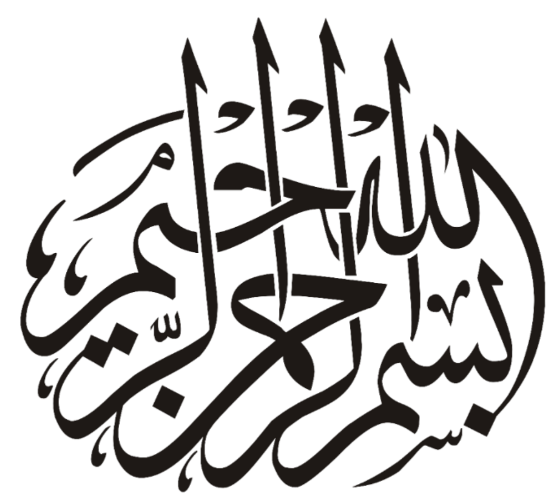
محمد جلال القصاص

الطبعة الثانية

تحت الطبع






بسم الله الرحمن الرحيم





إهداء

إلى الجادين بحثًا عن الحقيقة، رفعةً للأمة، إيمانًا واحتسابًا



فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، وعلىٰ آله وصحبه ومن أحبه واتبع هديه، وبعد:-

كثرت همومُ الأمة ومشاكلُها، فلِمَ عبَّاس العقَّاد ؟!

لعلَّ هذا أولُ ما يتبادرُ إلىٰ ذهن القارئ الكريم حين يرىٰ عنوانَ الكتاب!!

ولم يكن سببًا واحدًا، بل أسبابٌ عدة، تجمَّعت حولي تدفعني دفعًا لدراسة إسلاميات عبَّاس العقّاد، وتقديم رؤية نقدية لما قدَّم، وأحاول أن أجمل هذه الأسباب في اثنتين:

الأولىٰ: عبَّاس العقّاد و"تفعيل المنافقين":

كانت البداية من عند النصراني المتعصب شديد البذاءة زكريا بطرس في عام 2007م، وجدتُه يستشهد ببعض ما كتب عبَّاس العقَّاد، ويثني عليه خيرًا، هو ومضيفةُ البرنامج "ناهد متولي" المعروفةُ بعداوتِها وشدةِ بذاءتها[1]. وقتها لم يكن عندي شك في كذب بطرس وناهد كما هو الغالب علىٰ أقوالهما، ولكني حين عدت إلىٰ موطن استشهادهما مما كتب العقَّاد، وجدت عجبًا عجابًا. وجدت ما قالا وأشد. هالني ما وجدت في كتاب العقّاد. وكانت رسالة "الله" للعقاد هي موطن استشهادهما في هذه الحلقة. فتركت ما بيدي ونزلت بساحة

---

(1) انظر: زكريا بطرس، برنامج أسئلة عن الإيمان، الحلقة 18بعنوان: "شهادة علماء الإسلام لصحة الكتاب (المقدس) وعدم تحريفه"، الدقيقة العاشرة، وتوجد نسخة مكتوبة بموقع زكريا بطرس، انظر الرابط: https://2u.pw/OQ1Yg

عبَّاس العقاد أنظر ما الذي يقول.

اعتاد زكريا بطرس، وعامة المنتقدين للإسلام من النصارىٰ، أن يستشهد بأقوال مسلمين، وكنت كلما استشهد بأحدٍ رجعت إليه وأطلت النظر في مخرجاته، أحاول أن أتعرف بوضوح علىٰ القول والقائل والسياق. واستمر هذا ثلاث سنوات أو أكثر. و**انتهىٰ بي المطاف أمام ظاهرة فكرية، سميتها، فيما بعد، بـ "تفعيل المنافقين"**. وملخصها: أن المستشرقين أعادوا قراءة التراث الإسلامي،(وأقصد بالتراث الإسلامي: الشريعة والتاريخ، أو القاعدة النظرية والتطبيق العملي) وقدموا قراءة مغلوطة لقواعدنا النظرية وتطبيقاتها العملية في عصر الراشدين والذين جاءوا من بعدهم، وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ تسريب نصوص هذه الكتابات والمفاهيم التي تنطوي عليها لنفرٍ من المنتسبين للإسلام عن طريق الصالونات الثقافية، والمدارس والجامعات التي أنشأوها في بلادنا، والبعثات العلمية، والصحف، والأعمال الفنية (المسرح والسينما...)، وعامة المجالات المعرفية التي نشطوا فيها، فظهرت أفكار الكافرين علىٰ ألسنة مسلمين، ولعل أبرز ذلك : كتابي قاسم أمين "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة"، وكتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم"، وعامة كتابات طه حسين، وعامة مخرجات عبَّاس العقَّاد، وهو ما سيتضح في هذا البحث إن شاء الله؛ وكذلك عن طريق المدارس الأدبية التي تكونت في هذه الفترة ومنها مدرسة الديوان التي أسسها إبراهيم شكري، وعبّاس العقّاد وعبد القادر المازني.

ظهرت بعض أفكار الكافرين، بل وبعض نصوص الكافرين كما هي، في

كتابات منتسبين للإسلام، ثم استدار الكافر وعاد ثانية يستدل بأقوال الناقلين عنه، أولئك الذين تحدثوا بكلامه من المنتسبين إلينا. كما هو حال بطرس وناهد في المشهد الذي معنا. بمعنىٰ أنه راح يستدلُ ببضاعته هو التي نقلها عنه مسلمون ويدعي أن هذه هي أفكار وأقوال المسلمين، يُلبِّس علىٰ قومه ويلبِّس علىٰ قومنا. ثم نقل الكافر أقوالَ الموافقين له إلىٰ ساحته هو، وكانت الرسالة التي وصلت من هذا النقل أن الإسلام لا يخالف غيره من الأديان في شيء كبيرٍ، وبالتالي لا حاجة للانتقال من الكفر للإيمان!!

وبهذا تم صد عوام الكافرين عن الهدىٰ بعد إذ جاءهم.

ونَقَلَ، كذلك، كلام الموافقين له إلىٰ ساحتنا نحن فشغلنا بنوعية جديدة من القضايا لم تكن موجودة من قبل، بل لم تكن محل تفكير، مثل التبرج والسفور، والحكم بغير ما أنزل الله، وعدم تكفير غير المسلمين...

تركتُ المشهد المعاصر وعدت إلىٰ الكتاب والسنة وما اتصل بهما من كتب التفسير والحديث وشروحات الأئمة الأعلام، أطرح أسئلة علىٰ أفعال الكافرين وأفعال المنافقين وأفعال المؤمنين، وانتهىٰ الأمر إلىٰ أن المتمسكين بالدين اليوم يواجهون أربعة صفوف:

أولهم: الشياطين. فالشياطينُ هم أصل الكفر والعصيان. هم أصل عقيدة الكفر والعصيان وأصل أفعال الكفر والعصيان، فالشيطان هو الذي أخرج آدم وحواء من الجنة، وهو الذي دل من بعدهم علىٰ الغناء وما يصاحبه من خنا حتىٰ ظهرت فيهم الفاحشة، وهو الذي صور الصالحين وصنع التماثيل وعالج قوم

نوح حتىٰ عبدوا الأصنام، وهو الذي دل عمرو بن لحي علىٰ الأصنام المعدّة بشاطئ جدة وأمره بأخذها وتفريقها في القبائل ودعوة الناس لعبادتها، وكان سيدًا مطاعًا،،،،

وثانيهم: الكافرين، حزب الشيطان وأوليائه، أولئك الذين تلقوا وحي الشيطان واتبعوه، قال الله تعالىٰ ذكره: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ) (الأنعام: من الآية121).

وثالثهم: المنافقين، وذلك أن الكافر اتصل ببعض المنافقين وأثَّر فيهم، وفعَّلهم نكايةً في الدين والمتدينين.

ورابعهم: الغافلين.. السماعين للمنافقين.. المتأثرين بأقوالهم، قال الله تعالىٰ ذكره: (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) (التوبة: من الآية 479) أي متأثرين بخطابهم.

وسمَّيتُ هذه الظاهرة بـ "**تفعيل المنافقين**". تفعيل المنافقين من قبل الشياطين والكافرين، وتفعيل المنافقين للغافلين من المسلمين. وشرحت الفكرة في ثلاث مئة صفحة، وعرضتها علىٰ بعض أهل العلم وأثنوا عليها. كان هذا في عام 2009م؛ ولكني مع ثناء أهل العلم لم أطمئن بعد، فأمسكت البحث رجاء أن يفتح الله علي بجديد أضيفه لهذه الظاهرة. وكنت كلما سنحت الفرصة تحدثت في مقال؛ ثم يسر الله لي بابًا للإعلام المتلفز فكان أول ما تحدثت عنه هو ظاهرة "تفعيل المنافقين" وشرحتها في أول ظهور تلفزيوني مع الشيخ خالد

عبد الله في رمضان 1433هـ/ أغسطس 2011[1]، والمقابلة منشورة في الصفحة الخاصة علىٰ موقع طريق الإسلام.

وزاد أمر آخر يخص عبّاس العقَّاد، وهو أنني، حال تحدثي بالفكرة وعرضها علىٰ من أتواصل معهم مباشرةً، كنت أضرب المثل علىٰ تفعيل المنافقين بالعقّاد كما أضربه بقاسم أمين وطه حسين وعلي عبد الرازق، ولكني كنت أجد نفرة شديدة أن يذكر عبَّاس العقّاد مع هؤلاء. ولاحظت شيئًا عجيبًا هو أن من أُحدثه عن العقّاد لا يستطيع رد الفكرة ولكنه لا يطمئن إليها. مسكون بصورة إيجابية عن العقّاد لا يعرف مصدرها!!

استقر الأمر علىٰ دراسة ثلاثة نماذجٍ أوضح فيهما الفكرة الرئيسية لهذا المشروع الفكري (تفعيل المنافقين)، أحدها لكافرٍ صريح الكفر، وهو زكريا بطرس؛ والثانية والثالثة لمسلمين متأثرين بأقوال الكافرين، فكانت هذه الدراسة عن عبَّاس العقّاد وأخرىٰ لحقت بها عن "عمرو خالد"، ونشرت الطبعة الأولىٰ من كتاب عبَّاس العقّاد في 2009م، وهاأنذا أعيد نشر الكتاب بعد أكثر من عشر سنين قضيتها بين الكتب أقرأ وأتأمل، وليس فيه جديد غير ضبط الصياغة والبعد عن الشدّة في اللفظ والبعد عن الأسلوب الخطابي ومحاولة التزام الموضوعية قدر الإمكان.

---

(1) نشرت الحلقة علىٰ موقع طريق الإسلام بالصفحة الخاصة، بتاريخ 13/ 10/ 2011، شوهد الرابط بتاريخ 3/ 7/ 2021، في هذا الرابط: https://ar.islamway.net/lesson/111453/ تفعيل-المنافقين

الثانية: عبَّاس العقّاد قراءةٌ جديدةٌ للشريعة.

ومما دفع لدراسة عبَّاس العقّاد وتقديم رؤية نقدية لمخرجاته الفكرية أن عبَّاس العقّاد يُقدَّمُ للناس كأديب(1)، والحقيقة أن عبّاس **العقّاد كان في المعترك السياسي ولم يخرج منه إلا مُكرهًا وبعد أن تجاوز الخمسين من عمره، وأهم وأشهر أعماله كانت أطروحاتٌ فكرية وفي المجال الديني وليست مقالات أدبية. هذه الأطروحات الفكرية في جوهرها إعادة قراءة لتراثنا الفكري بأدواتٍ غربية،** أو كما يقول أحد المتطرفين العلمانيين: **استطاع، رفقة طه حسين ومحمد حسين هيكل، تنقية السيرة النبوية التي كتبها ابن هشام من الخرافات واستطاع تقديم التراث في شكل عقلاني يتناسب مع العصر الحديث**[2]. ويظهر هذا الأمر

---

(1) وبعضهم لا يرىٰ العقاد إلا أديبًا. وهؤلاء صنفان: أولهما: مأخوذ بحسن الصياغة، وثانيهما: يرىٰ أن الحفاظ علىٰ اللغة العربية الفصحىٰ مطلب وخاصة مع وجود سياق من الهجوم علىٰ الفصحىٰ ومحاولة لتوطين العامية وقتها (وهذا السياق له حضور في كتابات الدكتور محمد محمد حسين)؛ ويغيب عن حديثهم، بقصدٍ أو بدون قصد، أن الأدب يحمل رسالة، ولابد، فلا أدب بلا معنىٰ. ويغيب عنهم أن اللغة محفوظة بالقرآن الكريم والسنة ولولاهما لتطورت كما تطورت قبل الإسلام وكما يتطور غيرها، وهذه المساحة (الحفاظ علىٰ اللغة العربية الفصحىٰ) هي التي جمعت بين العقاد والأستاذ محمود شاكر وطه حسين أحيانًا. ومن أشهر من تعصب للعقاد كشاعر وأديب تلميذه الدكتور عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام)، ويبالغ جدًا في شأن العقاد عمومًا وشاعريته، التي ينفيها غيره، علىٰ وجه الخصوص، فيزعم أنه من أشعر شعراء العربية والعالم. وهذا شديد البعد. قلت: وهو (أبو همام)، مع ذلك، يقر بحضور البعد الفكري الفلسفي (العقدي) بقوة في شعر العقاد وأدبه، وهذه هي الحقيقة أن العقاد كان يرىٰ نفسه مفكرًا ويقدم فكرًا بقلمه، إن شعرًا أو نثرًا. انظر حوار د. عبد اللطيف عبد الحليم مع الأستاذ عبد العزيز القرشي في برنامج سيرة أدبية علىٰ هذا الرابط: https://cutt.us/qpspi

[2] انظر حوار جابر عصفور مع أحمد سعيد زايد من الرابط: حواري مع الراحل د جابر عصفور وزير ثقافة مصر ورائد التنويرYouTube - ، وسيد القمني، وهو شديد التطرف في علمانيته، ويرفض السيرة النبوية كما

بوضوح من حال من اهتموا بنشر تراثه. وأنقل لك، قولَ صاحب دار الكتاب بدولة لبنان في تقديمه للمجلد الخامس والأخير من موسوعة العقّاد الإسلامية، يقول: "يتألف هذا القسم من نتاج العقَّاد، والذي دعوناه بـ«موسوعة العقّاد الإسلامية» من خمسة مجلدات هي «العبقريات» و«شخصيات إسلامية» و«توحيد وأنبياء» و«القرآن والإنسان» و«بحوث إسلامية»، ويشتمل علىٰ خمسة وعشرين كتابًا مختلفًا، **تؤلف الذخيرة اللازمة للاطلاع علىٰ حقيقة الدين الإسلامي وجوهره**"[1]. هذا ما يدور في رأس من قدّمه لنا.. اهتموا بنشر كتبه من أجل "الاطلاع علىٰ حقيقة الدين الإسلامي وجوهره". **فليست كتابات أدبية إذًا. إنها قراءة جديدة للشريعة،** ولذا وجب التوجه إلىٰ مخرجاته الفكرية وإعادة النظر فيها.

وإلىٰ يومنا هذا تعقد الندوات والمؤتمرات لتعريف الناس بأفكار عبَّاس العقَّاد، ولا زالت كتبه تنشر في كل مكان، حتىٰ لا يكاد يخلو منها مكان؛ بمعنىٰ أنه ثمة إصرار علىٰ أن تبقىٰ أطروحات عبَّاس العقّاد في الواجهة، تثبيتًا للعقاد في الذاكرة التاريخية للثقافة الإسلامية، وذلك لكونه أحد المعابر الرئيسية التي عبرت من خلالها أفكار المستشرقين لتراثنا الإسلامي.

وعبَّاس العقّاد كأديب يُحَلِّقُ عاليًا، ولا تطاله مناوشات خصومه من الأدباء،

يرويها علماء السيرة (ابن هشام عن ابن إسحاق وغيرهما) ويقدم تفسيرًا اجتماعيًا وسياسيًا للبعثة المحمدية لم يوافقه فيه إلا غلاة التنصير، يثني علىٰ عباس العقاد جدًا ويرىٰ أنه "مفكرًا عبقريًا من الطراز الأول وقليل من يفهمه"، ومحاوره النصراني (عماد دبور) يشاركه الثناء الجم والمحبة المطلقة للعقاد.

(1) **موسعة العقّاد الإسلامية**، (بيروت، دار الكتاب العربي، 1971م)، ج5، ص11.

تمامًا كما لم يضار المتنبي ممن حسدوه أو انتقدوه، وكما لم يضار شوقي من العقّاد نفسه!!

وهذا البحث لا يُعنىٰ بالعقّاد كأديب. فقط يُعنىٰ بأطروحاته الفكرية.. بشخصيتِهِ الحقيقة التي كان يرىٰ فيها نفسه ويراه فيها من قدَّمه لنا، وخاصة تلك الكتابات والمواقف التي أخذت طابعًا دينيًا.

والحقيقة أن الهدف الأعمق من هذه الدراسة هو استخراج عدد من المفاهيم الكلية التي أثرت في الثقافة الإسلامية المعاصرة ومناقشتها من خلال كتابات العقاد. هي محاولة للاشتباك مع الفعل الثقافي السائد من خلال كتابات عبّاس العقَّاد. ولو أستطيع فصل المفاهيم عمن كتبها لفعلت حتىٰ لا ينشغل القارئ بالأشخاص وتضيع القضايا والقيم تحت أقدام الشخصنة.

ألا إن الهدف الرئيسي من هذا البحث هو بيان كيف استباح المخالف حصوننا الفكرية. كيف أن أفكار المخالف استقرت في أذهان النخبة من وجهاء الأمة وعلمائها وما عباس العقاد إلا نموذجًا أكتفي به ليقاس عليه غيره.

هي عزمة أردُّ بها ما أراه باطلًا عن حياض الدين ومقام سيد المرسلين ﷺ، وصحابته ﷺ. أحاول المساهمة في إرشاد السائرين إلىٰ رب العالمين، طلبًا لما عند الله، والله أسأل رشدًا، وعزيمة علىٰ الرشد، وعونًا، وبركةً. إنه كريم منان.

محمد جلال القصاص

الطبعة الثانية

ذو الحجة 1442هـ/ يوليو 2021م



الفصل الأول
تـرجـمة فكرية

في هذا الفصل محاولة لتقديم ترجمة فكرية لعبَّاس العقَّاد، وذلك من خلال الإجابة علىٰ عددٍ من الأسئلة مثل: أين تواجد عبَّاس العقَّاد؟: بين الأدباء والشعراء؟، أم بين الساسة والمفكرين؟؛ وما موقفه من حركة التجديد الإسلامي (الصحوة الإسلامية) في مصر والعالم الإسلامي، والتي عاصر نشأتها، ونهضتها، وكان يخالط رموزها.. يعرفهم ويعرفونه؟!، وما حقيقة انتسابه للدفاع عن الدين والمتدينين؟، ولماذا انتشر وكثر ذكره بين الناس مع فساد حاله من وجهة نظري؟، وذلك من خلال عددٍ من العناوين الجانبية، علىٰ النحو التالي:

سياسي ثائر:

ولد عبَّاس العقّاد (1889م – 1964م) في إحدىٰ القرىٰ بأقصىٰ جنوب مصر (مدينة أسوان) حيث كان يعمل والده[1]، ورحل العقّاد إلىٰ القاهرة وعددٍ من مدنِ شمالِ مصر طلبًا للرزق، وضاقت به أسباب الرزقِ مرارًا واضطرته، أحيانًا، لبيع كتبه أو العودةِ لأهله في أقصىٰ الصعيد.

كان عبَّاس العقّاد صاحب إمكانات شخصية كثيرة، معتزًّا بنفسه، يعلم منها القدرة علىٰ ما لا يستطيعه كثيرٌ من أقرانه؛ حاد الطبع لا يعرف التوسط في علاقاته ولا تعاملاته[2]؛ توّاقًا للريادة؛ شديد الخصومة. ولذا بدا نافرًا، مشاكسًا، كثير الأعداء.

---

(1) العقَّاد: لقب لمن يعملون بالحرير، وكانت مهنة في أجداده.

(2) عباس العقاد، **أنا**، (مصر، نهضة مصر، الطبعة الثالثة2005)، ص9.

تعلم الإنجليزية مبكرًا متأثرًا بالجالية الإنجليزية في أسوان (حيث ولد ونشأ)، وبدأ بقراءة ما كتب مشاهيرُ الإنجليز، وكان يوقع مقالاته كما يفعل الإنجليز (ع. م. العقَّاد) اختصارًا للاسمين الأولين ثم اللقب. وبداية النشر كانت في مواضيع ذات طبيعة لغوية في "صحيفة الأستاذ" التي أنشأها عبد الله النديم.

التقىٰ أميرَ الشعراءِ أحمد شوقي وهو شاب صغير بالكاد تجاوز العشرين من عمره، وكانا طرفا نقيض. حيث تربىٰ شوقي في القصور ويحمل لقب "بك"، وحصل علىٰ أعلىٰ الدرجات العلمية من أكبر محافل التعليم العالمية، ويحيا حياةً مرفهة، ويسعىٰ لإحياء اللغة العربية باستعادة نشأتها الأولىٰ.. يحاول أن يصلح ما أفسده المتأخرون بما صلح به أمر الأولين، ويقف في مقدمة شعراء عصره بلا منازع. وعبَّاس العقّاد شاب، فقير، لم يتجاوز الابتدائية في تعليمه، ويعمل في مهنة متواضعه، ويعمل علىٰ توطين الرؤية الغربية في الأدب. ونشب الخلاف بينهما علىٰ صورةٍ معلقةٍ بالجدار. ازدراه شوقي واستخف به وكان الأجدر بشوقي أن يستوعبه ويحسن إليه لمكانة شوقي وسنه وقتها.

مِن يومها راح يطاولُ ويناطحُ أميرَ الشعراء!!، فذهب وعاد باثنين من الشباب: عبد الرحمن شكري (1886م – 1958م) وإبراهيم عبد القادر المازني (1890م– 1957م)، وكان كل منهما متأثرًا بالمدارس الغربية في النقد الأدبي، (القول بوحدة القصيدة، والبعد الإنساني لا اللساني في القصيدة)، وكان كل منهما، وكذا العقَّاد، قد أنتج عملًا أدبيًا يتكئ علىٰ قواعد الغرب في الأدب، ولم يكن أيٌّ منهما قد درس الأدب في انجلترا. وربما جاء التأثر من انتشار بضاعة الغرب الأدبية في الإنتاج الأدبي لشعراء المهجر والكتب المترجمة، فضلًا عن

أنهم كانوا يتقنون الإنجليزية وينقلون عنها[1]، وتجمع الثلاثة بدعوىٰ نقد المدرسة المحافظة في الأدب العربي!!

والحقيقة أن أمير الشعراء أحمد شوقي ورفاقه كانوا مجددين. كانوا نتاج صحوة أدبية، بل إن الذين وقفوا لهم (كإبراهيم شكري والعقاد والمازني) أنفسهم كانوا نتاج ذات الصحوة الأدبية في الأمة[2]. وإن ما فعله الشباب (عباس

---

(1) يذكر أن سبب مغادرة إبراهيم شكري لمدرسة الديوان يرجع إلىٰ الخلاف الذي نشب بينه وبين عبد القادر المازني بسبب نقولات المازني، والتي قد يصفها البعض بالسرقات العلمية، عن الغرب، والحقيقة أنها كانت سمة عامة للمرحلة، سواءً نقل النصوص أم نقل الأفكار والمفاهيم الرئيسية كما سيتضح من حال العقاد، وهذا حال المغلوب لانبهاره بالغالب، ولعجزه عن صناعة المعرفة، فصناعة المعرفة صناعةٌ ثقيلة، تحتاج لرؤية قوية واضحة تنطوي علىٰ فهم لكليات الدين العقدية والفقهية (القواعد الفقهية وأصول الفقه)، ومن ثم صياغة أدوات معرفية (مناهج) مناسبة، وتحتاج، كذلك، لأدوات مادية: كتابة (تأليف) طباعة نشر بالصوت والصورة، وبعد هذا كله تواجه السلطة السائدة (وكانت موافقة للمحتل يومها)، وذلك أن كل سلطة تستنبت معرفةً موافقةً لها: تصنع نخبتها وتمدها بأدوات مادية توفر لها انتشارًا ومن أبرزها التعليم النظامي.

(2) شهدت الأمة الإسلامية محاولات تجديد جادة في القرن الثامن عشر الميلادي، وبعد هجوم الغرب علىٰ قلب العالم الإسلامي، والذي كان بدايته الحقيقية الحملة الفرنسية علىٰ مصر والشام، تم إدخال تعديلات علىٰ مسار التجديد، كان أهم هذه التعديلات تغيير نموذج الحكم إلىٰ النموذج الغربي (الدولة القومية) عن طريق تجربة محمد علي في مصر والتي تمددت فيما بعد لغيرها من الدول. وجوهر ما فعله محمد علي هو: استدعاء منظومة القيم الغربية كبديل للقيم الإسلامية وإعادة هيكلة المجتمع والسلطة علىٰ قواعد (قيم) غربية، فبعد أن كان التجديد يتم علىٰ منظومة القيم الإسلامية بدأت مرحلة جديدة، هي التجديد علىٰ منظومة القيم الغربية، بمعنىٰ تم تغيير مسار التجديد (النهضة) في الأمة، وفي هذا السياق اتجه التحديث في التعليم للغرب فكان سياقًا من النقل عن الغرب في عديد من مجالات الحياة. وفي المقابل استمرت محاولات التجديد علىٰ القواعد الإسلامية من خلال نخبة المجتمع، وهم أهل العلم والرأي ومن يساندهم من التجار والأعيان، بأدواتٍ أقل وكوادر علمية أقل تخصصية، وفي هذا السياق ظهرت الكتاتيب، وتجمعت ثمار هذا الفعل التجديدي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر (بداية

ورفاقه) في حقيقته هو استجلاب نماذج أدبية غربية قاموا بتوطينها في ساحتنا. إن ما فعلوه في الحقيقة هو أنهم أكملوا مسيرة النصارىٰ في التغريب (شعراء المهجر والذين سبقوهم من خلال الرواية والصحافة والفن في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين) في تغريب الأدب العربي؛ استقدموا أحد روافد الحداثة الغربية واستنبتوها في الساحة الإسلامية.. أكملوا ما بدأه النصارىٰ في الأدب.

وإن مدرسة الديوان في حقيقتها شاهد عيان علىٰ تمكن الخصومة من العقاد بسبب موقف واحد..شاهد عيان علىٰ أن الفكر عند عديد من كبار المفكرين تابع للمواقف العملية لا للتفكير المجرد!!

الثورة التي انتهت في 1882 ونسبت لأحمد عرابي)، فكانت الصحوة التي أشير إليها في النص أعلاه، وكان من ثمار هذه الصحوة محمود سامي البارودي وأحمد شوقي، وتمت السيطرة علىٰ مخرجات هذا السياق وتجفيف منابعه، وتم تحويل مسار التجديد إلىٰ المسار السياسي (مرحلة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده واللورد كرومر)، ثم مرحلة "الأنساق المغلقة"/ الجماعات بعد الثورة البلشفية، ثم مرحلة مواجهة المجتمع والسلطة عن طريق "نواة صلبة"/ "فئة مؤمنة" تنمو وتتمدد، وهي المرحلة التي بدأت بالمودودي وسيد قطب، وبعدها مرحلة قيادة الجماهير ضد النظام العالمي والنظم الإقليمية والمحلية وهي المرحلة التي نظّر لها عبد الله عزام وحاول تنفيذها أسامة بن لادن ورفاقه (تنظيم القاعدة)، وأحاول، منذ سنوات، الدعوة للعودة للمسار الأصيل للتجديد تحت عنوان "النخبة المتخصصة" وطرحت الفكرة في عددٍ من المقالات منشورة علىٰ الصفحة الخاصة بموقع طريق الإسلام وموقع صيد الفوائد (https://2u.pw/cdP3K) (https://2u.pw/ykKZH)، وانفصل مسارٌ ثالث (غير الذي اضمحل، والذي تاه بعد أن دخل السياسية علىٰ يد الأفغاني وعبده) تطور في سياق علماني، وظهر أكثر بعد تمكن نموذج الدولة القومية والبعثات العلمية ثم الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، وحاول هؤلاء النهوض أكثر من مرة تحت مظلة الدولة القومية بمناهج غربية أو هجينة ولم تفلح لهم تجربة.

شاهد عيان علىٰ حالة الحقد والتصابي وعرقلة التجديد في الأمة (السياق الأدبي هنا)، والتبعية للغرب. شاهد عيان علىٰ أن العقّاد ورفاقه من يومهم الأول وهم في سياق الحداثة الغربية...

المقصود هنا هو بيان **محورية البعد النفسي كمنطلق رئيسي في شخصية العقاد**، فهذه العداوة الشديدة لشوقي لأنه ازدرىٰ العقّاد يقابلها محبة مطلقة وتقدير كامل "للشيخ" محمد عبده رغم أنه لم يكن ثوريًا ولا عبقريًا فذًا تنطبق عليه شروط العبقرية عند العقاد، فقط لأنه أثنىٰ عليه حين التقاه طفلًا في المدرسة[1]!!

انفضَّ عزم شباب الديوان (العقّاد والمازني)[2] بعد أن نالوا من أحمد شوقي، ولم يكملوا مشروعهم الذي أعلنوا عنه. تفرقوا عن شوقي وعن الأدب. وغرق العقّاد ربع قرنٍ من الزمن في ظلمات السياسة، بدأها بالسير خلف سعد زغلول ثم البرلمان فالسجن لتسعةِ أشهر بعد أن أخذته الحماسة وسبقه لسانه بجملة خطابية يتهدد فيها أكبر رأس في البلد ويتوعد بتكسيرها؛ فتحرش به جند الملك حتىٰ حبسوه تسعة أشهر؛ ثم خرج من السجن واشتبك مع رفقاء الدرب ممن بدلوا وغيروا في تعاليم سعد زغلول، وانتهىٰ الأمر بالخروج عليهم والاشتراك

(1) من أسباب انتشار "الشيخ" محمد عبده حالة الثناء المتبادل بينه وبين النخبة التي عاصرته، كما في حالة العقاد المذكورة في النص، وكما حدث مع حافظ إبراهيم حين قال له: "أقامك الله في الآخرين كما أقام حسان في الأولين"، ورد له حافظ الثناء بثناء ممتد؛ فضلًا عن دعمه من قبل الإنجليز (اللورد كرومر) وحضوره في مرحلة تحول تاريخي، وتبنيه الرائج من الأفكار لا الأفكار النقدية التصحيحية.

(2) كتاب الديوان كتبه العقّاد والمازني، وأما عبد الرحمن شكري، وهو أولهم وأبرزهم وأكثرهم تمكنًا من بضاعة الأدب وأسبقهم في هذا المجال، فقد غادر مبكرًا. اتهمهم، وخاصة المازني، بالسرقة الأدبية ودبَّ الخلاف بينه وبينهما ثم فارقهم وانشغل بخاصة أمره عن الأدب وأهله.

في تأسيس حزب السعديين (نسبة لسعد زغلول).

مضىٰ أكثرُ من خمسين عامًا من حياة العقّاد في خصوماتٍ سياسية علىٰ صفحات الجرائد وصالونات الأحزاب انتهت بهزيمة ساحقة للعقاد جعلته يفكر في الانتحار[1]، ثم تحوّل، بعد هذه الهزيمة وبعد رحلة التخبط الطويلة هذه، إلىٰ الكتابة في الإسلاميات، وكانت "موضة" فكرية يومها كما سيأتي بيانه.

كانت الكتابة في الإسلاميات بالنسبة للعقاد نوع من الترويح عن النفس، وخروجٌ من ساحة لم يعد يجد فيها إلا الموت بيده (منتحرًا) أو بيد غيره (اغتيالاً)!! ولم يظهر من السياق ولا من تفاصيل حياته أنها كانت توبة وتحولًا لنصرة الدين والصحوة الإسلامية التي تكونت وشبت واشتدت وقتها، وإليك مزيد بيان:

يكتب للسوق:

كانت الصحوة الإسلامية قد انتشرت، وكان الصدام مع المتطاولين علىٰ حمىٰ الدين أوجد رموزًا ورفع أسماءً، وكانت القضايا الإسلامية رائجة يومها، وطبعي أن يظهر من يكتب للجمهور، علىٰ طريقة ما يطلبه القراء، طلبًا للانتشار والذكر، **بمعنىٰ أن الجمهور شكلّ أحد الدوافع للكتابة، ومن يكتب للجمهور**

---

(1) ذكر ذلك العقّاد نفسه في حواره التلفزيوني المنشور في اليوتيوب. والهزيمة سببها أن الأفراد وتشكيلاتهم في أرض الواقع (أحزاب وجماعات، وثورات) كانت أقل من صانع السياق (الاحتلال الغربي)، فلم يستطيعوا المواجهة بل كانوا أدوات في صنع سياق مخالف لما يريدون، تمثل (هذا السياق) في تحويل مسار الأمة من التجديد علىٰ قواعد إسلامية، كما كان يحدث بعد فترات التراجع، إلىٰ التحديث علىٰ قواعد غربية، واستخدم الاحتلال الغربي عامة من شارك في المجال العام في تحقيق هذا الهدف الكبير للغربيين.. جل من كان في التفاصيل (المستوىٰ التنفيذي والتكتيكي) تم توظيفه والإفادة منه.

لا يستفزه في الغالب، بل يحرص علىٰ التعاطي معه برفق، بمعنىٰ أنه يتجه لنشر ثقافة سائدة ومقبولة لا أنه يتجه لتغيير واقع الناس بجديد قد لا يقبل في الجيل المعاصر له. ولا أستبعد أن العقّاد كان يكتب للسوق، أو توجَّه لما هو رائج، فكًّا للخناق السياسي الذي طوّق عنقه حتىٰ كاد يقتله.

فرضية أن العقّاد كتب للسوق يدعمها كتابه عن "بنيامين فرنكلين" مؤسس أمريكا. فحين تتدبر ما خطه العقّاد عن "فرانكلين" تجد أنه لم يأتِ بجديد. ينقل صفحات من مذكرات فرنكلين التي كتبها بخط يده ويكرر كلمات قيلت هنا وكلمات قيلت هناك. يقول فيه ما يقوله في غيره: سياسي منفرد، وعالم علَّم، وفيلسوف متكلم، وأديب قد كتب، ومفاوض قد أخذ من خصمه بحنكته، ورحيم بالعبيد، ومؤدب للأغنياء. ويبدو بوضوح أن الأمريكان أرادوا تسويق بضاعتهم فبحثوا عن قلم مشهور فكان العقَّاد، استكتبوه وقدّموا للكتاب وقاموا بطباعته ونشره.

وفرضية أن العقّاد كان يكتب للسوق يدعمها -أيضًا- أنه كان يكتب في المناسبات، فكتب عن غاندي، وعن بنيامين فرانكلين، وعن زعيم الصين "صن يات صن"، ورافق مؤسس المملكة السعودية ونظم فيه الشعر وكتب فيه المقالات[1]. وأستبعد أن يكون الهنود استكتبوه، ولكنه ركب الحدث واستطعم

[1] وهذا الأمر مشهور عنه، وإلى اليوم يردده بعض الكتاب السعوديين، ومن خلال تتبع السياق الذي كتب فيه العقاد عن الملك عبد العزيز يظهر بوضوح أنه لم يكن متعففًا عن السلطة بل كان يسير في وفد "الملك"، ويستجديه بالشعر والمقالات. وكتب عن هذا الحدث وعن حضور العقاد في الأدب الحجازي أحمد عبد الغفور العطار (مكي، وأور رئيس تحرير لصحيفة عكاظ)، ولكن كتابات العطار عن

الكتابة عن المشهورين، أو كتب عنهم بدافع الإعجاب بالمبرزين (العباقرة). وجاءت كتاباته في إطار موجة من الكتابة عن الإسلام بعد انتشار الصحوة الإسلامية في الأمة وانتشارها جماهيرًا وجغرافيًا في كل بقاع العالم الإسلامي وخاصة العربي، ومع وجود قضايا مجمع عليها مثل التحرر من الاحتلال الغربي ورفض اغتصاب اليهود لبيت المقدس وأكناف بيت المقدس، ومع تنامي الرفض للموجة الأولىٰ من الغزو الفكري من قِبل المستشرقين والمتأثرين بالحداثة الغربية ممن ابتعثوا أو تلقوا آداب الغرب وهم في مواطنهم، ومع ظهور الصحوة الإسلامية ودخولها في الأحداث السياسة. قد كانت الحياة جلها إسلامية: توافق أو تعارض، أو قل: كان الحديث عن الإسلام في كل مكان.. ومن كل التوجهات[1].

فقط أثبت هنا أن **الكتابة في الإسلاميات لم تكن توبة عن السياسة ودخولًا بين المتدينين. لم تكن دعوةً للدين ودفعًا للصائلين ونصرة للمتدينين**. لم يكن هذا أبدًا هو السياق الذي أفرز لنا ما يسمىٰ بإسلاميات العقَّاد، ويتضح ذلك من خلال مناقشة عبقريات العقّاد وكثير من إسلامياته خلال هذا البحث، إن شاء الله وبحوله وقوته.

العقاد، وغير العقاد، أهملت لما فيها من مبالغات فجة لا يقبلها عاقل. ينظر: عباس محمود العقاد في كتابات أحمد عبد الغفور العطار: https://www.youtube.com/watch?v=WG-XqCJFcO8

(1) شهدت هذه الفترة تنامي المد الوضعي (الحداثي) العلماني (الليبرالي والماركسي)، وخاصة بعد الثورة البلشفية 1917م، وأعقب هذا التمدد الليبرالي (حزب الوفد) الشيوعي (حمتو ثم حدتو) مدًا إسلاميًا (الإخوان المسلمين والجمعيات السلفية) في سياق إيجاد توازن مع تمدد المعارضة العلمانية (الوفد والأحزاب الاشتراكية).

وحين دخل إلىٰ الساحة الدينية أخذ معه الأفكار الرئيسية التي سيطرت عليه وهو يكتب في السياسة، فلم يتخل عن محبته لأفكار الحداثة الغربية ومخرجاتها. ومن شواهد ذلك وقوفه بجوار الديمقراطية في معركتها مع النازية (الألمان وحلفائهم)، فألّف (هتلر في الميزان 1941م) حال كتابته في الإسلاميات، واستمر دفاعه عن الديمقراطية بعد ذلك في كتاباته[1]. وكتب عن غاندي حال كتابته في الإسلاميات، وكتب مدافعًا عن النصارىٰ (عبقرية المسيح)، حال كتابته في الإسلاميات.

مفتاح شخصية العقاد:

في عبقرياته كان العقّاد يطوف حول كل عبقري بحثًا عن مفتاح شخصيته. فهذا مفتاح شخصيته التعبد، وهذا مفتاح شخصيته الفروسية وأخلاقها، وهكذا،،،.

وإذا أردنا أن نقف علىٰ **مفتاح شخصية العقّاد نفسه فهو مخالفة السائد**. ينظر أين يقف الناس ثم يخالف ويحاول أن يقف منفردًا، وقد أثمر هذا العناد اضطرابًا وترددًا، فكثر من العقّاد إتيان الشيء ونقيضه، وهذه بعض المواقف التي تبين أن السمة الأبرز في شخصية العقّاد كانت مخالفة السائد لمجرد المخالفة أو لإثبات الذات:

أثنىٰ علىٰ قاسم أمين، وعلىٰ كتابيه "تحرير المرأة"، و"المرأة الجديدة" وسماه "المصلح الكبير"، وكذا أثنىٰ علىٰ "نظيرة زين الدين" صاحبة كتاب

---

(1) فصّل هذا وشرحه واستدل عليه من كلام العقّاد الشيخ الدكتور غازي التوبة في كتابة الفكر الإسلامي المعاصر ص 127 وما بعدها.

"السفور والحجاب"[1]. وأرجو أن لا يغيب عن خاطرك حال الأمة وقتها وهي محتشدة رفضًا لما قدّم قاسم أمين وعلي عبد الرازق وطه حسين.

وأنكرت الأمةُ ما كتبه طه حسين في كتابه "علىٰ هامش السيرة" حين صدر عام 1928م، وكذا ما صدر يحمل اسم علي عبد الرازق عام 1925م، إلا العقَّاد، وقف بجوارهما ينصرهما!! يقول: حرٌّ وحرية[2]!!

وثارت ثائرة الأعضاء في البرلمان، وليس فقط علماء الأزهر والمتدينين، علىٰ مسرحية «جان دارك» لبرنارد شو لما فيها من هجوم شديد علىٰ الإسلام ورسول الله ﷺ، ووقف العقّاد في البرلمان يدافع عن المسرحية، يقول: لم يتطاول برنارد شو وإنما تطاول أبطال المسرحية[3]!! وبرنارد هو الذي كتب النص وبالتالي هو الذي يتكلم علىٰ لسان المشخصاتية. وسواء أكان التطاول من برنارد شو أم كان من غيره فهو تطاول، بغض النظر عمن كان سببه، وعلينا أن نوقفه، ولكن العقّاد أبىٰ إلا أن يكون عكس التيار وإن كان بباطل شديد الوضوح!!

ورفض المنتسبون للفكر الإسلامي، وكثير من غيرهم، فكرة التطور، في الأنواع (نظرية دارون) أو في الأحداث (التاريخ)، وخالف عبَّاسُ العقّاد الجمع وراح يدافع عن التطور: يقول تتطور الأنواع، ويتطور التاريخ، ويتطور الفرد.

(1) انظر: ساعات بين الكتب ص527.

(2) انظر: ساعات بين الكتب ص807 وما بعدها، وانظر ص737 وما بعدها.

(3) انظر: أدباء ومواقف، لرجاء النقاش ص15، وللعقاد كتاب يتحدث فيه عن برناردشو طُبع في المجلد التاسع من موسعة العقَّاد دار الكتاب ـ لبنان، وفي ذات المجلد أيضًا ذكر للشاعر الألماني يوهان جوته، وكذا لشكسبير. فكلهم محل ثناء عند العقَّاد، وهو مما لا يخفىٰ.

وينفي أن في القرآن الكريم ما يدل علىٰ رفض التطور، مع أنك لا تكاد تقرأ في كتاب الله ساعة حتىٰ تمر علىٰ أن أصل الإنسان من طين (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) (السجدة: آية7)، وأن سنة الله في خلقه هي إهلاك الظالمين، فالبشرية تحركت في دوائر أو صعودًا وهبوطًا: تتجبر الأمة وتشتد في ظلمها فتباد ثم تبدأ دورة جديدة، يقول الله تعالىٰ: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (يونس:13)، ويقول الله تعالىٰ: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (القصص:43)، وأن الله لم يطلع أحدًا علىٰ خلق السموات والأرض، يقول الله تعالىٰ: (مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) (الكهف:51)، وظل إلىٰ وفاته يدافع عن التطور!!

وبعد أن استقر الاحتلال في بلاد المسلمين جاءت حملات التنصير تترا، كلما فشلت حملت جاءت أختها، وبعد أن كان النصارىٰ يحتمون في العائلات وكبار الشخصيات أصبحوا من كبار موظفي الدولة وتسللوا للسلطة، والثقافة، والفن، والمال، واستدعىٰ هذا يقظة من المسلمين فاشتدوا لرد حملات التنصير. فكتب "الشيخ" محمد عبده، وكتب الشيخ محمد رشيد رضا، وكتب الشيخ الدكتور محمد محمد حسين، وإلىٰ يومنا هذا هناك من يكتب ويرد إفك النصارىٰ علىٰ نبيهم ونبينا. إلا عبَّاس العقَّاد. خالف جموع المسلمين ووقف بجوار النصارىٰ يتحدث بما لا يصدقه عاقل. فقد امتدح بولس (شاؤول اليهودي... محرف النصرانية)، يقول: أحد مركزين اتكأت عليهما النصرانية في نشأتها وتطورها، يجعل "بولس/ شاؤول الطرسوسي" ندًا لتلاميذ المسيح!!

وكأن بولس لم يُذَم من كل تلاميذ المسيح حتىٰ الذي اتبعه منهم (برنابا) ليعظَه، يئس منه بعد قليل وهجره وسخط عليه وجاهر بمذمته. ويجهل، أو يتجاهل، أن بولس مات مقتولًا ولم تتطور دعوته، وإنما خمدت ومات مقتولًا كما يموت الأدعياء الكذبة، والذي حدث أنه (بولس) استُدعي من تحت ركام الأيام بعد قرونٍ من الزمان كحالة وسط بين دين الله الذي أرسل به عيسىٰ، عليه السلام، والوثنية الأوروبية التي غلبت علىٰ مَن كانوا ببيت المقدس. ويمتدح، كذلك، كتاب النصارىٰ ويدافع عنه. ويدعي أن أقوال النصارىٰ في المسيح عيسىٰ بن مريم، عليه السلام، من أنه هو الله أو ابن الله، تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا، من قبيل مدح الحبيب لمحبوبه كما يفعل الصوفية!!

وجاء علىٰ نهاية المسيح عيسىٰ ابن مريم.. ودعني أنقل لك نص كلامه، يقول: (ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه وهل كان معروفًا من زياراته للهيكل أو كان مجهولاً لا يهتدىٰ إليه بغير دليل)، ويقول: (ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر علىٰ وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية)، ثم يتحدث عن قبر المسيح، عليه السلام: هل هو في فلسطين أم في كشمير؟!!

ولا يستطيع باحث أن يقف حائرًا فإن كان معوجًا مال للقوم وقال بقولهم، وإن كان مستقيمًا جاء إلينا وقال بقول العليم الخبير، سبحانه وتعالىٰ وعز وجل، (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ) (النساء:157). أما العقَّاد فهو كيان مستقل يخالف السائد دائمًا!!

قلت: ولذا أحبه النصارىٰ بالأمس واليوم، فتجده يفاخر بحب النصارىٰ له، وتجدهم في صالونه الثقافي يزورونه ويتحدثون إليه، وإلىٰ اليوم تجد القمص

شديد البذاءة زكريا بطرس يستدل بعبَّاس العقَّاد.. بما قاله عن المسيح وبما قاله عن كتابهم وبما قاله عن الله ربنا الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. وما تحدث به عبّاس العقاد عن الله، سبحانه وتعالىٰ وعز وجل، قصة أخرىٰ سنأتي عليها إن شاء الله في هذا الكتاب حال مناقشة مفهوم التوحيد عنده. ودعنا الآن نمر لشواهد أخرىٰ تبين أن مفتاح شخصية العقَّاد هو مخالفة السائد.

حين بدأ يتجدد الحديث عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم بعد الصحوة الأدبية التي شهدتها الأمة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، خالف العقاد، وراح يسخر من شيخ العربية مصطفىٰ صادق الرافعي وهو يتحدث عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم وتطاول عليه حتىٰ استعداه، ولكن الرافعي عدا علىٰ العقّاد فتركه (مُسفَّدًا)[1]!!.

ويحكي فتحي رضوان أنه تلا علىٰ العقّاد سورة الناس فقال: لو نسبوا إليّ هذه السورة لتبرأت منها[2]!!

سبحانك هذا بهتان عظيم.

وبعد أن سقطت الخلافة الإسلامية واشتد الناس دفاعًا عن دينهم، وظهرت جماعة الإخوان المسلمين والتف حولها عامة المناصرين للدين، خالف العقّاد السائد ووقف يتحدث بما لم يقله أحد غيره، يدعي أن الإخوان المسلمين حركة

---

(1) كتب الرافعي في الرد علىٰ العقّاد كتاب (علىٰ السَّفُّود). والسَّفُّود هو سيخ الحديد يُشوىٰ عليه اللحم في المطاعم، ومُسَّفَّد تعني شُوي علىٰ السيخ، ذكر ذلك الرافعي في بداية الكتاب.

(2) انظر: فتحي رضوان، **عصر ورجال**، (القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة،2003)، ج1، ص229.

يهودية تعمل لصالح اليهود، وأن الأستاذ حسن البنا ذو أصول يهودية[1]!!

وأجمع العارفون بالشعر علىٰ إمارة أحمد شوقي، واجتمعوا حوله وتوجوه أميرًا للشعراء، إلا العقَّاد، خالف إجماعهم -وهو شابٌ صغيرٌ- ووقف قريبًا من جمعهم يرمي صغيرهم وكبيرهم[2].

وفي الوقت نفسه بايعه طه حسين علىٰ إمارة الشعر، وقَبِلَ العقّاد هذه البيعة!! فعل ذلك طه حسين اتقاءً لشرّ العقَّاد، فقد كان العقّاد سليط اللسان، شديد الخصومة[3]، وكان طه حسين حديث عهد بحزب الوفد، دخل الحزب والعقّاد فيه يقول ويفعل، فخدع طه حسين العقّادَ بهذه المبايعة، وصدَّق العقَّاد!!

وسمع بهم أحدُ الساخرين فقال ـ فيما يرويه الرافعي في كتابه "علىٰ السفّود":

خـــدَعَ الأعمـــىٰ البصيـــر	إنّــه لــهــوٌ كــبــيــــــرْ
أضحـــك الأطفـــال منـــه	إذ دعـــاه بـــالأمـــيـــرْ
أصبــــحَ الشعـرُ شعيـــرًا	فـــاطـــرحوه للحميـــرْ

ولا أدري لمَ قبل العقّاد إمارة الشعر والمبايع فرد واحد، ولم تكن بضاعة

---

(1) يأتي بيان هذا حالَ مناقشة العبقريات.

(2) تكلّم هو عن ذلك في (ساعات بين الكتب) ص 219 وما بعدها، وفي مقدمة كتابه الديوان، وأعتقد أن المقدمة كتبها المازني.

(3) من بعض شواهد بذاءة العقاد، تطاوله علىٰ أمير الشعراء شوقي وجماهير شوقي العريضة فيما كتبه في الديوان نقدًا لقصيدة شوقي في رثاء محمد فريد، شبهه بالشحاذ في الحواري وشبه جماهير شوقي بما هو أسوأ من ذلك!!

العقّاد في الشعر كما النثر؟!

ثم إن طه حسين أنكر مبايعته للعقاد بإمارة الشعر بعد ذلك[1]!!

ولم يسلم منه زكي مبارك، ولا مصطفىٰ فهمي، ولا طه حسين، ولا ذو شأنٍ برز بجواره وهو حي. ولذات السبب طالت صحبته بالمازني، وأثنىٰ عليه مرارًا، وذلك أن المازني كان يسارع إلىٰ انتقاص نفسه قبل أن ينتقصه الآخرون، ولم يكن يطاول العقّاد ولا يطاعنه بقلمه، بل كان يسير بجواره كالصفر، كما يقول هو[2].

- وحينًا يقف بين الكادحين يدافع عنهم ويتكلم بلسانهم، وفي ذات الوقت صديقًا للمترفين أرباب السلطة من أمثال النقراشي.

ولم يكن العقّاد يحترم خصومه؛ فقد كان يُسمع منه في حقهم بعض الأوصاف الرديئة مثل "حمار"، "قرد"، "عبيط"، وما هو أشد من ذلك علىٰ رواية أنيس منصور في كتابه "في صالون العقَّاد".

كان متمردًا مضطربًا، قلقًا، شديد الخصومة، كثرت خصوماته حتىٰ توفي وليس حوله أحد ولا يمتلك ما يكفي لشراء علاجه، لولا أن منَّ الله عليه ببعض المحسنين.

---

(1) انظر: د. نعمات أحمد فؤاد، **الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد**، (القاهرة، دار المعارف، 1983)، ص42.

(2) كان إبراهيم المازني (1890م - 1947م) قصير القامة جدًّا بعكس العقَّاد، وكان يصف نفسه والعقّاد حين يسيران معًا بالرقم (10)، أعرجًا، صاحب نكتة، يعيش في المقابر فقيرًا معدمًا، متشائمًا يائسًا، لا يخلو من "غزوة" نسائية، ولا يذكر بفضيلة أخلاقية، صحب العقّاد في أول حياته، وأسسا الديوان معًا بصحبة إبراهيم شكري. وعلىٰ صفحات الشبكة العنكبوتية تسجيل صوتي للعقاد يثني فيه علىٰ المازني.

بهذا ارتفع عبّاس العقَّاد:

اجتمع لعبَّاس العقَّاد عدد من الأمور جعلته يبدو عاليًا بهيًا في حسِّ كثيرٍ من الناس، أحاول سرد أهمها في نقاطٍ علىٰ النحو التالي:

أولًا: الأدوات السلطوية:

ليس كل ما اشتهر صواب، أو جيد الصنعة، **فللأدوات السلطوية** بأذرعها المختلفة دور في تقديم هذا وتأخير ذاك. تنتقي ما يحقق مصالحها وتقدمه؛ فكما أن السلطة نتاج معرفةٍ ما فإنها -أيضًا- تُمكن لنوعٍ معين من المعرفة.. ذاك الذي يتفق معها أو يدعمها. وعامة الناس يستقبلون ما اشتهر دون مقاومة، فعامة الناس لا يمارسون النقد إلا في تخصصاتهم فقط. ولذا علينا أن نفتش عن الأدوات السلطوية، مثل: الإعلام، والمناهج الدراسية، وأرباب المال، ودور النشر المحلية والدولية والتي تنتقي بعناية من تستكتبه ومن تنشر كتاباته. والأدوات كائن عاقل له إرادة خاصة، وهو فاعل مهم في المشهد الثقافي المعاصر(1).

وضعت الأدواتُ إطارًا براقًا لجيل المثقفين الذي نبت في عصر الاحتلال، أولئك الذين تأثروا بالغرب ونقلوا عنه في الأدب، كما مرَّ في مدرسة الديوان، أو في الفكر، كما سيأتي في مناقشة فكرة العبقريات والتوحيد والدفاع عن كتاب

---

(1) ويلحق بهذا المؤسسات التي تنتشر في جميع مجالات الحياة. فالمؤسسات كائن اعتباري له إرادة خاصة، وتتجه إرادته إلىٰ الحفاظ علىٰ كيانه، فالنخبة التي تُنشئ المؤسسة وتعمل من خلالها تحافظ علىٰ مصالحها الشخصية من خلال الحفاظ علىٰ كيان المؤسسة وتطويرها. والمقصود هو الانتباه لهذا الكائن الاعتباري الذي يسيطر علىٰ جميع مجالات الحياة، وطبعي الانتباه لطبيعة النخبة التي تسيطر علىٰ المؤسسات، فما الدولة إلا نخبة تدير مؤسسات وفقًا لمنظومتها العقدية..

النصارىٰ وبولس وقضية الصلب من أجل الفداء. منحوا المتأثرين بهم ألقابًا قوية براقة، مثل: "مجموعة الرواد"، "جيل العمالقة والقمم الشوامخ"؛ وخلعوا علىٰ آحادهم ألقابًا خاصةً باهيةً مبهرةً، فطه حسين "عميد الأدب العربي"، وعبَّاس العقّاد "عملاق الأدب العربي"، ولطفي السيد "أستاذ الجيل"،... وهكذا. وكلها إطلاقات إعلامية وليست رتبًا من جهات محايدة مشهودٍ لها.

هذا المشهد الضخم القوي البهيُّ يدهش القارئ البسيط ويجعله يقرأ مستسلمًا. ولذا تجد المعترضين علىٰ ما يُقدَّم في هذه الدراسة –وأمثالها– من توضيح لحال عبَّاس العقّاد ليس عندهم سوىٰ التعجب من أن يُنتقد العقَّاد !!، مع أن هؤلاء الرواد (عباس ورفاقه) في حقيقتهم كانوا جسورًا عبر عليها الغرب لحصوننا الفكرية[1]، وفي ذات الوقت أهملت الأدوات السلطوية كثيرًا من القامات العلمية، مثل الدكتور محمد محمد حسين، وعبد العزيز جاويش، وعبد الله دراز، ومصطفىٰ صادق الرافعي، والأستاذ سيد قطب، وأخيه الأستاذ محمد قطب، فلم يسمح لهم في المشهد إلا بما يخادع به العوام.. إلا بما يضفي علىٰ المشهد "تعددية" يُستدل بها علىٰ "إنصافٍ" مكذوب[2].

(1) انظر: أنور الجندي، **جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام**، (القاهرة، دار الاعتصام، 1985)،المقدمة. وفي هذا الكتاب ردَّ الأستاذُ أنور الجندي ما كتبته يدُ هؤلاء "العمالقة" إلىٰ أصولها الغربية، مبينًا أنهم لم يأتوا بجديد، وإنما كانوا (كباري/ جسور) بين الشرق والغرب علىٰ حد تعبيره. وأيد هذا الأمر أنيس منصور في كتاب(في صالون العقَّاد) ص606.

(2) هذه الأسماء اشتهرت فيما بعد. بعد ان انتشرت الصحوة الإسلامية، وحين تلقوا دعمًا من بعض الدول في سياق الصراع بين الدول "التقدمة" تلك التي قامت فيها ثورات بدعوىٰ التحرر والاستقلال، مثل مصر، والدول الرجعية التي لم تقم فيها ثورات كالسعودية ودول مجلس التعاون الخليجي.

ولازالت الأدوات إلىٰ يومنا هذا تحاول توطين العقّاد في ذاكرة الجيل، يحتفلون بذكرىٰ وفاته، ويعيدون طباعة كتبه.. يحفرونه في الذاكرة عمدًا وقهرًا، لأنه يحمل بضاعتهم.. لأنه منهم، أو يدعم وجودهم.

ثانيًا: المشاركة السياسية:

ومما ساهم في الرفع من شأن عبَّاس العقّاد في حسِّ كثيرٍ من الناس حضوره في المشهد السياسي، فقد وقف في صفّ بقايا الثورة العرابية، يخلع علىٰ زعيمها أحمد عرابي أعزّ الألقاب عنده (عبقري)، ثم وقف مع ثورة 1919م، وكانت عظيمة في حسّ الناس يومها، وكان قريبًا من سعد زغلول (الزعيم)، ثم كان صديقًا حميمًا للمنشقين علىٰ الوفد (السعديين).. ينزه تلك الزعامات عن الخطأ ويلبسها ثوب العبقرية[1]، وقدَّم "حزب السعديين" للعقاد الدعم المادي والمعنوي حين صعدوا للسلطة[2]، فقد قرر الحزبُ عددًا من كتبه علىٰ تلاميذ المدارس، وعيّنه فاروق عضوًا في مجلس الشيوخ.

ثالثًا: الدعم الخارجي:

كان العقَّاد مرتبطًا بالفكر الإنجليزي، وتلقىٰ دعمًا من الإنجليز، وظهر ذلك في طباعتهم لكتابه "هتلر في الميزان" بآلاف النسخ وتوزيعها علىٰ مختلف الدول العربية، وفي ترجمة بعض كتبه، وخاصة العبقريات، إلىٰ لغاتٍ أخرىٰ شرقية وغربية. وتلقىٰ، كذلك، دعمًا من الأمريكان حين استكتبوه للحديث عن "بنيامين فرانكلين"، فنقل سيرته الذاتية بالعربية مع بعض التعليقات عليها.

---

(1) محمد صابر عرب، **المفكرون والسياسة في مصر المعاصرة - دراسة في مواقف عبَّاس محمود العقّاد**، (القاهرة، مكتبة الأسرة، 2008).

(2) شكل حزب السعديين بقيادة محمود النقراشي الوزارة أكثر من مرة.

رابعًا: الفقر:

بدا عبَّاس العقَّاد للناس، وخاصة في آخر حياته، فقيرًا لا يطالب بشيءٍ من المناصب، ولا يرضىٰ بما عرض عليه، بل سخر منه أحيانًا، ولم ينل حظًا من المال، ولا يهتم بمظهره فقد كان يلتقي زواره ببجامة صوف لا تتغير صيفًا أو شتاءً!!

ولا يبدو أنها حالة من الزهد والورع، فما كان العقَّاد زاهدًا في المناصب، فقد دخل مجلس الأمة (البرلمان) مبكرًا في حكومة سعد زغلول، وكان قريبًا من زعيم حزب السعديين المنشق علىٰ الوفد (النقراشي)، وقَبِلَ تعيينه في مجلس الشيوخ من قبل "فاروق. ولم يكن حال العقاد حال متواضع، بل كان يزدري الألقاب، ويأبىٰ أن يرافق أيًّا منها اسمه. وكأن اسمه مجردًا أعلىٰ من كل الألقاب، اللهم أن يقال: الأستاذ بالألف واللام (أل العهدية)، وكأنه هو الأستاذ وحده[1]!!

خامسًا: غياب الميزان الشرعي:

ومن أسباب تكون صورة وضيئة للعقاد في حس كثيرٍ من الناس غيابُ الميزان الشرعي الصحيح عند كثيرٍ من أبناء الأمة، وقد بدأ هذا الأمر يتراجع ولله الحمد، فالذين يتحدثون عن العقَّاد لا يحسِّنُون ولا يقبِّحون بميزان الشرع، وإنما بشيءٍ آخر، فترىٰ كثيرًا ممن يتكلم لا يعبأ به وهو لا يصلي، وهو في معترك السياسة علىٰ غير قواعد شرعية، وهو ينصر الحكومات القمعية ويتطاول علىٰ الممثلين للإسلام في زمانه[2]؛ وهو يتناول سيرة الرسول ﷺ والصحابة ﵃ بغير

(1) انظر ما قاله للمخرج السينمائي كمال الملاخ حين أراد أن يدخل بعض التعديلات علىٰ روايته "سارة" كي يخرجها فيلمًا. وقد روىٰ القصة أنيس منصور في كتابه "في صالون العقَّاد"، ص644.

(2) ثارت ثائرة العقّاد علىٰ الإخوان المسلمين وسماهم (خُوَّان المسلمين) يوم اغتالوا النقراشي (باشا)

ما كانت عليه، وهو ينكر الوحي المنزل من الله علىٰ أنبياء الله، وهو يعظم المنحرفين من أبناء الأمة من أمثال الحلاج وابن عربي ويرىٰ أنهم عباقرة في الإيمان!!

سادسًا: الوسطية بين المستغربين:

ومما ساهم في رفع شأن العقاد في حس عوام المثقفين أنه كان وسطًا بين الذين يتبنون أطروحات المستشرقين كما هي، أو يتوافقون معهم بشكلٍ كبير، مثل طه حسين ولطفي السيد وقاسم أمين وعلي عبد الرزاق وبين المستمسكين بالكتاب والسنة ويدافعون عن الشريعة وهوية الأمة من أمثال محمود شاكر ومحمد شاكر وسيد قطب ومحمد محمد حسين ومصطفىٰ صادق الرافعي. والتوسطُ بين الحق والباطل باطلٌ مهما قيل، فالنور واحد والظلمات كثيرة، قال الله تعالىٰ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور) (الأنعام:1).

هل كان متدينًا؟

من المُحْكَم في العقيدة، وفي العقول السليمة، أن الظاهر مرتبط بالباطن، فما يظهر علىٰ المرء هو مرحلة أخيرة من مراحل السلوك (أول المراحل: هو الإدراك أو المعرفة، وثانيها: التصوير فكل معلومة تصل الإنسان يحولها إلىٰ صورة، وثالثها: التفكير في الصور الذهنية، وهذه المراحل الأولىٰ تسمىٰ عند

رئيس الوزراء، مع أن النقراشي (وكان يشغل منصب رئيس وزراء ووزير داخلية في ذات الوقت)، هو الذي أمر بفتح كبري قصر النيل وإغراق الطلبة بعد مطالبة الطلبة بخروج الإنجليز من مصر، فيما عرف بحادثة الكبرىٰ.

علماء العقيدة قول القلب؛ والمرحلة الرابعة: الإرادة وتكون إيجابية وسلبية وهي التي يسميها أهل العقيدة عمل القلب، ثم يأتي عمل الجوارح)، فالذي يظهر علىٰ الجوارح ترجمة صادقة لما تكنه الصدور، والعقَّاد يَعرف هذا ويتكلم به!، يقول: (العبادة فرعٌ من العقيدة يشاهد عيانًا في حيز التنفيذ أو التطبيق)[1] ، ولم يكن العقَّاد ولا أي من "الرواد" يمارس الإسلام في حياته العامة، فعلىٰ سبيل المثال كان صالون العقّاد الأدبي يعقد صباح الجمعة وينتهي بعد الصلاة بساعة.. أي في الثانية ظهرًا.. بمعنىٰ أنه لم يكن يصلي الجمعة[2]!!

ولم يكن الصالون يناقش قضايا مهمة أو محددة، وإنما "كلام من وحي الساعة.. والأحداث.. أو تساؤلات الزوار". كان مجلسًا للغيبة والنميمة[3]، يحضره اليهود والنصارىٰ والملحدون والبهائيون.

وأظهر العقَّاد تعاليًا علىٰ الأنوثة وعداوةً للمرأة، مع أنه غرق في وحل الشهوة إلىٰ أذنيه، فلم تنقطع علاقة العقَّاد بالمرأة، وكلها كانت علاقات غير شرعية!!

النساء في صالون العقَّاد يجلسن بجواره، وربما يداعبنه ويلمسن يديه أو

---

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص116.

(2) في صالون العقّاد، ص 9، 31، 301 . وذكره غيره. والدكتور عبد الحليم عبد اللطيف (أبو همام) في برنامج "سيرة أدبية" ذكر أن الصالون كان يبدأ في التاسعة صباحًا وينتهي بعد ساعتين، وبعد إمعان النظر في الروايتين يتبين أن كلا الروايتين صحيح، فقد كان قوم يأتون مبكرًا، وغالبًا أن هؤلاء هم الذين يميلون للتدين، وينصرفون قبل الصلاة وربما نزل العقاد معهم وصلىٰ؛ وآخرون يأتون حال الجمعة وبعدها، وربما كسل العقاد ولم ينزل يصلي، وخاصة أن بعضهم لم يكن من المسلمين.

(3) ذكر أنيس منصور تطاول العقّاد علىٰ قرنائه بأسلوب ساخر في ص31 وما بعدها. وفي 520 وما بعدها، وهو مشهور معروف عنه.

يمسكن بمنكبيه، أو يغزلن بأيديهن ويهدينه ما يغزلنه، وقد تجلس إحداهن بجوار سريره عارية الذراعين ببنطال "مِحَزَّقْ" (شديد الضيق، كأن ثوبها بشرة أخرىٰ علىٰ بشرتها)، وتدخن السجائر، ويدقق النظر في يديها وخصرها، وتقول ويسمع لقولها[1].

وقصص الحب في حياة العقَّاد متصلة لم تنتهِ منذ كان صبيًا، وقد تحدث عن هذا بنفسه ولم يكن ينكره، وقصته مع مي زيادة (ماري إلياس زيادة) مشهورة معروفة، ونشرَ أنيس منصور بعضها وأحجم عن البعض الآخر لما فيه من (أمور شخصية جدًّا) كما يقول هو[2]. ثم كانت علاقة قوية مع لبنانية كانت تأتيه البيت ويخلو بها ساعات طوال تطبخ له وتضحكه ويضحكها حتىٰ يعلو صوتهما، ثم تركها حين تتبعها ووجدها تخرج من عنده إلىٰ غيره، ويبدو أنها كانت من (بنات الليل). وانتهىٰ الشباب ولم يرجع عبَّاس عن جسد المرأة، ولم يشأ أن يبحث عن حلالٍ يأوي إليه، دخل في قصة ـ وهو شيخ قد قارب الستين ـ مع إحدىٰ الفنانات التي "لم تقتنع بمجد العقّاد وشهرته، وكانت تريد أن تنطلق إلىٰ عالم الفن وتعيش في قلب الحياة الصاخبة"، وغير ذلك من قصص الحب[3]، وقد ذكرتْ ما كان بينها وبين العقّاد في مذكراتها وقصتها معه مشهورة معروفة[4].

وهذا كله بخلاف المرأة التي أنجب منها الطفلة (دُرِّية)، ظهرت هي وطفلتها يوم وفاته[5]، ويبدو من الوصف أنها كانت سيدة من عامة الناس ربما لا تقرأ ولا

---

(1) ذكر ذلك وغيره أنيس منصور في (في صالون العقَّاد) في ص 9، وما بعدها، و ص 287.

(2) مقال أنيس منصور بالشرق الأوسط بتاريخ 19/ 12/ 2007.

(3) رجاء النقاش، عباقرة ومجانين ص238.

(4) انظر: الشرق الأوسط ـ العدد(10461).

(5) عنون أنيس منصور الفصل الخاص بوفاة العقّاد بـ (وماتت ابنةُ العقَّاد).

تكتب، ورجاء النقاش يصرح بأنها هي التي كانت تخدمه في بيته[1].

وكان أنيسَ العقَّاد في بيته كلبٌ يسميه (بيجو)، كان يحبه حبًّا كثيرًا ويصطحبه معه إن رحل بعيدًا أو قريبًا، وكتب عنه مقالاً، في مجلة الرسالة، يعرب فيه عن مودته وشدة تعلقه بهذا الكلب (بيجو)، ثم رثاه حين مات بقصيدة، ولك أن تسأل عمن يحب الكلب ويجالسه: أكان يصلي؟!، والإجابة عند العقّاد نفسه وهو يحكي ساخرًا متهكمًا قصة الشيخ حمزة مع كلبه بيجو[2].

علاقة عبَّاس العقّاد بالاستشراق:

عكف المستشرقون علىٰ قراءة أحكام الشريعة، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي، وما كُتِبَ في القرون الأولىٰ، وخرجوا بقراءة جديدة للشريعة الإسلامية. أعادوا قراءة الشريعة لتقبل الآخر ولتقول بما ينادي به الغرب والمستغربون من "المساواة" و"التبرج والسفور" و"تنحية الشريعة"، وأعادوا قراءة التاريخ الإسلامي وخاصة في القرون الأولىٰ لتقدَّم الأحداث للناشئة في إطارٍ آخر غير إطار الصراع من أجل تعبيد الناس لله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (النحل:36)، وأعادوا قراءة كتب الأولين ممن كتبوا في القرون الأولىٰ لإبراز الشاذ كالأصفهاني والجاحظ والجهم والجعد ولتشويه المستقيم. وبعض ما كتبوه ظهر في هيئة كتب جاهزة للنشر تم تسليمها إلىٰ بعض المنبهرين بهم من أمثال "طه حسين" و "علي عبد الرازق" ليكتبوا عليها أسماءهم ثم يخرجوها لنا، فقد برهن العارفون علىٰ أن الذي كتب كتاب "في الشعر الجاهلي" وكتاب "الإسلام

(1) رجاء النقاش، عباقرة ومجانين ص239.

(2) رجاء النقاش، عباقرة ومجانين ص240، وما بعدها.

وأصول الحكم" هو مارجليوث، وأعطاهم مترجمين إلىٰ كل منهما[1]!! وقاسم أمين جل ما ورد في كتابه قادم من عند النصارىٰ مثل: "مرقص فهمي" و"الدوق الفرنسي". أو تم تسريب المفاهيم من خلال الصالونات، والصحف، والتواجد في المجتمعات الغربية حال الدراسة (البعثات العلمية). ويمكننا أن نقول: إن حركة الفكر الشائعة في هذا الوقت كانت استشراقية أو متأثرة بالاستشراق، كان المستشرقون هم الموجِّهون للساحة الفكرية في العالم الإسلامي.

المواضيع التي تناولها عبَّاس العقّاد تناولها كل ذي قلم ممن عاصروه، ولم يكن هو أولهم كي نقول: بدأ ولحقوه، وإنما جاء بينهم، وكلٌ كَتَبَ بخلفية مدرسته التي تأثر بها وانتصر لها، وجل من كتبوا كانوا من إفرازات البعثات الغربية أو من المتأثرين بالغرب، مثل "طه حسين"، و"أبكار السقاف"، و"محمد حسين هيكل"، وغيرهم. **والكتابات كانت تسير في مضمار واحد، وهو إعادة قراءة الشريعة الإسلامية من جديد علىٰ خلفيات غربية، أو بخلفيات متأثرة بفكر الغرب. وعبَّاس العقّاد** من أشهر مَن حملوا بضاعتهم في الأدب إلينا[2]، أعني "مدرسة الديوان"، وقد "كان يرىٰ الإنجليز الحلفاء الطبيعيين لمصر"[3]!! وكان يؤمن بالديمقراطية القادمة من الغرب إيمانًا مطلقًا، ويدّعي أنها أفضل الأنظمة علىٰ الإطلاق، وهو مخطئ؛ فلا أفضل من شرع الله (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًىٰ مِّنَ اللهِ ۚ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (القصص:50)، ولا ينكر محبوه أنه أحد أفراد

(1) ذكر ذلك الأستاذ أنور الجندي في أكثر من مكان من كتبه.

(2) سبقه نصارىٰ الشام، ولكنه لم يكن تابعًا لهم، ولا متأثرًا بهم.

(3) الفكر الإسلامي المعاصر، غازي التوبة ص134.

المدرسة العقلانية الإنجليزية.

ثلاثة وواحد:

من كتبوا في الإسلام في الفترة التي كتب فيها العقَّاد ثلاثة وواحد. أما الثلاثة، وهم العملاء من وجهة نظري، **فأولهم**: من لا يخفي تبعيته للغرب واستحسانه سيرتهم، كطه حسين، وعلي عبد الرازق، وقاسم أمين؛ **وثانيهم**: لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، كالدكتورة عائشة بنت الشاطئ، فهي من ناحية تفريع علىٰ الأستاذ سيد قطب والشيخ عبد الله دراز في التفسير وإن لم تذكرهما، ومن ناحية أخرىٰ تثني علىٰ طه حسين؛ **وثالثهم**: متأثرون بمفاهيم الغرب إلا أنهم مستقلون ظاهرًا؛ كعبَّاس العقَّاد.

وهذا ميزان ثلاثي كاذب خادع، يُستعمل في تمرير بضاعتهم؛ إذ يُعرض هؤلاء الثلاثة علىٰ الناس كطرفين ووسط، والناس بطبعها تميل لمن توسط بين طرفين، حتىٰ لو كان هذا التوسط خطأ، وهو ما حدث حيث مالوا لعبّاس كونه يتوسط المشهد العلماني، وانخدع بهذا بعض المنتسبين للعلم والثقافة الشرعية، فكلما مروا بعورةٍ للعقاد قالوا: ولكنه خير من طه حسين!! وكأن ليس في الساحة إلا عبَّاس وطه!! الشعر الجاهلي طوالع البعثة

والحقيقة أن كل هؤلاء جبهة واحدة، وهناك جبهة أخرىٰ، تجمَّع فيها أهل العلم والإيمان كفضيلة الشيخ العلامة أحمد شاكر والشيخ محمد حامد الفقي والشيخ رشيد رضا، والشيخ الجوهري طنطاوي، والأستاذ سيد قطب وأخيه الأستاذ محمد قطب، وقد كان هؤلاء رموزًا لتيارٍ عريض يمثل تيار المتدينين في الأمة وقتها بخلاف العقاد الذي لم يكن حال حياته ضمن تيار المتدينين.



الفصل الثاني
إضاءات على الترجمة

في هذا الفصل محاولة لإبراز أهم المقولات التفسيرية التي يمكننا الخروج بها من الترجمة، ومن ثم تعميمها في ساحاتٍ أخرىٰ غير ساحة عبّاس العقاد، وذلك علىٰ النحو التالي:

أولًا: أذكياء من أولي العزم:

عامة رؤوس الضلالة يُعرفون برجاحة العقل ومضاء العزم، ويعرفون بالتضحية والبذل وصولاً لأهدافهم، فالعقل والكرم والشجاعة متطلبات ضرورية للسيادة، والجبان البخيل لا يُسَوَّد؛ قد تأتيه السيادة إرثًا من أمه وأبيه أو صاحبته وبنيه، أما أن يضطلع بأسباب التمكين فبعيد.

ومن يقرأ سيرة المنحرفين فكريًا في تاريخ الأمة الإسلامية (أصحاب الفِرق والمذاهب الضالة) يجد أن جلَّهم أصحابَ صفاتٍ حميدةٍ، أو هكذا يظهرون لعامة الناس، ولا يقف علىٰ حالهم إلا الراسخون في العلم؛ ولك أن تتدبر سيرة واصل بن عطاء[1] وصاحبه عمرو بن عبيد[2]، ومعبد الجهني[3]، ومحمد بن

---

(1) جاء في وصف رأس المعتزلة واصل بن عطاء أنه كان صموتًا فصيحًا بلغيًا كريمًا، صاحب صَدَقَةٍ. انظر سير أعلام النبلاء. ج5، ص465.

(2) عمرو بن عبيد التميمي بالولاء، كان جده من سبي فارس، وأبوه نساجًا ثم شرطيًّا للحجاج، اشتهر بالعلم والزهد، وله رسائل وخطب وكتب، منها «التفسير» و«الرد علىٰ القدرية». وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يحبه، ورثاه بعد وفاته. انظر: سير أعلام النبلاء ج6، ص 104. وانظر: الأعلام للزركلي ج5، ص81.

(3) معبد بن عبد الله الجهني، البصري، المدني، سمع من ابن عبَّاس وعمران بن حصين، وكان صدوقًا ثقة في الحديث، أول من تكلم بالقدر في التابعين، تسرب إليه القول بالقدر من سوسن النصراني، يقول

كرَّام (ت255هـ)[1] ، وبشر المريسي[2] (ت 218هـ)، وغيرهم.

ثانيًا: الخصومات من الهوى:

تبدأ الخصومات الفكرية (العقدية) من مواقف شخصية في الغالب، أو تخرج مندفعة بأحقادٍ شخصية، ومما يذكر هنا أنه قيل لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه،: من أين يأتي الهوىٰ؟! فأجاب: من الخصومات. وصدق؛ فأغلبها إحن في الصدور تخرج للناس في شكل "إصلاح" أو "تطوير".

وقد رأينا شوقي يتعالىٰ علىٰ العقَّاد فيستعديه، ويأخذ العقَّاد الاتجاه المعاكس لشوقي تمامًا، ويستعين عليه بالآخر، فقد استحضر العقَّاد الكافرين عونًا علىٰ المسلمين، ويشهد لذلك أن مدرسة (الديوان) كانت نقلاً أجنبيًّا، ولم تقدم سوىٰ جزأين فقط من كتاب الديوان، وكان عزمهم (العقَّاد ومن معه) علىٰ أن يكتبوا عشرة أجزاء، وهذا ما أعلنوه في مقدمة عملهم. وعمليًا لم يتكلما إلا في "تحطيم الأصنام".. يقصدون بالأصنام شوقي ومَن حوله، ولم يقدما آراءً بنَّاءة في النقد، ولم يتطرقا لغير شوقي ومَن حوله، وانفك عزمهما بعد التطاول علىٰ شوقي، وهذا يبين بوضوح أنها كانت ثأرًا من شوقي أو حقدًا عليه!!

وتكرر في كتاب الله بيان أن الخلاف سببه البغي(الظلم) وليس الجهل، قال

عنه الذهبي: وكان من علماء الوقت علىٰ بدعته. انظر: سير أعلام النبلاء ج4، ص185. وانظر: الأعلام للزركلي ج7، ص264.

(1) يقول عنه الذهبي: كان زاهدًا عابدًا ربانيًا، بعيد الصيت، كثير الأصحاب. وانظر: الأعلام للزركلي ج7، ص14.

(2) جاء في ترجمته في سير أعلام النبلاء: المتكلم المناظر البارع.. كان من كبار الفقهاء، دينًا وورعًا، له تصانيف جمة.

الله: (وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) (البقرة: ٢١٣)، وقال تعالىٰ: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسلام وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران: 19)، نعم: الجهل سبب من أسباب الخلاف، ولكنه سبب عارض يزول بعد قليل، تمامًا كما أن الشك نوع من أنواع الكفر لا يستمر إلا إذا صاحبه الإعراض!

إن البحث عن الذات، أو الاعتداد بالنفس، مَعْلَمٌ أساسي عند المنحرفين فكريًّا أو المنشقين حركيًّا، فغالب الانشقاقات الفكرية والحركية يكون دافعُ دعاتها البحث عن الذات؛ يقول الله تعالىٰ: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران: 105)، والذي نعرفه أننا نختلف ثم نتفرق، ولكن الآية الكريمة قدمت الفرقة علىٰ الخلاف لتبين أن النية تكون مبيَّتةً بدايةً للفرقة ثم يأتي الاختلاف من باب التبرير ليس إلا.

ثالثًا: فردية ضمن جماعة وظيفية:

لا أحد يجادل في شمولية الشريعة الإسلامية، وأن رسول الله ﷺ تركنا علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وأن ما من خير إلا ودلنا عليه رسول الله ﷺ، وما من شر إلا ونهانا عنه رسول الله ﷺ؛ فالدين كامل: (مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ) (الأنعام: ٣٨)، (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: 89). ومن بديهيات العقل أن شمولية الشريعة وكمالها وتمام حِكمة أحكامها، لا تعني أبدًا أن تنتقل هذه الشمولية وهذه الحِكمة المطلقة إلىٰ المنتسبين إليها، بمعنىٰ أن هناك فرق بين عموم الشريعة

وخصوصية المنتسبين إليها. فلم يكن كل الصحابة رضي الله عنهم سواء، ولم يطلب من أي منهم أن يتجه لما لا يحسن أو لما لا يحب.

وفي نموذجنا الحضاري يطلق صراح الناس إلىٰ ما يحبون.. إلىٰ ما يحسنون.. حين يشب المرء يشتد إلىٰ ما يحب أو إلىٰ ما يحسن، إن كان محبًا للقتال التحق بالثغور، يتدرب ويتسلح ويجاهد مع المجاهدين دفاعًا عن الدين واعتاقًا لرقاب المستضعفين من المتكبرين في الأرض بغير حق؛ وإن كان من أهل التجارة ذهب إلىٰ السوق؛ وإن كان حرفيًا فإلىٰ ما يريد؛ وإن كان ممن يحبون العلم تربع بين يدي العلماء في بيوت الله، في مجلسٍ تخشاه السكينة والوقار.

ولم تكن الحرية في التوجه العام فقط. بل كان التوجه العام الواحد (تجارة، زراعة، تعلم، حرفية، جهاد،...) به عديد من التخصصات؛ فهذا الذي يمم وجهه شطر حِلَقِ العلم -مثلًا- يجد نفسه أمام ثمار شهية، بعضها قرآن كريم (تلاوة .. قراءات)، وبعضها تفسير، وبعضها حديث، وبعضها فقه، وبعضها شعر، وبعضها مما ابتدع في الدين (كعلم الكلام)...

وليس فقط تعدد أفقي للتخصصات. بل وتعمق في كل تخصص، ففي كل تخصص عديد من الطبقات، فأهل الفقه ليسوا سواء، وأهل التفسير ليسوا سواء، والقراء ليسوا سواء... طبقات بعضها فوق بعض.. كل حسب جهده ... حتىٰ ينتهي الأمر بأن يكون الفرد علامة علىٰ نفسه، يقف حيث هو وحده، مميزًا بما من الله به عليه من صفاتٍ (حميدة أو ذميمة) ومشكِلًا رفقة من يقاربه ظاهرة

مجتمعية شديدة التخصص. فمن ناحية احترام للفردية ومن ناحية أخرىٰ صياغة للجماعة المتخصصة.

والدولة لا دخل لها بحركة الأفراد، لا تأمر أحدهم بأن يتخصص في هذا أو ذاك. بل تكفل للفرد الحد الأدنىٰ من المعيشة، عن طريق العطاء من المال العام (بيت المال). ففي كل تجمع سكاني حاكم وبيت مال، يأخذ الحاكم من الغني ما فرضه الله عليه من زكاة ويوضع في بيت المال ويوزع بعد ذلك علىٰ الفقراء والمساكين ويوزع في التمكين للدين، فلا فقر ولا مهانة.. لا يمنُّ الغني علىٰ الفقير، ولا يمد الفقير يده للغني. حرية وأمان مادي، وتفعيل تام للإنسان حيث يحب.. أو حيث يحسن.

وهكذا كان الصحابةرضي الله عنهم. كل حيث يحسن، بعضهم لا تكاد تسمع به إلا في التجارة، وبعضهم في القتال، وبعضهم في الرأي والمشورة.... كلٌ نجمٌ ساطعٌ في مكانه.. والجميع يحضر المواقف العامة.

ولا تظن أن الناس إن تركوا فإنهم يسيرون في اتجاه واحد. أبدًا لا يحدث هذا. لخمسةٍ:

أولها: في مثل هذا المجتمع يكون **التفاضل بالتقوىٰ** لا بالوظيفة كما هو حاصل اليوم في النموذج العلماني، ففي نموذجنا الحضاري أكرم الناس أتقاهم، وأحسنهم خلقًا. (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات : 13).

وثانيها: أن **الناس بطبعهم مختصون**، كلٌ له ما يحسنه؛ وحين يترك لهم العنان لا يتجمعون في نقطة واحدة، وإنما يحدث هذا في النموذج المعاصر، وذلك

لارتباط الأرزاق والوجاهة الاجتماعية بالوظائف ظاهريًا، ولأن الناس لا يتفاضلون بالتقوىٰ كما قد كان.

وثالثها: أن في الشريعة ما يعرف بـ **"فروض الكفايات"**، وهي التي يأثم الجميع إن تركوها، بمعنىٰ أنها لا تترك، فأحوال الناس كلها بين فروضٍ واجبة وفروضِ كفايات، وبالتالي تسد كل حاجاتهم، ويستقيم المجتمع متزنًا بلا خلل، كما قد كان لقرون طوال.

ورابعها: أن الفرد كان يتحرك في مساحة كبيرة من الأرض دون أدنىٰ عائق سلطوي أو اجتماعي، حيث شاء يحط رحاله ويثمر.

وخامسها: في نموذجنا الحضاري تكون **الرتب بالأفعال لا بالدعاوىٰ، والمهام تسند ولا تطلب،** فالناس لا يستفتون جاهلًا لأنهم أتقياء، أو متدينون في الجملة، والعالم يعيش بينهم ويعرفونه، ولا يدعي أحد الجندية ثم هو يجلس بينهم، بعيدًا عن الثغور منشغلًا بتجارة وحرفة؛ ولا يُؤَمِنُ المجتمعُ الخائنَ علىٰ ما أوقفوه لفروض الكفايات، فهي أموالهم، دفعوها من مدخراتهم وينتظرون الأجر عليها. وإن ما يحدث اليوم شيء آخر: نساق كلنا في مسارٍ واحدٍ دون النظر للفروق الفردية والمواهب الشخصية غالبًا. الذكور مع الإناث، والأذكياء والأغبياء، ومحبوا الحرفة ومحبوا التعلم والمطالعة؛ ولذا يتسرب الناس من التعليم، ولذا يكون الفرد مزدوج الشخصية، يتأرجح بين تخصصين أو أكثر، ما يحسنه وما هو مضطر إليه كسبًا لقوت يومه، فتجده صيدلي ومفكر، مهندس وشاعر، فلا يحسن الهندسة ولا يحسن الشعر... ويفقد المجتمع التخصصية العالية التي تحدث تطويرًا حقيقيًا في واقع الناس.

والمنحرفون (كليًّا أو جزئيًّا) بعيدون عن فكرة التخصصية ضمن جماعة وظيفية، فمن المعالم الرئيسة عند المنحرفين فكريًّا التحدث فيما يعرض عليهم، أو ما يتعرضون له، ولا يرجعون للمختصين من أهل العلم، وكذا كان العقَّاد يجاهر برفض التخصصية ويعلن صراحةً أو ضمنًا أنه "موسوعي"، فإن تكلم أهل الآثار والتنقيب في الأرض أمسك قلمه وشارك، وإن احتدم خلاف بين عباد الصليب وأتباع الحبيب ﷺ أمسك العقَّاد قلمه وبحث عن مكانٍ لا يقف فيه أحد ثم راح يرمي، خصيمًا للجميع، أو مخالفًا للجميع، وإن ذكرت الحشرات قال: قرأت عشرات الكتب عنها!!

وهي ثقافة عامة وليست، أبدًا، تعددًا في التخصصات.

قديمًا كان الجهم بن صفوان يعمل كاتبًا للحارث بن سُرَيْج (أحد من خرجوا علىٰ بني أمية في خراسان سنة 127ه) ولا علاقة له بالعلم الشرعي لا طلبًا ولا عملاً (سلوكًا)، حتىٰ قيل: إنه لم يحج البيت قط، وإنما كان ذكيًا لَسِنًا مجادلًا، مجبولًا علىٰ الاعتراض والمِراء. هذا هو كل إمكاناته الذاتية.

اتصل ذات يوم بطائفة من الفلاسفة الهنود، يقال لهم: (السُّمَنِيَّة) وراح يجادلهم معتمدًا فقط علىٰ عقله، وابتدؤوا الكلام معه بالسؤال عن مصدر المعرفة، وخاض بغير علم في كتابه الله، وكانت فلسفتهم تقوم علىٰ أن المصدر للمعرفة هو الحواس الخمس، ولما كان الجهم جاهلاً سلَّم لهم بأصلهم الفاسد هذا، فسألوه سؤالاً آخر مبنيًا علىٰ هذا الأصل الفاسد، وهو: صف لنا ربك يا جهم! بأي حاسة أدركته من الحواس، أرأيته أم لمسته أم سمعته... إلخ؟! وسقط في يد هذا الضال المسكين، كما يقول الدكتور سفر الحوالي -، وطلب

منهم مهلة ليفكر في الأمر، ولم يستطع أن يأتيهم بحجة، ولم يسأل العلماء فيداووه ويلقنوه، وقادته الحيرة إلىٰ الشك في دينه، فترك الصلاة مدة، ثم استغرق في التفكير والتأمل، حتىٰ انقدح في ذهنه جواب خرج به عليهم قائلا: هو هذا الهواء مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو من شيء. وهذا الجواب هو أساس نفي الصفات، ونفي الصفات من قول طائفة من فلاسفة الهند[1] تسرب للإسلام عن طريق هذا الضال المسكين الجاهل المتكبر المستكفي بعقله[2].

ثم خطا الجهم خطوة أخرىٰ؛ وهي أنه راح يُدلي بدلوه في القضايا التي كان الجدال محتدمًا حولها بين علماء الأمة، ومنها قضية الإيمان. ثم خطا جهم خطوة أسوأ من هذا كله، وهي أنه تعصب لمذهبه وأخذ يبحث في الشاذ والغريب من أقوال العلماء ولوازم الأقوال ليثبت مذهبه، فاجتمع مع الجعد بن درهم في العراق، وخرج من عندهم الإرجاء والتعطيل، هكذا ظهر الانحراف في الأمة: من الآخر (الكافر) ابتداءً ومرورًا بالمنافق الذي يتم تفعيله من خلال معالجة الكافر له وإظهار ما في نفسه من أمراض، ومن ثم تفعيله، وانتهاءً بتشتيت العوام (السماعين لهم.. المتأثرين بخطابهم)، وضياع وقت العلماء في الرد علىٰ المنافقين وإرشاد المتأثرين بهم (السمّاعين لهم).

---

(1) وسنقف مع هذه لاحقًا، إن شاء الله وقدّر.

(2) خط الفلسفة، أو الرؤية العقلية (الأرضية) للكون مستقل، وتسلل للإسلام عن طريق الفرس والهنود بدايةً ثم كتب اليونانيين التي ترجمت، وظهر في هيئة إجابات علىٰ الأسئلة الثائرة في عهد التابعين، ومنها سؤال عن صفات الله، وتمظهر، أيضًا، عن طريق ما عرف بعلم الكلام، ثم انفرد مستقلًا في نهاية القرون الثلاثة الأولىٰ مع ضعف السلطة السنّية، أو عدم اكتراثها.

وقريب منه واصل بن عطاء.. تلميذٌ يتعلمُ عند إمام العصرِ (الحسن البصري)، وتُطرح أم القضايا المعروضة علىٰ الساحة يومها (حكم مرتكب الكبيرة)، فلا يجد حرجًا من المداخلة والإدلاء برأيه في حضرة أستاذ الجيل، ثم ينشق ويتعصب لرأيه ويعيد قراءة النصوص بما يوافق هواه؛ **ونستطيع أن نقول أن في سبيل الضالين ثلاثة معالم رئيسة:**

الأولىٰ: **التكلم عن جهل**، أو أن يعتقد الرجل أن العلم كله عنده، فحين يُسأل يجيب بما عنده وهو قليل ولا يراجع أهل العلم، أو يعتمد علىٰ عقلة ويُنشئ أقيسه مَغْلوطة، ويلحق بهذا مَن تُعرض عليه مسألة فيذهب يفتش في بعض الكتب، ويعتمد علىٰ بعض روايات الإخباريين أو الأحاديث التي لا يعرف درجتها، ويفهم كما يشاء، ولا يضبط فهمه علىٰ أحد، بمعنىٰ أنه يفتقد منهجية العلم وأدب المعلم، ثم يأتينا يتكلم في قضايانا الكبرىٰ معتمدًا علىٰ شهرته التي تحققت بأدوات المحتل وأولياء المتحل، وسيتضح هذا جدًّا من خلال مناقشة القضايا التي تبناها عبَّاس العقّاد.

والثانية: **التعصب للرأي** المنبثق أساسًا من الجهل أو من الرغبة في الثأر للنفس، ويذهب صاحبه للنصوص الشرعية ليحملها علىٰ القول بهذا الباطل. وما أجمل ما قال الشاطبي، رحمه الله، وهو يفرّق بين صاحب الحق وصاحب الهوىٰ، يقول: "إن صاحب الحق يذهب إلىٰ النصوص الشرعية ينظر ماذا تقول ثم يمتثل، أما صاحب الهوىٰ فيذهب إلىٰ النصوص الشرعية ليأتي بها علىٰ هواه". أو بكلمات أخر: إن أصحاب البدع يعتقدون ثم يستدلون، كما يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في آخر شرح نظم الورقات. ويتضح مما سيأتي، إن

شاء الله، أن الثابت عند العقَّاد هو "الفردية" و"العقلانية".. هو إثبات الذات في وجه من يتعالون عليه أو من سادوا في الناس بعلمهم أو سلطانهم، وقراءة الشريعة جاءت تابعة لذلك، قرأ الشريعة ليدلل علىٰ ما ترسخ عنده من مفاهيم غربية غريبة عن الشريعة.

والثالثة: العامل السلطوي، فكل سلطة تدعم ما يوافقها من معرفة وأشخاص (مثقفين)، وقد انتشر فكر الجهم بن صفوان بعده بمدة من الزمن حين وجد دعمًا سلطويًا، وذلك حين أصبح الوزير أحمد بن أبي دؤاد منهم، أو يميل إليهم.

وإجمالًا يمكننا القول بأن: الانحرافات في القديم والحديث مصدرها الآخَر التي طورها من تلقاء نفسه أو تلقاها من وساوس الشيطان، فإن رحتَ تستقصي الأفكار الهدامة التي دخلت الإسلام وجدتَ أصلها من الكافرين.. مثلاً بدعة القدرية أوَّلُ من تكلم بها سَوْسن في العراق، وهو نصراني عراقي، أسلم ثم ارتد ثانية إلىٰ الكفر، هذا الكافر المرتد تكلم بالقدر وأخذ عنه معبد الجهني[1]، ثم جاء بعده غيلان القدري وكان بليغًا فتكلم وأكثر، وناظر الضعفاء، وعاند العلماء. والتشيع بدأ من عند ابن سبأ اليهودي بعد أن دخل في الإسلام وعالج مرضىٰ النفوس من المنافقين والغافلين المتحمسين، فكان ما كان. وبدعة الجبر (القول بأن الإنسان مجبر علىٰ ما يفعل، ولا يأتي شيئًا باختياره)، وبدعة الإرجاء في الإيمان[2]، والتعطيل في الأسماء والصفات ظهرت علىٰ يد الجهم

(1) ذكر ذلك الحافظ الذهبي في ترجمة معبد الجهني في سير أعلام النبلاء (4/ 187).

(2) ذكر الدكتور سفر الحوالي في كتاب الإرجاء أن إرجاء الفقهاء ظهر قبل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان. وإنما عنيت هنا البدعة التي يفسق صاحبها أو يكفر في الإيمان وفي الأسماء والصفات والتي

بن صفوان وشيخه الجعد بن درهم، كانت أسانيدهم ترجع إلىٰ اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة[1]. حتىٰ الفلسفة والعلوم الأخرىٰ التي دخلت للإسلام وأثرت في المذاهب الفكرية المنحرفة، كان للآخر علاقة بها، متعاونًا مع الذين في قلوبهم مرض.

فنفوسُ المنافقين والذين في قلوبهم مرض تشرب البدعة، ويتصل بها (الآخر)، ويقوم بتفعيلها لتحدث الفتنة في صفوف المؤمنين، ولهذا السبب تأثر الفكر الإسلامي بالأفكار الأخرىٰ مع أننا كنَّا الغالبين، والغالبُ في الغالبِ لا يتأثر بالمغلوب، وإنما أوتينا من قبل المنافقين (مرضىٰ القلوب). اتصل الكافر بمرضىٰ القلوب، أو اتصلت بهم القلوب المريضة فشربت من حياضهم ثم عادت إلينا، تروي المهزومين والمتطفلين بما ارتوت به. وهذا ما حدث مع العقَّاد، فقد أحب ما عند القوم فنقله، أو حقد علىٰ بني جلدته فأراد هزيمتهم بأي شيء ولو كان ببضاعة غيره، وأزيد الأمر بيانًا تحت هذا العنوان:

رابعًا: المشترك بين عملاء الفكر:

بين العملاء، سواءً المعروف منهم للجميع أم المستتر إلا علىٰ القليل، قاسم مشترك تعرفهم به. وبه يقال: إن هذا عميل أو غير عميل. هذا القاسم المشترك عبارة عن شيئين: **الأول**: **عدم** وجود عداوة، أو بالأحرىٰ عدم وجود مواجهة مع الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، إلا نادرًا، بمعنىٰ غياب سياق العداوة مع الكافرين، والله يقول: (إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا) (النساء:101).

تسللت للدين عن طريق الجهم والجعد.

(1) انظر، إن شئت، الفتاوىٰ ج 5، ص6.

والثاني: الانتصار للفكر الغربي كليًا أو جزئيًا، ويظهر ذلك في تبني كليات الغرب، مثل: الدفاع عن الليبرالية، أو الاشتراكية ونحو ذلك..

وهذا حال الثلاثة الذين سبق الحديث عنهم: المعروف للجميع، ومَنْ لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، والمستقلين ظاهرًا. وقد كان هذا حال عبَّاس العقَّاد، فقد كان يفاخر بأن كتاباته محل رضا عند غير المسلمين[1]، وقد أطال رجاء النقاش في إثبات ذلك، دالاً عليه، مفتخرًا به[2]. وقد مَرَّ في هذا البحث أن صالون العقَّاد كان يأوي إليه اليهودي والنصراني والبهائي، وقد مررت سريعًا -في هذه المقدمة- علىٰ دفاعه عن كتاب النصارىٰ ومعتقداتهم ورسولهم بولس، وسيأتي مزيد بيانٍ إن شاء الله.

كان عبَّاس العقَّاد يأخذ كل قوم بما يتكلمون به، إن تكلم عن غاندي الهندي عابد البقرة، فهو "نبي مرسل"[3] لشعب الهند وغير الهند حتىٰ آمن به قوم من أوروبا، وإن تكلم عن "صن" أبي الصين فهو نبيهم؛ وإن تكلم عن "داروين" ونظريته، فبشيء كبير من الاحترام يتكلم؛ بل مثلت فكرة التطور محورًا رئيسيًا في فكر عباس العقاد؛ وإن تكلم عن "المذاهب الاجتماعية والفكرية" ادعىٰ شمولية الإسلام لجميع المذاهب الاجتماعية والفكرية، وادعىٰ أن أحكام الدين الإسلامي لا تمنع المسلم أن يكون ديمقراطيًّا أو غير ذلك. وما يعنيني هنا أن عبّاس لم يكن جملةً في وجه هؤلاء يصدهم عن حمىٰ الدين وسيد المرسلين ﷺ.

---

(1) عثمان ذو النورين، المكتبة العصرية ص17، وكرر الكلام في مقدمة للطبعة الثانية من عبقرية المسيح.

(2) انظر: أدباء ومواقف لرجاء النقاش ص14 وما بعدها.

(3) بينت هذا وشرحته عدة مرات.

خامسًا: أشياء دون أشياء!

ترجم الغربيون لعبَّاس العقَّاد أشياءً وتركوا أشياء أخرىٰ. ترجموا ما يخدم هدفهم العام، وهو صد الناس في الغرب عن دين الله(1)، ترجموا ما يعطي صورة غير حقيقة عن الشريعة ومن جاء بها من عند الله.. رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ. فلا يكاد يصل من الفكر الإسلامي إلىٰ الغرب إلا ما يريده الملأ.. وهذا حال الملأ في كل زمان ومكان، يأفكون الناس، بمعنىٰ يصدون الناس عن الحق بعد أن عرفوه (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم. يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيم) (الجاثية:7 ، 8).

كتب العقَّاد مرةً عن يهود، ولم يُنشر كتابه، فجلس بين مريديه يشكو من تلك اليد المخطئة التي تسمح لأشياء ولا تسمح لأشياء، يقول فيما يرويه رجاء النقاش: "ليس بسرّ مجهول عن كثير من إخواننا أن لي كتبًا فرغ المترجمون من نقلها إلىٰ اللغات الأجنبية، وإن فصولاً منها نشرت في الصحف، ثم وقفت الأيدي الخفية دون طبعها ونشرها، فلم تزل مخطوطة غير مطبوعة إلىٰ الآن، حيل بينها وبين الظهور بدسيسة ممن يعملون عمل الصهيونية وإن لم يكونوا من بني إسرائيل"(2). ويقول النقَّاش معلقًا: "ولا شك أن الحرب التي تشنها الصهيونية ضدنا ليست حربًا سياسية فقط، وإنما هي فكرية أيضًا".

قد كان عبَّاس العقَّاد في الجملة في مضمار الغرب، كان في الجملة في مضمار المستشرقين، وكان في الجملة ضمن حملة إعادة قراءة الشريعة الإسلامية من

(1) انظر للكاتب: جدال وقتال، بالصفحة الخاصة في صيد الفوائد وطريق الإسلام.

(2) رجاء النقاش، أدباء ومواقف، ص16.

جديد بما يتوافق مع هوىٰ الغربين وما شذ فيه عن هذا السياق لم ينقلوه عنه ولم يحتفوا به.

سادسًا: حصر وهمي:

يقع من يقرأ عن العقَّاد أو المازني أو طه حسين أو غيرهم ممن أُبرزوا في الجيل الماضي في حصرٍ وهمي، وذلك أن ثمة إصرار من العلمانيين علىٰ إخراج دعاة الحق من التاريخ، فمثلاً، فيما يخصنا في الحديث عن العقَّاد، نجد أنيس منصور يكتب عن العقَّاد سبعمائة صفحة ولا يأتي علىٰ سيد قطب، مع أن سيد قطب صاحبَ عبَّاس العقَّاد حينًا من الدهر وأنيس منصور نفسه كتب عن سيد قطب في عهد السادات حين كان يجامل النظام وقتها بالهجوم علىٰ عبد الناصر، وتجده يعرض نقاشات فكرية طويلة دارت بين العقَّاد وجلسائه ولا يتعرض لما دار بين العقَّاد والرافعي، رحمه الله، بل ولا يتعرض للرافعي إلا غمزًا ولمزًا[1]!! وكذا رجاء النقاش حين اضطر لأن يذكر شيئًا عن سيد قطب في كتابه "أدباء ومواقف" لمّح ولم يذكر اسم سيد قطب[2]!!

قلتُ: وهذا ديدن القوم في كتابتهم للتاريخ، فنحن نقرأ تاريخ الفراعنة ولا نجد فيه ذكرًا لأنبياء الله، ومحالٌ أن يكون الله قد ترك الفراعنة بلا نذير، والله يقول:_(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر: ٢٤). يقصون تاريخ الفراعنة ولا يأتون علىٰ أكبر حدث فيه وهو موسىٰ، عليه السلام، وبه قضىٰ الله علىٰ حكم الفراعنة لمصر وورثَ الأرضَ قومٌ آخرون

---

(1) وأعجب ما اطلعت عليه في هذا الباب هو ما فعله القس النصراني لويس شيخو في كتابه "شعراء النصرانية"، وهو كتاب منتشر، وفيه ادعىٰ أن كل شعراء الجاهلية نصارىٰ!!

(2) أدباء ومواقف ص17.

يقول الله تعالىٰ بعد أن ذكر هلاك فرعون وجنوده: (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ) (الدخان: ٢٨)، ويقصون تاريخ الأمم دون ذكرٍ للرسل، لا من اشتهر منهم ولا من لم يشتهر، حتىٰ إن بعضهم يفتش في التاريخ الذي بين يديه ويقول: أين التوحيد؟! متىٰ عرفت البشرية التوحيد؟!!، مع أنه مذكور في المصحف في كل صفحاته.

يصعب تفسير التحولات الفكرية في مصر، والعالم الإسلامي، في العصر الحديث دون استحضار الكافر، بل إننا نجد أن الكافر هو المؤثر الأول في كل التحولات الفكرية في الساحة المصرية، وكان الصراع معه علىٰ الحقيقة، كانت جولة مع الكفر علىٰ أرضنا.



الفصل الثالث
التوحيد والأنبياء عند عبَّاس العقَّاد

حاول عبَّاس العقَّاد تقديم رؤية عن بداية الخلق وتاريخ الإنسان في هذا الكون، وعلاقته بالله الخالق، سبحانه وتعالىٰ ذكره، وهي ذات الأسئلة التي شُغلت بها الفلسفة قديمًا وحديثًا، وهي القضايا المحورية في القرآن الكريم. وإن أول ما يتبادر للذهن حين يرىٰ أحدنا انشغال العقَّاد بمثل هذه القضايا أنه **لم يكن أديبًا كما يدعي محبوه؛ بل كان فيلسوفًا ومفكرًا**، وبالفعل قدَّم رؤية فلسفية لقضايا الدين الرئيسية، وفي عديد من الكتب. بمعنىٰ أنه شغل بهذه القضايا المحورية مدةً من الزمن، ودخل عليها أكثر من مرة، ومن زوايا متعددة: مرة يكتب عن الله، سبحانه وعز وجل؛ ومرةً يكتب عن إبليس، لعنه الله؛ ومرة يكتب عن أنبياء الله كالخليل إبراهيم والمسيح عيسىٰ بن مريم، ورسول الله محمدٍ (العبقريات وطوالع أنوار البعثة المحمدية)، صلوات الله عليهم أجمعين؛ ومرة يكتب عن "الفلسفة القرآنية" وهي محاولة خجولة هزيلة للتوفيق بين قضايا القرآن وقضايا الفلسفة، أو محاولة لإيجاد شرعية "للأديان" في مواجهة المادية الصلبة[1]؛ **فأدب العقّادِ أسلوبٌ.. أداةٌ لتوصيل رسالة. والأدب، من حيث العموم، يقدم فكرةً ويدافع عنها.**

(1) أعني هنا تحديدًا كتابه "الفلسفة القرآنية"، فلم يكن انتصارًا للإسلام، بل لكل الأديان في مواجهة المادية الصلبة، وهي محاولة هزيلة إذا ما قورنت بالجهد المقدم من الدكتور عزت بيجوفيتش، والسبب عدم التخصصية من جهة عباس.

وأكثر ما يلفت النظر فيما كتب العقَّاد عن الله ورسله أنه **لم يستند للوحيين (الكتاب والسنة) كمصدر للمعلومة**، بل تحرك بعيدًا، ينقل عن كل قومٍ ما قالوه في أنبيائهم دون نقدٍ أو تعليق يذكر؛ مع أن حديث الأقوام الأخرىٰ عن الله ورسله يتعارض مع ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية، والعقَّاد يرويه كما هو دون نقدٍ أو تعليق. وكأن ما افتراه القوم مسلمات يجب الأخذ بها. وكأن القرآن لم يكذبهم وينكر عليهم!!

وأكثرَ من النقل عن الكشوفات الأثرية. وسبب اتجاه العقَّاد للكشوفات الأثرية كمصدر للمعلومة، من وجهة نظري، حداثتها وغرابتها. دُفِعَ إليها بموجب غريزته في تبني الغريب والشاذ، أو مخالفة السائد، لا لأنها تشكل مصدرًا موثوقًا للمعلومة. **والكشوفات الأثرية انتقائية وتخضع لمن اكتشفها،** بمعنىٰ أنهم يُنقِبون حيث يشاءون ليقولوا أن هذا الشعب ذو حضارة دون غيره، ولذا لا ينقبون في الجزيرة العربية مع أن الحضارات فيها في كل مكان وتسد ثغرة تاريخية منقوصة عندهم فيما يحاولون استكشافه مما مضىٰ من تاريخ البشرية، وينقبون في الأرض بحثًا عن شواهد مادية علىٰ ما قد كان وهو حال من لا يؤمنون بما أنزل الله علىٰ رسله(1). والآثار لا تنطق وإنما يقرأها من ينبش عنها، ويكملونها بترميمات حسب ما يفهمون هم، وقد عمدوا إلىٰ إخفاء ذكر الأنبياء من تاريخ الأمم السابقة مع وضوح آثار الصلاة (ركوع وسجود) في بعض النقوشات. وكثير من أقوالهم تتصادم مع صريح القرآن الكريم، علىٰ ما سيأتي بيانه في هذا الفصل إن شاء الله.

---

(1) انظر: الشيخ الدكتور سفر الحوالي في سلسلة تاريخ العقيدة نشر في 10/ 2012، أخذ بتاريخ 18/ 3/ 2018 من الرابط: https://cutt.us/cVYfb

ومن أبرز ما يلفت النظر فيما كتب العقَّاد عن الله ورسله أن **فكرة التطور العضوي والمعرفي شكَّلت إطارًا عامًا لما قدَّم**؛ فقد دافع عن دارون وفروضه "العلمية"؛ وطبق فكرة التطور في مجال العقيدة، تحديدًا حال حديثه عن التوحيد والأنبياء، وطبقها في غير ذلك.

وأحاول في هذا الفصل عرض هذه الأفكار الرئيسية من خلال ثلاثة مباحث رئيسية، أحدها يتعلق بما تحدث به عن الله (التوحيد)، والثاني يتعلق بما تحدث به عن أنبياء الله، والثالث محاولة لفهم وتفسير المسارات الفكرية التي تحرك فيها عبَّاس، وهذا المبحث الأخير بمثابة تعليق علىٰ المبحثين السابقين.



المبحث الأول
التوحيد عند عبَّاس العقَّاد

في تقديمه لأحد أشهر كتبه (كتاب الله)، جل جلال ربنا وتقدس، يذكر العقَّاد أن هدفه من الكتاب هو تقديم رؤية عن "نشأة العقيدة الإلهية، منذ اتخذ الإنسان ربًّا إلىٰ أن عرف الله الأحد، واهتدىٰ إلىٰ نزاهة التوحيد"(1)!! ويتحدث عن الإنسان الأول، فيذكر أن الإنسان الأول (آدم عليه السلام) كان همجيًّا(2) بدائيًّا في كل شيء، يقول: "ترقىٰ الإنسان في العقائد كما ترقىٰ في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولىٰ مساوية لحياته الأولىٰ، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقىٰ من أوائل الأديان والعبادات.. وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات"(3)!!

بدأ كتابه بهذه الكلمات وختمه بمثلها؛ ينسج علىٰ فكرة التطور ويقدم أقيسة عقلية من عند نفسه، وكرر ذات الكلام تقريبًا بذات التفاصيل وزاد فيها في كتابه "إبليس" من المقدمة وعلىٰ طول الكتاب، يقول: "قبل أن ننتقل إلىٰ عقائد أهل

---

(1) **موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية**، (لبنان، دار الكتاب العربي،1970) ج1، ص17.

(2) أكثر في هذه الرسالة من استخدام مصطلح (الهمجي الأول)، وأكد هذا المعنىٰ في بداية كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء)، وكذا في بداية كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه)، وفي كتاب (إبليس) في المقدمة والفصل الأول، وألمح إليه وهو يتكلم عن تطور المجتمعات في بداية كتابه عن غاندي! فليست كلمة عابرة. بل معنىٰ مستقر.

(3) ص 6. وأكد هذا المعنىٰ بكلمات متقاربة في خاتمة كتاب (إبراهيم أبو الأنبياء)، وأشار إلىٰ شيء منه في مقدمة كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه)، وفي ص109، 110 من ذات الكتاب. وفي كتاب (عائشة الصديقة بنت الصديق) ص110 وفي مقدمة كتاب (إبليس).

الكتاب في قوة الشر العالمية نتريث هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التي عبرها الإنسان في هذا الطريق، من خطواته الأولىٰ حيث لا تميز بين خير وشر ولا بين إله وشيطان، إلىٰ غايته القصوىٰ في حضارات الأمم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة، وهي أول الأديان الكتابية في التاريخ"[1]. ثم يتابع متحدثًا عن "الهمجي الأول" وأنه كان يؤمن بالأرواح والأشباح... إلخ، حتىٰ تعرف في الأخير علىٰ الله!!

وتحدث عن بداية خلق الإنسان وأيد "نظرية" دارون[2]!!

وفي محكم التنزيل أن الإنسان الأول هو آدم، عليه السلام، خلقه الله بيده:(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ): (ص: ٧٥)، وقال تعالىٰ: (ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ): (السجدة: ٩).

وعلم الله آدمَ الأسماء كلها: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ) (البقرة: ٣١ - ٣٣). واصطفاه الله من خلقه؛ قال تعالىٰ:(إِنَّ اللَّهَ

---

(1) عبَّاس محمود العقَّاد، إبليس، (القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013)، ص62.

(2) التفكير فريضة إسلامية، ضمن المجلد الخامس من مجموعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية ط دار الكتاب العربي، ص963، 964. وأثبت هذا المصدر بالطبعة، كون هذا الكتاب كتب في أواخر أيام العقَّاد (بعد العبقريات)، وكتب بروح "إسلامية" لا بروح السياسي الناقد، ومع ذلك ظهر عبَّاس العقَّاد فيه مؤيدًا بوضوح للدارونية والوجودية بعدها في ذات الصفحات..

اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (آل عمران: ٣٣). فكان نبيًّا ولم يكن همجيًّا مشركًا كما يفتري عبَّاس؛ وفي الحديث عن أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَيُّ الأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟! قَالَ: «نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ قُبْلاً»(1).

هذا هو الإنسان الأول: خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه حتىٰ فاق الملائكة فيما يخصه، عليه الصلاة والسلام، ثم اصطفاه علىٰ العالمين، فكان نبيًّا مكلمًا، والعقَّاد يقول: همجيٌ.. مشركٌ..!!

وبعد هذه المقدمة، التي يقرر فيها عبَّاس أن الإنسان الأول كان همجيًّا مشركًا، يبحث عن التوحيد كيف اهتدت إليه البشرية؟!، أو كيف تعرفت البشرية علىٰ التوحيد؟! يناقش عبَّاس العقَّاد بواعث الدين.. هل هي (الأسطورة) أو (ملكة الاستحياء) أو(السحر)، أو هل نشأت العقيدة من (إحساس الإنسان بالضعف) أم أنها (ظاهرة اجتماعية).. أو (حالة مرضية) أو (خليط من الجماعية والفردية)، كما يزعم أهل الفلسفة(2)؟!!

ثم يرفض أن ينفرد أيٌّ من هذه التعليلات، ويعطي تفسيرًا آخر، يقول بأن منشأ العقيدة عند البشر يتعلق بما أسماه (الوعي الكوني) (3) ، ويعرفه بأنه

---

(1) مسند أحمد، حديث رقم 21357. وانظر: تفسير ابن كثير (8/ 540)، وانظر: السلسلة الصحيحة (6/ 167) حديث رقم (2668).

(2) وفي كتابه "الفلسفة القرآنية" يتكئ علىٰ أن الدين، من حيث العموم، فطرة عند الناس.

(3) بعد أن استعرض أقوال الفلاسفة في نشأة العقيدة عقد فصلاً أسماه (الوعي الكوني)، عرض فيه ما لخصتُه في النص أعلاه، وعاد ثانية للحديث عنه في نهاية كتابه، تحديدًا في فصل (وجود الله). ينظر: "الله"، لعباس

الحواس النفسية عند الإنسان، يقول: إن (الوعي الكوني) ملكة قابلة للترقي، ويسند إليها منشأ العقيدة، ويقول: إن ذلك "حقيقة يستلزمها العقل ويؤكدها المشاهد في كل زمن وفي كل موطن وفي كل قبيل"!!

و(الوعي الكوني) غير (العقل) عند عبَّاس، يُفرِّق بينهما بأن أحدهما (الوعي) أشمل من الآخر (العقل)، وأن "الوعي الكوني المركب في طبيعة الإنسان هو مصدر الإيمان بوجود الحقيقة الكبرىٰ التي تحيط بكل موجود"، ويعني بالحقيقة الكبرىٰ التي تحيط بكل موجود الله جل جلاله، ويقول: "ونحن إذا رجعنا إلىٰ تاريخ الإيمان في بني الإنسان وجدنا أن اعتماده علىٰ (الوعي) الكوني أعظم جدًّا من اعتماده علىٰ القضايا المنطقية والبراهين العقلية، وأنه أقوىٰ جدًّا من كل يقين يتأتىٰ من جانب التحليل والتقسيم". ويقول: "البراهين جميعًا لا تغني عن الوعي الكوني في مقاربة الإيمان بالله والشعور بالعقيدة الدينية". ويقول: "وجعل الهدىٰ من الله ولكنه من طريق العقل والإلهام بالصواب".

والمعنىٰ الكامن خلف فكرة (الوعي الكوني) هو **العبقرية، أو بمعنىٰ أدق أن الإنسان هو الفاعل علىٰ الحقيقة، بمعنىٰ أن التدين نشأ من شيء بداخله**؛ ويتضح هذا الربط بين (الوعي الكوني) و (العبقرية) أو تسييد الإنسان وأنه ارتقىٰ دينيًا من تلقاء نفسه، أنه حالَ حديثه عن الصوفية في كتاب (الله) أعطىٰ وصف العبقرية الدينية للمتصوفة، فالصوفية عنده هي العبقرية الدينية، وما ذاك إلا لأن هؤلاء المتصوفة نما عندهم (الوعي الكوني)، فانكشف لهم ما وراء الحجب، فعلموا

محمود العقاد، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، 2013)، ص15-56، ص191-208.

الحقيقة المطلقة. ويضرب الأمثال بالحلاج وابن عربي ورابعة العدوية!!

فالعقَّاد يرىٰ الأنبياءَ بشرًا قد اكتملت فيهم هذه الملكة (الوعي الكوني) أو (العبقرية)، وبهذا عرفوا عن الله وبلغوا الخلق[1]!!

والعقَّاد يرىٰ الدين الإسلامي أفضل الأديان لأنه جاء متأخرًا بعد أن نما (الوعي الكوني) عند الإنسان وبعد أن نمت المجتمعات، وعرفت التوحيد!!

ولكن: ما هو التوحيد الذي يقصده عبَّاس.. هذا الذي تعرفت عليه البشرية بعد التيه لآلاف من السنين بزعمه؟!

يُعرِّف التوحيد:

يُعرف عبَّاس العقَّاد التوحيدَ فيقول: (التوحيد توحيدان: توحيد الإيمان بإله واحد خلق الأحياء وخلق معهم أربابًا آخرين، وتوحيد الإيمان بإله واحد لا إله غيره. ولم تُعرف أمة قديمة ترقت إلىٰ الإيمان بالوحدانية علىٰ هذا المعنىٰ غير الأمة المصرية، فعبادة (آتون) قبل ثلاثة وثلاثين قرنًا غاية التنزيه في عقيدة التوحيد)[2]!!

وفي بداية كتابه (الله جل جلال ربنا وتقدس) أعاد ذات الفكرة مرةً ثانية؛ وعرف الوحدانية بأنها إله أكبر لكل (الآلهة)!!

لاحظ: يرىٰ العقَّاد أن من التوحيد أن يكون الإله ومعه "آلهة" أخرىٰ!! ويرىٰ أن الذين كانوا يعبدون آتون (إله) الشمس هم أرقىٰ أمة في التوحيد!!

---

(1) عرف العبقرية واشتقاقها في كتابه (إبليس، طبعة هنداوي للنشر والتوزيع 2013، ص 119، ص120. وينتهي إلىٰ أنها "وصف للنفاسة بغير نظير".

(2) الخليل إبراهيم ص175، 176. وكرر ذات الكلام في (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) ص56.

وعنده أن أهل فارس عرفوا التوحيد بعد اختلاطهم بالمسلمين، ويذكر أن هذا التوحيد هو الاجتماع علىٰ إله واحد هو إله الخير (يزدان) ولا يشركون معه (أهرمن) كما فعل أسلافهم الأقدمون!!

هذا هو التوحيد الذي تعلموه من المسلمين كما يقول عبَّاس[1]!!

ويقول مثل هذا عن الفراعنة، وعن مشركي يهود في مرحلة ما بعد السبي.

وفي مكان آخر يتكلم عبَّاس العقَّاد عن طورين، أو كما يقول هو: عدْوَتَين، عدْوَة كان فيها الإنسان همجيًّا مشركًا لا يعرف التوحيد، وعدوة عرف فيها التوحيد، ويدعي أن عقيدة بني إسرائيل كانت مرحلة فاصلة بين هذين الطورين أو هاتين العدوتين[2]!!

أي أن كل الأمم قبل بني إسرائيل ما عرفت التوحيد، بل وبنو إسرائيل أنفسهم عند العقَّاد كانوا وثنيين، يقول: بقيت فيهم الوثنية من إبراهيم، عليه السلام، إلىٰ ما بعد موسىٰ، عليه السلام، ولم يأتهم التوحيد إلىٰ قبيل ظهور المسيح بقرون بسيطة!!. ويستدل علىٰ بقاء الوثنية واستمرارها في بني إسرائيل من قبل إبراهيم، عليه السلام، إلىٰ ما بعد موسىٰ، عليه السلام، بعبادة عجل الذهب في سيناء[3]!!

---

(1) ص 80 في مطلع كلامه عن الفلسفة.

(2) انظر بداية ونهاية كلامه عن بني إسرائيل في كتابه (الله)، وانظر: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) ص111، ولا أدري كيف وصل لهذه النتيجة وهو يقول بأن عقيدة بني إسرائيل هي الأخرىٰ تطورت (وتهذبت مع الزمن)، وأنهم ظلوا يعبدون الأصنام كما كانوا في عهد إبراهيم عليه السلام، وأن ما عندهم عند البابليين والفرس وغيرهم!! وتأتي مناقشته إن شاء الله في الصفحات القادمة.

(3) ذكر في جملة واحدة أن موسىٰ عليه السلام علّم بني إسرائيل التوحيد، ولم يعلق عليها، وهي عادة عند العقاد يأتي علىٰ الأشياء الـمُسلّم بها ويذكرها دون تعليق، ربما يقدم عذرًا لمن يريدون أن يعتذروا عنه بهذا

ويذكر ما هو أشد نكرانًا من ذلك. يقول عن بني إسرائيل: "فعُبَّادِ (يهواه) لم يكونوا ينكرون وجوده ولا ينكرون وجودَ غيره، وإنما كان هو إلههم المفضل علىٰ غيره من الآلهة، كما كانوا هم الشعب المفضل علىٰ الشعوب، فالأرباب الأخرىٰ عندهم موجودة كما يوجد إلههم (يهواه)...[1] ، ولكنها لا تستحق منهم العبادة؛ لأنها أرباب الغرباء والأعداء، وكل عبادة لها فهي من قبيل الخيانة العظمىٰ وليست من قبيل الكفر كما فهمه الناس بعد ذلك، وغاية ما في الأمر أن طاعة الآلهة الغريبة هي كخدمة الملك الغريب.. نوع من العصيان والخيانة... لهذا لم يشغل أنبياء التوراة السابقون بإثبات وجود (يهواه) أو بإثبات وجود الأرباب علىٰ الإجمال، وإنما كان شغلهم الأكبر أن يتجنبوا غيرة (يهواه) وغضبه، وأن يدفعوا عن الشعب نقمته وعقابه، ولم يكن له عقاب أشد وأقسىٰ من عقابه لأبناء إسرائيل كلما انحرفوا إلىٰ عبادة إله آخر، من آلهة مصر أو بابل أو كنعان"[2].

وفي كتاب(إبليس) أكد هذا المعنىٰ فقال: "إن الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية"[3].

الاعتراض الذي لا يعني شيئًا في سياق كلامه، وقد فعل هذا مع حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي جاء فيه صفة الوحي، ذكره في عبقرية محمد غير مستدلٍ به، ولم يناقشه مع أنه ينقض كلَّ ما يذهب إليه!!

(1) النقاط منه وليست مني.

(2) انظر: فصل بني إسرائيل في كتاب (الله)، وانظر: ص 58، 77 من كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) ضمن المجلد الخامس من موسوعة العقَّاد الإسلامية ط. دار الكتاب ـ بيروت، وانظر كتاب (إبليس) ص89 و127.

(3) ص93.

فهذا ترتيبها عنده: شرك وخرافة.. وثنية وتيه، ثم خليط من الوثنية والتوحيد، وهم بنو إسرائيل إلىٰ قرب المسيح، عليه السلام، ثم توحيد بمفهوم العقَّاد للتوحيد.

ويثور سؤال: **هل كان عبَّاس يقرأ كتاب الله؟، هل كان يصدق ما أنزل الله علىٰ نبيه؟!!، هل كان يفكر فيما يقول؟!!**

إسرائيل هو يعقوب، عليه السلام، وبنو إسرائيل هم أبناؤه[1]، وكان نبيًّا موحدًا، وأبناؤه كانوا مؤمنين موحدين، وقيل بنبوتهم، ومنهم يوسف، عليه السلام، نبي من أنبياء الله. وموسىٰ بن عمران، عليه السلام، أكبر أنبياء بني إسرائيل وأكثرهم أثرًا فيهم وفي التاريخ قبل رسول الله ﷺ، وعندنا أنه كان نبيًّا مرسلاً يأتي يوم القيامة ومعه السواد العظيم من المؤمنين الموحدين يدخلون جنةَ ربِّ العالمين، ولن يدخل الجنة مشرك، يقول الله تعالىٰ: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ) (المائدة:72)، وفي الحديث: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَىٰ فِي قَوْمِهِ»[2]، وبعد موسىٰ، عليه السلام، «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الأَنْبِيَاءُ؛ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ»[3].

---

(1) يهود اليوم لا يصح نسب غالبيتهم ليعقوب عليه السلام فكل جماعة منهم يشكك بعضها في نسب بعض، فمن قديم تكلموا في أنساب يهود العرب، واليوم يتكلم في نسبهم العارفون بتاريخهم؛ يقولون: إنهم من قبائل أوروبا الشرقية دخلوا اليهودية متأخرين، انظر: جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجيا.

(2) متفق عليه؛ البخاري برقم 3158، ومسلم برقم 323.

(3) البخاري برقم 3196، ومسلم برقم 3429، واعترف العقَّاد بذلك في تعليقه- في ذات الكتاب- علىٰ تأثر اليهودية بالفلسفة.

لا يرىٰ العقَّاد أيًّا من هذا، ويمضي ليقول: إنهم كانوا مشركين لم يعرفوا التوحيد إلا بعد ذلك بقرونٍ عديدة!!

والتبس الأمر علىٰ عبَّاس، فبنو إسرائيل طرأ عليهم الشرك كما غيرهم من الأمم، ولم يخلُ زمان من نذير يذكِّر الناس بأيام الله، ولم تخل أمة من رسول يتلو عليها آيات الله، قال تعالىٰ: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (فاطر: ٢٤)، و(يهواه) الذي يتكلم عنه عبّاس ظهر في المشركين من بني إسرائيل، ولم يكن هو معبود بني إسرائيل كلهم من أبيهم إبراهيم إلىٰ عيسىٰ، عليه السلام، والذين جاءوا من بعده، وإنما عبده المشركون منهم فقط، أولئك الذين حرفوا الكتاب، وعُرِفَ عند يهود وعند غير يهود من الوثنين ممن عاصروهم أو سبقوهم أو لحقوهم[1]. بمعنىٰ أن عَبَدَةَ (يهواه) هم المشركون من بني إسرائيل، وهم الذين كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا: هذا من عند الله. وما هو من عند الله، بل قالوا علىٰ الله الكذب وهم يعلمون. وظن عبّاس أن كل بني إسرائيل بما فيهم الأنبياء عبدوا (يهواه)، وذلك لعدم توقيره لأنبياء الله!!

والعقَّاد متردد كما هي عادته، ففي بداية كتاب (إبراهيم أبو الأنبياء)[2] يقرر في المقدمة أن إبراهيم، عليه السلام، علَّم الناس التوحيد، يقول: "إن دعوة الخليل قد اقترنت بالتوحيد"، ويصرّح بأنه أول نبي[3]. وهذا تصور خطأ كما

(1) تكلمت عنه ثريا منقوش في كتابها (التوحيد في تطوره التاريخي)، وتكلم عنه جواد علي في المفصل، وهذا الأمر طبعي في الوثنيات كلها، حتىٰ أصنام العرب كلها بلا استثناء عُرفت عند الشعوب الأخرىٰ التي سبقتهم، وهو الشيطان يوحي لأوليائه في كل مكان بذات الشرك.

(2) أعتمدُ علىٰ نسخة المكتبة العصرية. صيدا. بيروت.

(3) ص6، وأكد هذا في ص150، وفي نهاية بحثه ص197.

تقدم، فآدم أول إنسان وأول نبي. وبعدها بقليل يقرر عكس ذلك كله، فيقول بأن البشرية عرفت التوحيد قبل إبراهيم، عليه السلام، ولكنها لم تعرف الأنبياء، وإنما عرفت التوحيد قبل إبراهيم، عليه السلام، من الكهان في المعابد والهياكل، ويسمي ما قبل إبراهيم، عليه السلام، بعصور الكهانات والهياكل!!

وكل ذلك خطأ. كل ذلك عكس ما قدَّمه في كتابه (الله) من الحديث عن أن البشرية نشأت علىٰ الشرك وظلت عليه أزمنةً مديدة.!!

كل ذلك يعكس أن أفكار الكافرين شربها مسلمون ورددوها دون أن يفكروا فيها مع أنها تتصادم كليًا وبشكل شديد الوضوح مع ما أنزل الله علىٰ رسوله ﷺ.

وأيضًا متردد في أمر (يهواه)؛ ففي كتاب (إبراهيم أبو الأنبياء) يذكر العقَّاد أن (يهواه).. إله يهود المزعوم (كان معروفًا عند قبائل سوريا الشمالية، بل إن أسماء الآلهة كانت واحدة عند الشام وفلسطين واليمن والعراق)[1]. وهذا نقد لما قرره في كتاب (الله) جل جلاله[2].

ومتردد في حديثه عن بني إسرائيل؛ فحينًا يقرر أن بني إسرائيل كانوا علىٰ الشرك ولم يعرفوا التوحيد إلا قبيل ظهور المسيح، عليه السلام، ثم يعترف في ذات الكتاب ـ وهو يتكلم عن تأثر اليهود بالفلسفة ـ بأن الأنبياء كثروا في بني إسرائيل حتىٰ لم يخلُ منهم زمن، وهذا يعني أن التوحيد بقي في بني إسرائيل من إبراهيم، عليه السلام، حتىٰ مبعث عيسىٰ ابن مريم، عليه السلام، ثم في كتابٍ

(1) إبراهيم أبو الأنبياء ص123، 133.

(2) تشابه الشرك مع اختلاف الزمان والمكان سببه أن كله خرج من رأس الشيطان. فالمنحرفون عن التوحيد أتباع رسل الشيطان، انظر: محمد جلال القصاص: "من وحي الشيطان" أخذ من الرابط: https://2u.pw/KrH8b .

آخر (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) يقرر أن ما أسماه توحيدًا لم يكن توحيدًا؛ يقول: (لم يكن في هذه العقيدة إيمان بالتوحيد)[1]!!

ومتردد أيضًا في أمر (آتون) إله الفراعنة، الذي يعتبر عبادته غاية التنزيه في التوحيد في كتاب (الله)، ففي كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) يرىٰ أن عبادة (آتون) لم تكن غاية في التنزيه كما يدعي هو، بل كانت توحيدًا يشوبه شيء من الوثنية[2]!!

وفي مكانٍ آخر يقول: "فكانت فكرة الله في الإسلام هي الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة في هذه العقائد الدينية وفي المذاهب الفلسفية التي تدور عليها"[3]، وبعد هذا الكلام يقول: "نختم الكلام علىٰ العقيدة الإلهية سائلين: كيف تسنىٰ لنبي الإسلام أن ينفرد بهذه الدعوة وحيدًا في تاريخ الأديان؟!"[4].

وردد ذات الكلام في مكانٍ آخر؛ ففي كتاب (إبليس) ص127 وما بعدها، وبعد استعراض للديانات الكتابية الثلاث وحديثها عن الشر (الشيطان) يذكر أن هذه الديانات كانت متوالية ومتطورة، وأنها خُتمت بالإسلام؛ يقول: "ثم جاء الإسلام فبسط علىٰ الوجود كله وحدة لا مثنوية فيها علىٰ وجه من الوجوه"[5].

وهذا خطأ في التصور عند عبَّاس سببه البعد عن النص الشرعي، أو بالأحرىٰ عن فهم النص الشرعي كما ينبغي، أوجد هذا الخلل عند عبَّاس العقَّاد القولُ

---

(1) موسوعة العقَّاد الإسلامية (5/ 61).

(2) موسوعة العقَّاد الإسلامية (5/ 56) ط. دار الكتاب ـ لبنان.

(3) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص52.

(4) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص83.

(5) كتاب (إبليس) ص 128.

بتطور العقائد كما تطورت الصناعات، فالإسلام لم ينفرد وحيدًا بالدعوة، بل الإسلام هو دين الله الذي ارتضاه للناس أجمعين من آدم إلىٰ محمد، صلوات الله عليهم أجمعين، ودين الله هو الإسلام، بعث به رسله جميعًا، فنحن نعتقد أن الأنبياء جميعًا كانوا علىٰ الإسلام الذي هو الاستسلام لله وحده لا شريك له، الذي هو التوحيد، الذي هو ملة إبراهيم، فكل الأنبياء عندنا، من آدم إلىٰ محمدٍ، صلوات الله عليهم أجمعين، مسلمون. الدين عندنا واحد وهو الإسلام، ولكن شرائع مختلفة.

عندنا أن إبراهيم، عليه السلام، مسلم؛ قال الله تعالىٰ: (مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (آل عمران: 67)، وقال الله تعالى:(إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) (البقرة: 131). وفي القرآن الكريم أنه، وولده إسماعيل، كانا يدعيان الله بهذا الدعاء: (رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) (البقرة: 128).

ويوسف، عليه السلام، كان مسلمًا يناجي ربه قائلًا: (رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ) (يوسف: 101).

وموسىٰ ،عليه السلام، وقومه: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) (يونس: 84)، (رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) (الأعراف: 126).

ونوح، عليه السلام: (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ) (يونس: 72).

وسليمان ،عليه السلام، في قصة مكاتبته لملِكة سبأ جاءت هذه الآيات: (أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ) (النمل: 31)، (قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ) (النمل: 38)، (وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ) (النمل: 42).

ولوط، عليه السلام، جاء في وصف بيته علىٰ لسان الملائكة: (فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ) (الذاريات: 36). وكذا الحواريون أتباع عيسىٰ، عليه السلام؛ قال الله تعالىٰ: (وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ) (المائدة: 111).

فكل الأنبياء كانوا مسلمين، وكل الأنبياء أُرسلوا بالتوحيد، قال الله تعالىٰ: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ) (الأنبياء: 25)، (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ) (آل عمران: ١٩).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ فِيْ الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ». قَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ».

والعجيب أن العقَّاد يعرف هذا، أو مرَّ بتلك الحقيقة، أو مرّت به تلك الحقيقة، ولكنه دارَ حولها وحاول أن يلتف عليها، أو أن يلفها ليحجبها عمن

يريدها[1]. يقول: "كل المتدينين قبل الدعوة المحمدية موصفون بأنهم مسلمون كما جاء في سورة البقرة؛ قال تعالىٰ: (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ) (البقرة: 130)".

وقبل أن أنصرف أختم بهذه الفقرة من كتاب عبَّاس العقَّاد "التفكير فريضة إسلامية" لتعرف أن العقاد في كتاباته لم يكن له انتماء واضح لعقيدة بعينها، أو علىٰ الأقل لا يرىٰ قبح الشرك وأهله، ولذا ردد أقوال الكافرين بين المسلمين، يقول: "من العسير علىٰ الكثيرين من المتدينين المؤمنين بالأنبياء أن يذكروا أسبابًا عقلية لتفضيلهم الدين الذي يعتقدونه علىٰ سائر الأديان التي لا يعتقدونها، وغاية ما عندهم من التعليل لهذا التفضيل أن يؤمنوا بهذه العقيدة لأنها عقيدة نبيهم، ولا يؤمنون بالعقائد الأخرىٰ لأنها عقائد أنبياء آخرين لا يؤمنون بهم"[2].

وكأن الأنبياء مختلفون فيما أرسلوا به!!

*****

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص263.

(2) ص 915.

المبحث الثاني

النبوة والأنبياء عند عبَّاس العقَّاد:

حال حديثه عن النبوة والأنبياء قدم عددًا من المفاهيم شديدة البعد عن التصور الإسلامي، من ذلك: أن صلاح حال الناس بالأنبياء وبالكهان!!. فعنده أن الأنبياء لمدن القوافل وعلىٰ أطراف البادية والكهان للمدن الكبرىٰ ذات الحضارات العريقة!!

وعنده أن النبوة تطور للكهانة والسحر والشعوذة.

وعنده أن النبوة بدأت بإبراهيم، عليه السلام، وقبل الخليل لم تكن نبوة!!

والمحصلة أن عباس تحدث، كعادته، بالغريب والشاذ حتىٰ في أشهر الأمور وأوضحها. وقدَّم مادة "علمية" أفاد منها الكافر في تقديم قراءة مغلوطة للشريعة الإسلامية لعوام الكافرين يصدهم عن دين الله، ويشغلنا نحن بالرد والتعقيب، وقد مرّ بنا، في المقدمة، نموذج زكريا بطرس وناهد متولي، وهو نموذج مشهور ومنتشر!!

الأنبياء لنوعية معينة من المدن:

يدعي عبَّاس العقَّاد أن المدن المتصلة ذات الحضارات القديمة لا تصلح لدعوة الأنبياء، وإنما يصلح لها الكهان. يقول: (فليست دعوىٰ النبوة بالدعوة التي تشيع وتجتذب إليها الأسماع في مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران فيها بعاداته وآفاته مئات السنين أو ألوف السنين... وإذا شاع الفساد في مواطن الحضارة فالمسألة في هذه الحالة مسألة تشريع وقانون أو مسألة تنظيم وتدبير.. فليست بلاد العمران المتصل مهدًا صالحًا للرسالة والنبوة)[1]!!

(1) أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ص 141، 142.

ويدعي أن من (البديهيات) العقلية أن الأنبياء كانوا بالمدن التجارية التي تختلط فيها البداوة بالحضارة.. تلك المدن التي تكون علىٰ مقربة من الصحراء (مكة)، و(سدوم)[1]، و(مدين)[2]، وحيث إن مُدن النهرين (دجلة والفرات) كانت مدن قوافل، إذًا كان لا بد أن يكون فيها أول نبي، إبراهيم، عليه السلام !!

ولا أدري كيف يرىٰ الأنبياء؟!

هل يراهم وعاظًا فقط، وهل يرىٰ دعوتهم بلا تشريع ولا تنظيم للحياة، مع أن أشهر ما عرض علىٰ صفحات الأيام هو الحضارة الإسلامية وملك داود وسليمان؟؟!!

ولا أدري كيف يجول بخاطره أن حال الناس يمكن أن يصلح بدون رسالة؛ بل وبالكهانة؟؟!!

والأنبياء عمت دعوتهم الجميع، فلم تترك بيت مدر ولا وبرٍ إلا دخلته، ولم تقتصر دعوتهم علىٰ نوعية معينة من المدن بل جاءت للجميع، أرسل الله في كل قومٍ نذير، وأبرز الأمثلة وأشهرها موسىٰ، عليه السلام، بُعث في أقوىٰ حضارة في زمانه وحيث الكهان!! ومن قبله إبراهيم، عليه السلام، كان في بلد ذات حضارة أيضًا، وهود، عليه السلام، بعث في قوم "إرم وكانوا يبنون بكل ريع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون، وإذا بطشوا بطشوا جبارين، وصالح كان في قوم ينحتون من الجبال بيوتًا فارهين... إلخ. فليس بصحيح ما يدعيه عبَّاس من أن الرسالات محصورة ومحدودة بحدود مدن القوافل، لا مدن الحضارات!!

---

(1) مدينة لوط عليه السلام، وسدوم فعول من السدم، وهو الندم مع غم، ويضرب بقاضيها المثل في الجور. معجم البلدان (3/ 200).

(2) مدينة شعيب عليه السلام، وسميت باسم الشعب الذي يسكنها، بني مديان بن إبراهيم عليه السلام.

والله يقول: (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِير) (فاطر: ٢٤)، والله يقول: (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)، والله يقول: (وَلِكُلِّ أُمَّة رَّسُول) (يونس: ٤٧)، والله يقول: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ) (النحل: 36)، والله يقول: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا) (المؤمنون: ٤٤)، والله يقول: (كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْج سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير) (الملك: ٨ – ٩).

ووجدت الكهانة في البادية كما وجدت في الحضر، ووجدت في المدن الكبرىٰ وفي المدن الصغرىٰ. وجدت في كل مكان حلَّ فيه الإنسان.. عند العرب وعند الهنود وعند الرومان وعند اليونانين وأهل السودان، وليس فقط في المدن الكبرىٰ كما ادعىٰ العقَّاد. وكهان الجزيرة العربية، وكهان الفراعنة والحضارات القديمة يعرفهم ويكتب عنهم كل من خطَّ بيدين أو تكلم بلسان!!

الأنبياء وأهل البادية:

وعند عبَّاس العقَّاد أن أهل البادية لا يصلحون للرسالات.. تخرج منهم أو تقيم بينهم، فتعرّفهم علىٰ (الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة التي ينشرونها باسم الإله ويستمعون وحيها من نذر السماء، فذلك من وراء التخيل فضلاً عن التفكير فيه)[1] ، ويؤكد هذا المعنىٰ فيقول: (فنشأ الحكماء والنساك في الصين والهند علىٰ مثال كنفشيوس وبوذا، ولم ينشأ فيهم الأنبياء المرسلون والرسل المجاهدون؛ **إذْ كانت أمانة النبوة المجاهدة شيئًا غير أمانة الإصلاح والتعليم)**[2]**!!**

(1) أبو الأنبياء إبراهيم ص 144.

(2) أبو الأنبياء إبراهيم ص 149، 150.

وإذا كان أشخاص الأنبياء ليسوا من البادية (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) (يوسف:109) فهذا لا يعني أبدًا أن دعوتهم لا تصلح لأن تُعرِّف أهل البادية على الحقوق والفضائل وخلائق الصلاح والاستقامة باسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد. بل إن هذا قد حدث بالفعل.. واقع مشاهد يعرفه الجميع وإن أنكره عبّاس، فقد استقر الإسلام في أهل البوادي من الصين للمغرب العربي، يقول العليم الخبير، سبحانه وعز وجل: (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (التوبة:99)

البداية من إبراهيم الخليل !!

يزعم أن النبوة بدأت بإبراهيم، عليه السلام[1]، فهو أبو الأنبياء جميعهم عنده، بمعنىٰ أنه كان أولهم، ولا أنبياء عنده إلا عدد قليل من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ـ يعدون علىٰ أصابع اليد الواحدة هم من كانوا في (مدن القوافل)، ويصرح بأن الله —سبحانه وتعالىٰ ذكره– اختص الأمم السامية بالنبوات[2]، وفي مكانٍ آخر يخصص أكثر فيقول: (أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية)[3].

ويحاول أن يعطيها تسلسلًا في الزمان والمكان، ينسج علىٰ فكرة "التطور"،

(1) وهو مضطرب؛ ففي كتاب إبليس ص83 في بداية فصل (في طريق الأديان الكتابية) يذكر أن أول الديانات الكتابية ـ كما يسميها ـ هي ديانة التوراة!!

(2) إبراهيم أبو الأنبياء ص138.

(3) ص 157، وأكد ذات المعنىٰ في ص 179.

فيذكر أنها بدأت في جنوب العراق حيث كان إبراهيم، عليه السلام، ثم الشام ثم الحجاز؛ فيقول: (ويطرد الترتيب بزمانه كما يطرد بمكانه، فمن آشور إلىٰ حبرون[1] أو بيت المقدس، إلىٰ مدن خليج العقبة إلىٰ مدينة الحجاز المقدسة، وعندها نهاية المطاف). ويقول بعد ذلك مستنتجًا ومؤكدًا لهذا الذي ادعاه: (وإننا لو سلكنا التاريخ الديني طردًا وعكسًا، ثم سلكناه عكسًا وطردًا، لما كان له من مسلك أقوم وأثبت من بدايته ونهايته بين «أور» في جنوب العراق ومكة في وسط الحجاز).

وإبراهيم الخليل، عليه السلام، أبو الذين جاءوا من بعده من الأنبياء، وليس أبو الأنبياء جميعهم فقد سبقه أنبياء كثر، وسبق أن بينا أن آدم، عليه السلام، كان نبيًا مكلمًا، وفي التنزيل أن إدريس، عليه السلام، كان نبيًّا: (وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا) (مريم: ٥٦)، وهو قبل إبراهيم ،عليه السلام،، وفي التنزيل أن نوحًا ،عليه السلام، كان نبيًا، (إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوح) (النساء: ١٦٣)، وفي التنزيل أن هودًا وصالحًا، عليهما السلام، كانا أنبياء وكانا قبل إبراهيم، عليه السلام،. ولم يكن عدد الأنبياء قليل كما يزعم العقَّاد، بل كان عددهم كثير، ففي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَمْ وَفَّىٰ عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟! قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا». وفي القرآن الكريم عدد غير قليل من أنبياء الله موزعون علىٰ جنبات المعمورة، في جنوب الجزيرة عاد.. قوم هود عليه الصلاة والسلام، وثمود في شمال الحجاز، ومدين جنوب الشام، وقوم لوط

(1) هي مدينة الخليل عليه السلام.

بالأردن تحت البحر الميت، وموسىٰ، عليه السلام، بعث في مصر... إلخ، والعقَّاد يجعلهم قلة يعدون علىٰ أصابع اليد، لا يعترف إلا بمن أرسلوا في "مدن القوافل" بين العراق والشام والحجاز!!

النبوة والكهانة:

ويرىٰ العقَّاد أن هناك نوعين من الديانات، ديانات الأنبياء و"ديانات" غير الأنبياء، أو كما يسميها هو أحيانًا "ديانات كتابية" و"ديانات غير كتابية"، ويصرح في كتابه (الله) وفي كتابه "إبليس" أن الوثنية عنده هي "الديانات" غير الكتابية، وديانات الأنبياء المعروفين (إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد ﷺ) هي الديانات الكتابية ويرتب بينهما من حيث الزمن، فعنده الديانات غير الكتابية (الوثنية) كانت دهرًا طويلًا قبل الكتابية (ديانات الأنبياء)[1] ، ويقارن بينهما فيقول: (والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرىٰ أن النبي لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد، ولكنه ينبعث بباعث واحد من وحي ضميره ووحي خالقه)[2].

ويقارن بين النبي والكاهن؛ فيذكر أن الكاهن يعين والنبي لا يعين، ويذكر أن الكاهن وجهته نظام المجتمع وتقاليد الدولة وما إليها من الظواهر أو الواجبات العامة، والنبي وجهته سريرة الإنسان[3]!!

وهذا الكلام لا تجده ولا تسمع به إلا عند العقَّاد، لا يقول به مسلم ولا نصراني ولا يهودي.. بل ولا وثني، فقط تسمعه من العقَّاد المخالف للجميع دائمًا!!

---

(1) انظر: كتاب إبليس، ص86، وقد رتب كتابه بناءً علىٰ الزمن، وصرّح في الصفحة المذكورة (86) بالترتيب، وهو ينطبق مع ما يتكلم به العقَّاد من تطور الديانات كما تطورت المعيشة!!.

(2) ص 157، وأكد المعنىٰ ذاته في ص179.

(3) إبراهيم أبو الأنبياء ص 157، 158.

وعند العقَّاد أن النبوة أنواع؛ يقول: "ومن عجيب الاستقصاء أن القرآن الكريم قد أحصىٰ النبوات الغابرة بأنواعها، فلم يدع منها نوعًا واحدًا يعرفه اليوم أصحاب المقارنة بين الأديان، ومن تلك الأنواع نبوءة السحر ونبوءة الرؤيا والأحلام ونبوءة الكهانة ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس ونبوءة التنجيم وطوالع الأفلاك"[1]. ويقرر في ذات الصفحة أن "النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة"!!

ويدعي أن الأنبياء كانوا أشبه ما يكون بـ"دراويش الطرق الصوفية"، و"اصطنعوا من الرياضة في جماعتهم ما يصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل إلىٰ حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد، وتارة بالاستماع إلىٰ آلات الطرب"، وأن النبوة "كانت صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء"، وأن بني إسرائيل صبروا عليهم ليستفيدوا منهم في "الكشف عن الخبايا والإنذار بالكوارث المتوقعة"[2]. ثم يقول مستنبطًا: "لم تكن النبوة عند القوم في هذه العهود إلا صناعة مرادفة لصناعة التنجيم أو لصناعة الفراسة المنذرة بالكوارث المتوقعة"[3].

ويقول ملخصًا لحال النبوة والأنبياء في بني إسرائيل: "ويتلخص تاريخ النبوة بين بني إسرائيل إذن في كلمات معدودات: إنهم قد استعاروا فكرة النبوة من جيرانهم العرب الذين ظهر فيهم ملكي صادق علىٰ عهد إبراهيم الخليل، وظهر

---

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه من موسوعة العقَّاد الإسلامية (5/ 73).

(2) المصدر السابق ص76 ، 77. وهو هنا يطور فكرة ابن خلدون التي بثها في مقدمته عن الصفاء الروحي.

(3) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص80.

فيهم بعد ذلك أيوب وبلعام وشعيب، ففهموا من النبوة معنىٰ غير معنىٰ الرؤية والعرافة والسحر والتنجيم، وأنهم ما زالوا يتعلمون من جيرانهم إلىٰ أن أتىٰ موسىٰ الكليم الذي تتلمذ علىٰ حمية نبي مدين قبل جهره بدعوته وبعد أن جهر بهذه الدعوة في مصر وخرج بقومه منها إلىٰ أرض كنعان، ولكنهم أخذوها وسلموها فنقصوا منها ولم يزيدوها"[1].

وينطوي هذا التقسيم علىٰ أن الكهان كالأنبياء لصلاح حال الناس، لا أنهم كانوا جزءًا من الانحراف السلطوي والديني، يقول الله تعالىٰ: (هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم)(الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٢) [2] فهؤلاء يتلقون وحي الشيطان، وهؤلاء من رؤوس الضلالة في الناس، وليسوا أحد قسمين ينصلح بهم حال الناس كما يدعي عبّاس.

والعقاد يصطف بجوار أسوا من تحدثوا عن رسول الله ﷺ مثل: توفيق فهد في كتابه "الكهانة العربية قبل الإسلام"، وسيد القمني في عدد من كتبه[3]، وجوزيف قذىٰ (أبو موسىٰ الحريري) في عددٍ من كتبه[4]، وجماهير المستشرقين و"المبشرين" .. كل هؤلاء يحاولون إثبات أن البعثة المحمدية كانت أرضية.. أن النبوة تطور لشيء في بيئة النبيﷺ ويأتون من جهات متقاربة، مثل: "الكهانة والسحر والشعوذة، السيطرة علىٰ العرب باسم الدين، يطلب ملكًا فقده أجداده،

(1) حقائق الإسلام ص 82.

(2) ذكر الطبري وغيره أن المقصود بالآية هنا هم الكهان.

[3] أهمها "الحزب الهاشمي"، وسيد القمني يتيه فخرًا بعباس العقاد، ولا يكاد يذكره إلا باسم "الأستاذ"، وأعتقد أن هذه وحدها تكفي لتبين مكانة العقاد.

[4] يلحق به خليل عبد الكريم فقد نقل عنه كثيرًا.

سمع من يهود وتأثر بهم...إلخ"، وكل الأبواب موصدة، وقد ناقشت هذا الأمر باستفاضة حال الرد علىٰ شبهات النصارىٰ[1]، فقط أريد أن أبين أن عبّاس يقف في أسوا مكان.. مع أعداء الدين؛ ولا أتهمه بالكفر؛ فقط أبين أين يقف ومن استفاد من أطروحاته[2].

إن تبني العقاد لفكرة التطور وفكرة العبقرية هو الذي ألقىٰ به في هذا الغائط بجوار الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله. فعنده أن الأمور كلها تتطور وأن الأشخاص (العباقرة تحديدًا) هم الذين يصنعون الأحداث.

العقَّاد وغاندي!!

غاندي عند العقَّاد نبي مكتمل النبوة، ودينه هو «الأهمسا». وقد شرح العقَّاد دين غاندي الذي كان يبشر به ثم قال معقبًا بعد أن بشّر بها: "هذه هي خلاصة «الأهمسا» كما كان غاندي يبشر بها أبناء أمته، وأبناء كل أمة تصل إليهم دعوته"[3] ؛ بل تستطيع أن تقول: إن العقَّاد كتب لشرح ملة غاندي، فكلامه عن دينه وليس عن شخصه، واسم الكتاب الذي اختاره يدل علىٰ ذلك، بل راح يروّج لهذا (الدين) الجديد بذكر حال أوروبا وقد وعت الدرس وآمنت بمبادئ "رسول السلام" غاندي.

أقول: ولو أن الشريعة حاضرة في ذهن العقَّاد ما رضي بهذا القول، ولمارس

(1) انظر للكاتب، زكريا بطرس: دراسة بحثية تحليلية نقدية مختصرة. طبع عدة مرات، وإن شاء الله أعكف عليه بعد الانتهاء من هذا الكتاب وأعيد صياغته.

(2) وفي الفصل الخاص بمناقشة العبقريات ستظهر هذه الفكرة بوضوح تام، فالعقاد يؤمن بأن البعثة إنما جاءت بوحي من البيئة التي نشأ فيها النبي.

(3) انظر كتابه عن غاندي ص98.

عليه النقد لا أن يردده بفخر واعتزاز.

العقَّاد يصدق ما يعرض عليه، أو يصدق ما يتكلم به النصارىٰ والوثنيون واليهود عن معتقداتهم، ويتكئ عليه ويستدل به أو يناقشه أو يعرضه علينا. فعل هذا مع اليهود، وفعل هذا مع النصارىٰ، ومع البوذيين، ومع قدامىٰ المصريين، والأفارقة الوثنيين، وفعل هذا مع غاندي عابد البقرة!!

فتجده مصدقًا للجميع، أو لا يناقشهم نقاش معترض علىٰ عقائدهم، ولك أن تتدبر كتاب (إبليس) وكتاب (الله) جل جلال ربنا وتقدس، وكتاب "عبقرية المسيح"، عليه السلام، ستجد فيه الشيء الكثير من هذا وهو يتكلم عن الديانات الأخرىٰ. تجده يتحدث عن الديانات الأخرىٰ بما يقدمه بها أصحابها دون أن ينقضها، فيعرض كلام غاندي عن أمه البقرة، ويعرض أفكار غاندي، ويعلن احترامه لها، وإن كان لا يوافقها!! ، ويعرض ما تكلمت به يهود عن أنبياء العهد القديم وكأن كلامهم حقائق يحاكمهم إليها.

لا يرىٰ التناقض بين هذه العقائد والدين الإسلامي، ولا يشجب علىٰ تلك العقائد؛ ذلك أن الدفاع عن العقيدة الإسلامية أو النكير علىٰ غيرها من العقائد المضادة لا يبدو أنها قضيته. ويأتيك كشفٌ لقضية العقَّاد الأولىٰ التي يدافع عنها ونحن نتكلم عن العبقريات إن شاء الله تعالىٰ وبحوله وقوته.

إنكار المعجزات:

ينكر المعجزة[1]، ويستدل علىٰ أن النبي ﷺ لم يقدم معجزة لمن سألوه إياها

(1) انظر: فصل العقائد في كتابه "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" ص73 وما بعدها، وانظر: فصل المعجزة في كتابه (التفكير فريضة إسلامية).

في مكة بقول الله تعالىٰ: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا. وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا. قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا) (الإسراء: ٩٠ – ٩٥)، ويستدل، كذلك، بحديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه: كَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ: كَسَفَتْ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا وَادْعُوا اللهَ»(1).

ولا دليل فيما قدم فالمعجزة ثابتة في آيات كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما إنكار العقَّاد للمعجزة فرع علىٰ إنكاره الوحي من الله لأنبيائه أو تفسيره الخاص للوحي والذي ينتهي إلىٰ أن النبي ارتقىٰ حتىٰ علم عن الله، فعنده أن النبي بشر (عبقري)، وثبوت المعجزة يهدم بيت العقَّاد من قواعده، ولذا أنكرها!!

المعجزة، ويدخل فيها ضمنًا الإنباء بغيب، هي الأمارة العقلية علىٰ النبوة.. علىٰ تلقي وحيًا من الله. والمعجزة هي الثابت الذي نتحاكم إليه في القول بأن هذا نبي أو ليس نبيًا، فتأييد النبي بمعجزات وإخباره عن غيبيات، أتت أو ستأتي، دليل علىٰ أن النبي علىٰ علاقة بعلام الغيوب سبحانه وتعالىٰ وعز وجل،

(1) البخاري برقم 985.

ومعجزات النبي ﷺ كثيرة بالكاد تحصىٰ، ونبوءات النبي ﷺ كثيرة أيضًا لا تكاد تحصىٰ؛ فالقرآن أول معجزاته، والجمادات نطقت بين يديه وشهدت له بالرسالة[1]، وانشق له القمر[2]، وعدد من المرضىٰ برئ بدعائه أو بلمسة يده أو بتفلة من فمه الشريف[3]، والطعام كُثِّر ببركته عدة مرات يوم الأحزاب ويوم تبوك ويوم عمرة القضاء[4]، والشاة العجوز التي لا تلد حلبت حين مسّ ضرعها بيده الشريفة[5]، والماء نبع من بين أصابعه[6]، والجذع حنَّ لفراقه[7]، وأنبأ عَدِيًّا بن حاتم الطائي بأن الله سيتم هذا الأمر حتىٰ يصير الراكب لا يخشىٰ إلا الله والذئب علىٰ غنمه[8]، وأن الله سيفتح الشام واليمن والعراق، وأن نفرًا من أصحابه سيخرجون إليها ويدعون المدينة[9]، وأنه إذا هلك كسرىٰ فلا كسرىٰ بعده[10]، وأن عمَّارًا تقتله الفئة الباغية[11]، وأن عمر وعثمان شهيدان[12]،

---

(1) البخاري حديث (3579)، ومسلم حديث (4222).

(2) البخاري حديث (3636)، ومسلم حديث (5010).

(3) البخاري حديث (2942)، ومسلم حديث (4423).

(4) البخاري حديث (602)، ومسلم حديث (3833).

(5) مسند أحمد حديث (3417).

(6) البخاري حديث (3579)، ومسلم حديث (4224).

(7) البخاري حديث (918)، ومسلم حديث (1407).

(8) البخاري حديث (3595)، ومسلم حديث (1687).

(9) البخاري حديث (1875)، ومسلم حديث (2459).

(10) البخاري حديث (3120)، ومسلم حديث (5196).

(11) البخاري حديث (447)، ومسلم حديث (5192).

(12) البخاري حديث (3674)، ومسلم حديث (4416).

وأن أصحابه يقتلون أمية بن خلف[1]، ونعىٰ النجاشي في اليوم الذي مات فيه وهو بالحبشة ورسول الله ﷺ بالمدينة[2]، ونعىٰ جعفر وزيدًا وابن رواحة حين قتلوا في مؤتة ـ الأردن حاليًا ـ وهو بالمدينة ﷺ، وكان يصف المعركة[3].

وأخبر من أنباء الماضي؛ فحكىٰ عن مريم، وعن موسىٰ وعيسىٰ، وأهل مدين، والمؤتفكات، وقوم تبع، وأصحاب الرس، وثمود، وعاد، وفرعون، وإخوان لوط، هذا وهو أميٌّ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يخرج من بين شعاب مكة، وما حكاه عنهم لا يتوافق مع ما ورد في كتب اليهود والنصارىٰ حتىٰ يقال: إنه أخذ منهم، والعقَّاد يعرف هذا ويتكلم به في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

وإنكار العقَّاد للمعجزة دليل علىٰ إهماله للنص الشرعي وعدم الالتفات إليه، وتكرر إنكاره للمعجزة في أكثر من مكان من مؤلفاته، فهو إصرار، وليس كلامًا عابرًا، وقضية كبرىٰ عنده ملخصها أنها كلها أرضية، من صنع "عباقرة".



(1) البخاري حديث (3950).

(2) البخاري حديث (1245)، ومسلم حديث (1580).

(3) البخاري حديث (1246).

المبحث الثالث

التوحيد والنبوة بين منظورين

أول ما يتبادر للذهن حين ترىٰ، أو تسمع، ما كتب العقّاد عن الله ورسله سؤالٌ عن مصدر هذه المعلومات: من أين جاء عبَّاس بهذا الفَهم؟!

بداهةً ليس من كتاب الله ولا من سنة رسولهﷺ فما تحدث به العقَّاد يتصادم مع صريح القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد مرت أمثلة كثيرة علىٰ ذلك؛ وكثير منه ترفضه العقول الصحيحة. وقد قمتُ بجمع ما استطعت مما كتب العقَّاد وجعلت أعيد النظر فيه مرة بعد مرة فإذا هو غريب شاذ يستقيم مع طبعه في مخالفة السائد والرغبة في التحدث بالجديد الذي لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، والانطلاق من فكرة التطور وحتمية العامل الوراثي والظروف البيئية!!

والحقية أن الناس انقسموا، منذ خلق الله الخلق، إلىٰ فريقين: فريق اتبع رسل الله وفريق اتبع وساوس الشيطان[1]، والتاريخ صراع بين من اتبع رسل الله ومن اتبع هواه بغير علمٍ من الله واستجاب لوساوس الشيطان: منهجان: منهج وضعي.. أرضي .. حسي Positivism، ومنهج رباني.. سماوي.. رأسي بتعبير الدكتور منىٰ أبو الفضل. والعقَّاد بينهما.

فريقان:

أعطىٰ العهد القديم معلومات محددة عن عمر الإنسان علىٰ الأرض وطبيعة الأرض (ذات زوايا أربعة)، ثم أثبتت الكشوفات العلمية بوضوح خطأ هذه

(1) شرحت هذا بالتفصيل في مقدمة كتاب "تفعيل المنافقين" (هذا البحث تطبيق له).

المعلومات[1]، مما أورث الأوروبيين الشك في كتابهم، وقدموا نقدًا لنص كتابهم بعهديه القديم والجديد[2]، وانتهوا إلىٰ أنه لا يصلح كمصدر للمعرفة. ولهذا استدبر انسان التطور العلمي كتاب اليهود والنصارىٰ كمصدر للمعرفة، واتجه للبحث عن المعرفة وفهم الظواهر الطبيعية بنفسه، فكانت موجة "الكشوفات الأثرية"[3] ومحاولة كتابة تاريخ البشرية مرةً ثانية من خلال الآثار، واستبطن هؤلاء الرفض لكل ما انتسب للوحي، ولذا قدموا قراءة للتاريخ بدون ذكر للرسالات، فحين يتحدثون عن الفراعنة لا يأتون علىٰ ذكر موسىٰ، عليه السلام، مع أنه ارتبط بأحد أهم الأحداث في تاريخ الفرعونية (هلاك فرعون وظهور بني إسرائيل علىٰ مسرح التاريخ (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء:59).

اندفع الإنسان العلماني بحثًا عن المعرفة يحاول الإجابة عن سؤال الخلق: كيف بدأ وإلىٰ أين يسير؟، وما هذه الحياة الدنيا؟ راح يبحث عن المعرفة فيما

(1) انظر الحلقة الأولىٰ من "تاريخ العقيدة" للشيخ الدكتور سفر الحوالي، وفيها أن أول من نبه لهذه الأخطاء هو الإمام ابن حزم. https://2u.pw/IZTpi ، وذكر عددًا من الأمثلة علىٰ ذلك وناقشها. وحديثهم عن عمر الإنسان علىٰ الأرض موجود في سفر التكوين ويتحدثون بأرقام محددة، ثبت بيقين خطؤها.

[2] كان الهدف من النقد النصي هو محاولة التعرف علىٰ مصدر النصوص التي عثروا عليها في مخطوطات كتابهم، ولم يستطع أحد أن يثبت أن النص الموجود بين أيديهم يرجع للمسيح، عليه السلام، أو تلامذته، فأقدم المخطوطات يرجع للقرن الثاني الميلادي، هذا فضلًا عن حالة الغموض التي تكتنف كتبة الكتاب، فضلًا عن نقد المحتوىٰ حين يحاكم لحقائق العلم الآن مثل كون الأرض ذات زوايا أربعة، وأن عمر الإنسان عليها لم يزد عن ستة آلاف عام، ونحو ذلك،،،

(3) يسمي الأوربيون كل شيء يتعرفون عليه كشفًا، مع أنه موجود ومعروف قبلهم بقرون!!

يتعلق بالحياة الدنيا، واتكئ علىٰ أدوات حسية في اكتساب المعلومة، وتتغير معارفه يومًا بعد يوم كلما تطورت أدواته، فما يقال اليوم عن الفضاء -مثلًا- غير ما قد قيل بالأمس. معرفتهم هي التي تتطور نتيجة قصور لديهم لا أن الحقائق تتطور.

ومكَّن اللهُ العلمانيين من السيطرة فنشروا معارفهم علىٰ أنها مسلمات علمية، وبادر إليهم كثير من قومنا يتخذون من كشوفاتهم الأثرية مصدرًا للمعرفة، ويتكئون علىٰ ما افترضه الغربيون من فروض عن التاريخ، يظنون أنها الحقيقة ويُؤخَذون بكثرة المعارف والألقاب التي خلعوها علىٰ أنفسهم ومن والاهم. وظهر صدىٰ ذلك في كتابات طه حسين وكتابات العقَّاد وعدد من المنتسبين للظاهرة الإسلامية تأييدًا أو نقدًا[1]. **وإن الذي قدمه علماء الآثار**، هذا الذي اتكئ عليه كثيرون من قومنا كمصدر للمعرفة وقَبِلَ كثيرٌ منه العقَّاد، **يواجه عددًا من الإشكاليات:**

أولها: أن الكشوفات الأثرية انتقائية فهم ينقبون حيث يشاءون، كما بيّنتُ في مقدمة هذا الفصل.

وثانيها: أن ما يتحدثون به يخضع لرؤيتهم هم، ولتفسيرهم هم، ويلجؤون للترميم كي يستقيم الأمر مع أفكارٍ ثابتة عندهم تتمحور، هذه الأفكار، حول إنكار الإيمان بالله الواحد الأحد الصمد، وإنكار فناء الدنيا والبعث بعد الموت. أو: العداوة للدين. فهؤلاء انطلقوا من رفض الدين واستقروا في الإلحاد. وشكَّل الإلحاد.. أو المادية.. أو الوضعيPositivism (المشاهد علىٰ وضعه كما هو

(1) من هؤلاء جاسم سلطان. وقد ناقشت أفكاره في عدد من المقالات.

دون تفسيرات غيبية) إطارًا ومنظورًا للرصد والتفسير، ومن ثم الممارسة العملية، وفي جميع المجالات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالعلمانية بتفرعاتها الواسعة تنطلق من "الوضعية" حتىٰ النقدي القيمي منها وضعيٌ بشكلٍ ما. أعني المدرسة النقدية، والمدارس التي أدخلت الأبعاد القيمية في فهم الظواهر السياسية والاجتماعية عمومًا، فيما عرف بـ "ما بعد الحداثة".

وثالثها: من خلال متابعة التراكمية العلمية في هذا المجال نجد أنها تتجه بإصرار شديد إلىٰ **توطين الإلحاد**.. دين العلمانية التي تسود العالم اليوم، يحاولون القول بأن الحياة الدنيا من مئات المليارات من السنين، وأن الحياة علىٰ الأرض، علىٰ فرض انتهائها، جزء من مليارات الأجزاء من تاريخ الكون، بمعنىٰ الأزلية للحياة الدنيا. والحقيقة أنهم يتحدثون من خلال ظن وتخمين (ما يسمىٰ فروض علمية)، كما قال الله (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية:24)، وتتغير من وقتٍ لآخر تغير تضاد. ومن شواهد ذلك أنهم يرقعون (يرممون) الآثار لتقول بقولهم!، ومن شواهد ذلك، أيضًا، أن الظواهر لا تتغير وإنما يتغير تفسيرها!!

ورابعها: ومن أهم ما يلفت النظر في هذه الكشوفات التشابه بينها، وخاصة التماثيل والأنصاب، فالأهرامات وجدت في "أمريكا الوسطىٰ"، ووجدت في أفريقيا، ووجدت في الصين. وكذا الرواية النصرانية عن التجسد والصلب للفداء تكررت عشرات المرات علىٰ مدار التاريخ، وموزعة علىٰ الأماكن. وقد ذكر بعض المحللين، ومنهم عبَّاس العقَّاد، أن سبب ذلك هو تمدد الحضارات،

وراح يتحدث عن بطولات خارقة لشعب من الشعوب جعلت ما اشتهر به هذا الشعب من أصنام وأنصاب تتواجد عند شعوب أخرىٰ، فعبَّاس العقَّاد، مثلًا، يفسر وجود تماثيل مشابه لتماثيل الفراعنة في الهند بأن المصريين (الفراعنة) بلغت دولتهم الهند. والغربيون يفسرون تواجد تماثيل الإغريق في الهند بأن اليونانيين غزوا الهند واستقروا فيها حينًا (الأسكندر المقدوني)، وابن خلدون في مقدمته وقف عند مثل هذه الأخبار[1] وراح ينكرها وعلل بأن عامة كُتَّاب التاريخ (الإخباريين كما يسميهم) يخطئون في الجرح والتعديل، أو يذهلون عن المقاصد، ويتوهمون الصدق، وبعضهم يتقرب لأهل التجلة والمراتب بالمدح والثناء وتحسين الأحوال. ويجلهون "قوانين الاجتماع الإنساني" الثابتة (كما يراها هو)، فعند ابن خلدون أن الجرح والتعديل للأخبار الإنشائية فقط، أما الوقائع فإنها تعرض علىٰ العقل.. أو علىٰ ما يسميه "قوانين الاجتماع الإنساني".

،

ولم يحاول أحدهم أن يفسر تمدد بعض الحضارات دون أن يتركوا آثارًا، كما في حالة الفرس مثلًا، فقد جاءوا إلىٰ المشرق فجاسوا خلال الديار، ولم يتركوا آثارًا تذكر. **إنهم حول حقيقة تخفىٰ علىٰ بعضهم، وهي أن الشيطان سبب ذلك كله. نعم: يقينًا الشيطان سبب ذلك كله. ولعلَّ سائلًا يسأل: من أين اليقين**

[1] ضرب مثالًا بـ: المبالغة في عدد جيوش بني إسرائيل في عهد موسىٰ وسليمان، عليهما الصلاة والسلام، وتمدد تتابعة اليمن تجاه الغرب (المغرب العربي) والشمال (أرض الترك)، وقول بعض المفسرين في وصف مدينة [إرم ذات العماد]، ونكبة البرامكة، والطعن في نسب العبديين (الفاطميين). انظر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من زوي الشأن الأكبر، (بيروت، دار الفكر العربي، 1408هـ/ 1988م)، ج1 (المقدمة)، ص13-36.

بأن الشيطان وراء ذلك كله؟

ونقول: الخبر بالمخبر (مَن أخبر عنه)، أو بشواهدٍ في ذات الخبر. والله ربنا، الخلاق العليم، سبحانه، وتعالىٰ ذكره، قد ذكر في كتابه العزيز وسنة نبيه ﷺ أن الشيطان هو الذي حرض البشر حتىٰ نصبوا الأصنام وشيدوا الأنصاب، وأن ذلك مرَّ بمراحل بدأت بتعظيم المبرزين، ثم تصويرهم علىٰ الجدران، ثم نصب أوثان لهم، وأنصاب حولهم، ومن شاء أن يتقرب إليهم بذبحٍ أو عظةٍ يصعد النصب ويذبح عليه شاةً أو يخطب محرضًا الناس علىٰ اتباع الغواية والضلال. وينصب المستفيدون من الكفر (الكهان والحكام) الأصنام والأوثان في حرمٍ يخلعون عليه "قداسة" كي يتخلىٰ الداخل فيه عن يقظته الفكرية والإنسانية، فيهريق عقله ومروءته بدعوىٰ أن لا عقلانية في "التعبد". إنهم **متشابهون. فأفكار الكفر وتطبيقاته العملية محدودة، وتتكئ، في جملتها، علىٰ تعظيم شيء في الأرض لذاته أو وصولًا للذي في السماء، سبحانه وتعالىٰ وعز وجل**. فهذا التشابه في التصوير علىٰ الجدران، والتمثيل بأحجار، والحرم "الآمن"، أمارة في "المخبر عنه" علىٰ أنه خرج من رأسٍ واحدةٍ.. إبليس لعنه الله. وليست حالة من اجتياح الحضارات بعضها بعضًا، فلم تك أبدًا بصمة تتركها "حضارة" علىٰ أختها حين استحلت حرامها، كما يدعي هؤلاء، وقد كان فرعون موسىٰ (رمسيس الثاني علىٰ الأرجح) هو أقوىٰ فرعون، ومع ذلك لم يتعد ملكه حدود مصر المعروفة الآن، فقد قال الرجل الصالح لموسىٰ، عليه السلام، بعد أن ورد ماء مدين نجوت من القوم الظالمين (فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) (القصص:25).

لهذه الحياة التي نعيشها رؤية أخرىٰ مصدرها الوحي المنزل من الله العليم الخبير علىٰ رسله، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وفيها: أن الله هو الخالق، سبحانه وتعالىٰ ذكره، وخلق الخلق بمشيئته ولغاية حددها هو، وأرسل رسلًا مبشرين ومنذرين، وأقام حياة الناس علىٰ الإيمان به، وحين تحدث عن الأمم السابقة في كتابه الكريم تحدث عن عاقبة إيمانهم وكفرهم بالله: ماذا فعل بمن آمن وماذا فعل بمن كفر؟، وماذا أعد للمؤمنين في الآخرة؟، وبماذا توعد الكافرين؟ وقدَّم إجابة شديدة الوضوح لخلق السموات والأرض: (مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) (الكهف:51)، فلا أحد يعرف كيف خلقت السموات والأرض، ولا كيف خلق الإنسان إلا عن طريق الوحي.

وفي القرآن الكريم عرض تفصيلي لخلق الإنسان الأول.. آدم، عليه السلام، وأنه خلق من طين، والذي خلق من طين هو آدم، عليه السلام، أبو هابيل وقابيل، وليس إنسانًا بعيدًا (قبل آدم)، كما يدعي عبّاس وغيره، وآيات سورة "ص" شديدة الوضوح علىٰ أن الذي خُلق من طين هو آدم ،عليه السلام،، يقول الله تعالىٰ: (إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِين. فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ. فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ. إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ. قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ. قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّار وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِين) (ص: 71 -76). وفي آيات آخر ذُكر أن السجود كان لآدم أبو هابيل وقابيل.

وفي القرآن الكريم معالم رئيسية لتاريخ البشر في هذه الحياة الدنيا تتمحور حول الإيمان والكفر بالله، من ذلك: أن البشرية تعرضت للهلاك بالطوفان

(والطوفان مذكور في تواريخ عامة الأمم)؛ وأهلكت قبل موسىٰ، عليه السلام، فلا أحد يعرف ما قد كان قبل موسىٰ إلا عن طريق الوحي من الله، قال تعالىٰ: (ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(القصص:43). وأن البشرية لا تتطور صعودًا أو هبوطًا. بل تسير في دوائر.. أو تصعد وتهبط.

والمقصود أننا أمام منطلقان مختلفان.. رؤيتان مختلفتان، وأصحاب كل رؤية يحاولون تطبيقها واقعًا في مجالات الحياة المختلفة: في السياسة والحكم، وفي الاقتصاد والمال، وفي الثقافة والمجتمع.. في كل شيء. ما يعني أن اللقاء بينهما لا يكون إلا في إطار تابع ومتبوع.. غالب ومغلوب.

عبَّاس العقَّاد بين الفريقين:

وقف عبَّاس بين الفريقين: فمن ناحية لم يركن إلىٰ الوحي ويقول بما قال الله، ومن ناحية أخرىٰ لم يتبنَ عقيدة الإلحاد كليةً. ولم يحاول التوفيق بين الرؤيتين أيضًا. وإنما راح يغرف من هنا ويغرف من هناك، فحديثه عن (الهمجي الأول) هو حديثهم هم، وحديثه عن التطور في العقائد وأن المعرفة جاءت بالتجربة هو حديثهم هم. وحديثه عن وجود أنبياء وإيمان بالله له أصل عندنا وإن خالفنا في التفاصيل. **ونكرر السؤال: كيف وصل عبَّاس العقَّاد لهذا الفهم الغريب؟**

يرجع ذلك لأمرين:

أولهما: الغرق في التفاصيل:

سيطرت التفاصيل علىٰ عبَّاس العقَّاد، سواءً علىٰ مستوىٰ القضايا التي اهتم بها أم علىٰ مستوىٰ الأدوات المعرفية التي استخدمها في الرصد والتحليل. وهذا مضطرد في مراحله المختلفة؛ فقد كان في تفاصيل السياسة.. بداخل حزب.. يناضل عن حزب. وحين قاتل في ساحة الأدب دخل في معركة جانبية ولم يتبنَّ قضية كلية. قاتل شوقي ومن أجل الانتصار في معركة جانبية اصطف، بقصدٍ أو بدون قصد، مع الرؤية الغربية في الأدب، فانتهىٰ الأمر بتحقيق انتصار جزئي علىٰ شوقي وفي ذات الوقت تحقيق أهداف كلية لصالح التمدد الغربي الثقافي في الساحة الإسلامية، فانتظم، من حيث يشعر أو لا يشعر، ضمن سياق نشر الثقافة الغربية!!

ومن المسلمات العقلية والواقعية أن التفاصيل ترتبط دائمًا بالكليات، تعطيها وتأخذ منها، فالكلي مظلة للجزئي، والجزئيات تتجمع وتكون كلية تكون بمثابة مسلمة. فكل عامل يعمل (تنفيذي) مرتبطٌ باستراتيجية تستخدمه لتنفيذ سياسات معينة. والعاقل ينظر أين يقف؟، ومن المستفيد من كتاباته النظرية ومواقفه العملية؟

وعلىٰ مستوىٰ أدوات التحليل استخدم العقَّاد نظريات جزئية، وأهمها: العبقريات والتطور وكلاهما من الرؤية الوضعية للحياة، وسنأتي علىٰ تفاصيل نظرية العبقريات إن شاء الله.

ثانيها: تقليد ابن خُلدون:

أدوات عبَّاس العقَّاد التحليلية أيضًا تفصيلية، بمعنىٰ أنه استخدم نظريات تُعنىٰ بالتفاصيل (مقولات) لا بالأمور الكلية (نظريات[مقولات متماسكة]، أو

منظور [نسق من القواعد الكلية في مجالات الحياة المختلفة])، مع أنه يتحدث في كليات.. عقائد.. فكر.. ويناطح الفلسفة أحيانًا!!

ومع أني لم أقف علىٰ إشارة واضحة من عبَّاس العقَّاد لابن خلدون إلا أن أدوات ابن خلدون في الرصد والتحليل شديدة الوضوح في تفسيرات عبّاس؛ من ذلك **الربط بين البيئة ومن يعيشون فيها**. فقد ادعىٰ ابن خلدون في مقدمته أن طباع الناس وأخلاقهم تابعة للبيئة التي يسكنون فيها، وأن كل بيئة تصبغ من عليها بصبغتها، يقول: الأنبياء والحكماء والممالك المتزنة وسادة البشرية يتواجدون حيث المناخ المعتدل. وحيث ينحرف المناخ، بحرٍ أو برد، فالطيش والنزق، كما الحيوانات!!. يقول: الهواء الحار والهواء البارد يحدد ألوان الناس وطباعهم[1]!!

وغير صحيح. فشبه الجزيرة العربية صحراء جرداء شديدة الحر، وتهب عليها ريح كأنها السموم، ولا يلطف جوها البحر كما ادعىٰ، فالرطوبة المرتفعة تكاد تخنق من يسكن علىٰ الشاطيء، ومع ذلك وجدت رسالة في كل بقعة منها، ومن الجنوب للشمال: قوم عاد (بين اليمن وعمان اليوم)، وخاتم النبيين ﷺ بعث في رمضاء مكة بين جبالٍ سوداء.. في وادٍ غير ذي زرع، وثمود في المدائن يسكنون الجبال وتحيط بهم كثبان الرمال. والتتار سادوا وهم أهل بداوة ومناخٍ شديد الانحراف، وكذا: ساد أهل الشمال (السوفيت وشمال أوروبا) بالأمس واليوم مع أنهم أهل مناخٍ شديد الانحراف، ولا تكاد تجد أمة إلا وقد سادت يومًا ما، سواءً أكان مناخها معتدلًا أم منحرفًا إلىٰ حرٍ أو بردٍ!!

---

[1] ابن خلدون، العبر... ، مرجع سابق، ج1 (المقدمة)، ص108 (المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر)، وما بعدها...

أخذ عبَّاس العقَّاد أداة ابن خلدون التحليلية (تأثر البشر بالبيئة) واستعملها فيما سماه "تاريخ الأديان"، حاول الربط بين البيئة والنبوة فتحرك في نواحيها يقول: هذه البيئة يصلح لها الكهان، وهذه يصلح لها الأنبياء، والمدن لها شأن مع النبوة والبادية لها شأن آخر، ومثل ذلك ادعائه أن البعثة المحمدية سبقها تمهيد لها في بيئتها، تَمثَّل في وحدة قومية عربية وانتشار الكهانة والرؤىٰ والمجاذيب أولئك الذين يعرفون الغيب، أو يحاولون، في طوالع البعثة ال

وأخذ عبَّاس من ابن خلدون قراءة الواقع علىٰ ما هو عليه، وهي آفة علم الاجتماع الحديث (الغربي) عمومًا، وتضخمت هذه الآفة عند العقَّاد، حتىٰ أنه ليقرأ كل قوم بما يقولون، ووصل الأمر لأخذ النصارىٰ بما يقولونه هم عن كتابهم وعن بولس (شاؤول الطرسوسي)، وعن الصلب من أجل الفداء، وكذا فعل مع غاندي عابد البقر، بل وتحمس له، وزعيم الصين، وزعيم أمريكا. فحين يتحدث عن هؤلاء لا يقدم لهم نقدًا بل يقرأهم علىٰ ما هم عليه ويتيه بهم فخرًا. وسأدخل علىٰ هذه النقطة من زاوية أخرىٰ، إن شاء الله، حال التحدث عن عبقريات العقَّاد.

والحقيقة أن الواقع يمثل نقطة انطلاق للتشخيص، للتعرف علىٰ المناط كي نأتي له بالحكم الصحيح إذا كان المقام إفتاء، أو للبحث عن الدواء إذا كان المقام دعوة وإصلاح، ولكن الواقع، أبدًا، لا يكون مصدرًا للقيم الحاكمة ولا يمكن أن يُقرأ كما هو. فالقيم هي التي تصوغ الواقع، والخلفيات العقدية (التصورات/ النماذج المعرفية وما تحتويه من منظورات) تتحكم كليًا في فهم الواقع المشاهد ومن ثم تفسيره. **وكل مجتمع تطبيق لمجموعة من القيم، أيًا**

كان وصفها. وكل قيم تستطيع أن تغير الواقع مهما كان الفرق بينها وبينه إذا وجدت من يغرسها ويرعاها؛ كما حدث في النموذج الإسلامي الأول، فقد تبدد ظلام الجاهلية الدامس الذي كان يخيم علىٰ الأرض بأكملها إلا قلة قليلة من "الأحناف"، وما هي إلا سنوات معدودة حتىٰ خرج الناس من مستنقع الكفر الآسن إلىٰ مرتع الإيمان البهي.

وفي واقعنا المعاصر نموذج شديد الوضوح يشهد بأعلىٰ صوته علىٰ كذب من ادعىٰ حتمية الواقع، أو من اختلت عنه الرؤية فظن أن الواقع يفرض مفاهيمه علىٰ الجميع. هذا النموذج هو تمكن الإباحية (الجنسانية كما يسميها مشيل فوكو)، من المجتمعات الغربية وظهورها في المجتمعات الإسلامية وكادت أن تتمكن منا كما تمكنت من غيرنا. فقد كانت المجتمعات الغربية إلىٰ وقت قريب محافظة لا تعرف التعري. بل، ولا تعرف غير الحجاب وقرار النساء في البيت، حتىٰ دبت منظومة الإباحية (أيديولوجيا الإباحية) ووجدت من يحملها إيمانًا بالرذيلة وبغضًا في الفضيلة، أو تكسبًا من حيث لا يحل، أو وسيلة لسياسة الناس.

وكما تمكنت منظومة أفكار (أيديولوجيا) الإباحية من المجتمعات الغربية والجنوبية تتمكن اليوم من مجتمعاتنا، **فهذه أفكار تغير واقع، ثم يأتي المؤمنون بخطيئة ابن خلدون (وهي خطيئة علم الاجتماع عمومًا) يصرخون بحتمية الواقع، وكأن هذا الواقع لم يتم صياغته من قِبل مفاهيم حملها قلة من الناس وعالجوا بها الواقع حتىٰ أعادوا تشكيله، وخاصة في الحالة الإسلامية التي نزلت إليها المفاهيم وحيًا من الله. فكيف كان الناس قبل محمدٍ ﷺ، وكيف صار حالهم**

بعده؟

ومما جعل الأمر يلتبس علىٰ بعضهم أن أغلب الناس تبع لما يسود في بيئتهم من أعراف، بمعنىٰ أنهم يخضعون للواقع، بمعنىٰ أن أغلب الناس مع ما ذاع وانتشر، في عقائدهم وفي خاصة أمرهم. يرددون ما يتردد ويلبسون ما يلبس وإن كان محرمًا، ويأكلون ويشربون ما يُؤكل وما يشرب وإن كان مما لا يضر ولا ينفع. فالواقع هو أبو هؤلاء وسيدهم وهم أتباعه، وهم الكثرة الكاثرة، ولكن الواقع الذي يسوق هؤلاء حيث يشاء هو هو بنفسه تبعٌ لفئة قليلة تؤمن بفكرة وتتخذ التدابير اللازمة كي تخضع لها الواقع، وإنهم في كل زمانٍ ومكان، سواءً أكانوا صالحين أم فاسدين. فالمحصلة أن الحياة تدار بالنخبة، والنخبة تعمل دائمًا علىٰ تطوير الواقع تبعًا لأهدافها (مصالحها الخاصة).

وأخذ عبَّاس العقَّاد أصل الفكرة (قراءة الواقع علىٰ ما هو عليه) دون البحث عن القيم (الأفكار الكلية) التي شكلته، ووقف أمام العباقرة منبهرًا دون أن يناقش أفكارهم التي قاتلوا من أجل صياغة الواقع علىٰ أساسها، حتىٰ وإن كانت شديدة الانحراف تعبد البقرة والأصنام ولا تعرف الإيمان بالله. لم يكن العقَّاد، وهو المفكر، ينتبه لمسارات القيم: مصدرها وأثرها، وإنما ينطلق من الواقع كمسلمة.

وأخذ من ابن خلدون، أيضًا، فكرة الوعي الكوني.. أو الصفاء حتىٰ ترتقي الروح وتعرف الغيب، فقد أطال ابن خلدون في الحديث عن "صفاء الروح" وتلقيها الغيب بقدر صفائها، سواءً أكان هذا الصفاء فطري أم حصل بالتريض، وحاول تفسير حال الكهان بأنه حالة من التدرب (التريض)!!

وفي القرآن الكريم أن الكهان يتلقون وحيًا مباشرًا من الشياطين.. يتنزلون عليهم.. يسترقون السمع ويخبرونهم، يقول الله تعالىٰ: (هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴿٢٢٣﴾)(الشعراء: 221-223) ، بمعنىٰ أننا أمام وحي بأَخبار وأحكام مصدره ملك الوحي جبريل عليه السلام ويتلقاه الرسولﷺ أو مصدره الشيطان ويتلقاه بعض الأفاكين الآثمين من بني البشر (الكهان والمشعوذين)، وليست حالة من التريض يصل فيها الإنسان للعلم بالغيب دون واسطة.

شرب العقاد من ابن خلدون وفقط غير في الصياغة، حاول أن ينحت مصطلحًا خاصة به وهو (الوعي الكوني)

وأما القول بالتطور، وهو من الأفكار الرئيسية عند عباس العقاد، فلا أدري هل أخذه من ابن خلدون حيث أن ابن خلدون نص علىٰ فكرة التطور بين الكائنات كلها، وبين الإنسان والقردة علىٰ وجه الخصوص[1]؟ أم أخذه ممن قالوا به قبل ابن خلدون، كإخوان الصفا في رسائلهم، وابن مسكويه في

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (العبر...)، مرجع سابق، ج1 (المقدمة)، ص120 وما بعدها.

تهذيب الأخلاق[1]، وابن طفيل في حي بن يقظان[2]، والقزويني في عجائب المخلوقات[3]، وأرسطو في نظريته عن ترتيب المخلوقات في العالم[4].

غرقُ العقَّادِ في التفاصيل وعدم التفاته للسياقات العامة، جعله يأتي الشيء وضده، وهذا نَفَعَهُ كما أضرَّه، فكل من يقرأ للعقاد يجد عنده شيئًا يعجبه، ذلك أنه غير مضطرد إلا في الحرص علىٰ المخالفة وتبني الشاذ، فالنصارىٰ يجدون عند العقَّاد ما يفرحون به وينقلونه بتيهٍ وفخر، وكذلك يجد عباد البقر والشجر والحجر، والأمريكان، والإسلاميون عنده ما يوافقهم. ولأنه مكثر يأتي كل واحدٍ لما يريد ويكتفي بما يعنيه، ثم يظن أن عامة ما كتب العقَّاد علىٰ هواه، ويغيب عنهم أن العقَّاد نسيج وحده.. فيما يضر ولا ينفع للأسف الشديد!!



---

1 أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، (القاهرة،المطبعة الحسينية،1329هـ/ 1911م).

2 محمد بن عبد الملك بن طفيل الأندلسي، حي بن يقظان (بيروت، دار الهلال، 1993م).

3 زكريا بن محمد القزويني، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، (بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1421هـ/ 2000م).

4 قلتُ: في تكرر الفكرة، في أزمنة بعيدة وأمكنة مختلفة وكون الكافر مصدرها الأول، أمارة علىٰ أنها من بنات أفكار الشيطان أوحىٰ بها للكافرين ونقلها عنهم المُفَعَلِين والسماعين المتأثرين بقولهم، كما كل الأفكار التي أوجدت انحرافًا في العقيدة الإسلامية. وفيه أمارة، أيضًا، علىٰ أنها فكرة نظرية بالأساس فلم يكن أرسطوا ولا من ذكروا من علماء المسلمين أهل تجارب عملية علىٰ بقايا الحيوانات، وبالتالي ليست فكرة عملية أدت إليها التجارب كما ادعىٰ دارون.

الفصل الرابع

موقف عباس العقاد من النصرانية

سعىٰ الاحتلال الغربي إلىٰ تفعيل الأقليات الدينية والعرقية والمذهبية كأداة من أدوات بث الفرقة والنزاع، وصولًا لتغيير هوية الأمة وإعادة بناء المجتمعات علىٰ غير قواعد الشريعة، وفي هذا السياق صعد نصارىٰ الداخل في المشهد الثقافي، والمشهد السلطوي، والمشهد الاقتصادي وعامة مجالات الحياة. وحين تتأمل السياق الذي تحرك فيه النصارىٰ، من القرن التاسع عشر إلىٰ اليوم، يظهر بوضوح تمكنهم من أسباب لم تكن بأيديهم من قبل، حتىٰ أنهم تجرؤوا علىٰ محاولة تنصير المسلمين، فيما يعرف بحملات التنصير في أطراف العالم الإسلام وقلبه، وأفادت منهم الإمبريالية الغربية كأسباب (مبررات) للفعل الإمبريالي أو بتمكينهم هم من السيطرة علىٰ القدرات الكامنة وبناء تكتلات داخل المجتمعات الإسلامية تساعد في تفتيت المجتمع؛ حين تتأمل هذا السياق يكاد يذهب بعقلك العجب من عباس العقاد وهو يصطف بجوار النصارىٰ ويدافع عنهم، يخالف الجميع ويقف منفردًا شاذًا في أقواله ومواقفه، وهو ما سنبينه في هذا الفصل إن شاء الله.



المبحث الأول

عباس العقاد يدافع عن بولس

أُرْسِلَ المسيحَ، عليه السلام، إلىٰ بني إسرائيل، وبقي بينهم إلىٰ أن رفعه الله إليه، ولم يمارس الدعوة إلىٰ الله في غيرهم، وأمرَ المسيحُ، عليه السلام، الحواريينَ بالبقاء بين بني إسرائيل وأن لا يخرجوا من بينهم؛ وهذا صريحٌ في الكتاب "المقدس": «إِلَىٰ طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإِلَىٰ مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا، بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَىٰ خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»[1]، وكان يقول: «لَمْ أُرْسَلْ إِلاَّ إِلَىٰ خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ»[2]. وهو ما نجدهُ في كتابِ ربنا القرآن العظيم الذي حَفِظَهُ عباس العقَّادُ صغيرًا: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (الصف: 6). وهو ما نجده في سيرة المسيح، عليه السلام، وفي سيرة الحواريينَ من بعده، فلم يخرج المسيح، عليه السلام، ولا تلاميذه إلىٰ غير خراف بني إسرائيل الضالة.

الذي حدث هو أنه بعد رفع المسيح، عليه السلام، مباشرةً، جاء أحد نشطاء اليهود ودارسي الفلسفة علىٰ يد أكبر معلميها وواحد من أشهر من عرف بعداواته للحواريين، وهو (بولس/ شاؤول الطرسوسي)[3] بدينٍ جديد، يختلف تمامًا عما عاش عليه المسيح، عليه السلام، ودعا التلاميذ إليه وتركهم

(1) (متىٰ 10: 5، 6).

(2) (متىٰ: 15: 21، 24).

(3) اسمه الحقيقي شاول أو شاؤول، وتعني الطالب، ثم سمىٰ نفسه بعد ذلك بـ(بولس) بمعنىٰ حقير؛ يقول: تواضعًا!!

عليه، وبدَّل تعاليم المسيح. فهو الذي افترىٰ "ألوهية" المسيح، عليه السلام، وقد عاش، عليه السلام، عبدًا رسولًا لم يقل مرةً: إنه هو الله أو ابن الله متجسدًا، ولا دعا أحدًا لعبادته، ولا عبده أحدٌ من تلاميذه، بل كان يصلي كثيرًا، ويبتهل إلىٰ الله كثيرًا، وكلما أراد فعل معجزةٍ رفع عينيه إلىٰ السماء يستغيث بالله مولانا ومولاه. وبولس (شاؤول اليهودي) هو الذي جعلها دعوةً عامةً، بعد أن كانت خاصة ببني إسرائيل!

وبولس هو الذي نقض الناموس (شريعة موسىٰ، عليه السلام) بأن جعل النجاة بالإيمان (التصديق أو المعرفة)، وكانت بإيمانٍ بالقلب وقولٍ باللسان وعملٍ بالأركان.

وبولس هو الذي حرّم الختان، وكان المسيح مختتنًا وكان التلاميذ مُخْتَتَنُون، ويخْتِنُون.

وبولس وأتباعه هم الذين أهملوا الحديثَ عن اليوم الآخر وجعلوا الحديث عن الدار الآخرة يقتصر علىٰ كلماتٍ مجملة لا تُؤثر في العمل (السلوك)، وكان المسيح،عليه السلام، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يتكلمون عن اليوم الآخر بكثيرٍ من التفاصيل، ويجعلون النجاة فيه بالأعمال الصالحة بعد الإيمان بالله وما أنزل علىٰ رسله، وهذا صريحٌ في الكتاب "المقدس": «... وَدِين الأَمْوَات مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ»، وفي رؤيا يوحنا اللاهوتي الإصحاح الثاني والعشرين: «وَهَا أَنَا آتِي سَرِيعًا وَأُجْرَتِي مَعِي لأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ»، وفي يوحنا (5: 28، 29): «لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هذَا، فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا

الصَّالِحَاتِ إِلَىٰ قِيَامَةِ الْحَيَاةِ، وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَىٰ قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ».

كالذي عندنا: قبورٌ ونشورٌ، وصحفٌ للأعمال ينظر ما فيها ثم يكون الجزاء علىٰ حسبه، وفي أماكن أخرىٰ يتكلم المسيح عن لذَّات ينالها عند الله.. خمرٍ في الجنان يشربه عند الرحمن؛ في (مرقص: 24: 25): «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ إِلَىٰ ذلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ اللهِ». وظل هذا موجودًا في أدبيات النصارىٰ إلىٰ وقتٍ قريب، وأشهر ذلك ما ورد في "الكوميديا الإلهية" للشاعر الإيطالي "دانتيه أليجيري" حيث ذكر في وصف جهنم (الجحيم) كثيرًا من الأوصاف التي وصفت بها في القرآن الكريم، وكذا الجنة (النعيم). ولكنه تم محو هذه التفاصيل والفاعل كان بولس والذين اتبعوه في الضلال، فلم يعد يذكر العذاب والنعيم إلا بكلامٍ مجمل لا يكاد يدفع أو يردع.

وبولس هو الذي تكلم عن وراثة الخطيئة من آدم، عليه السلام، : (كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيَّةُ إِلَىٰ الْعَالَمِ) (رومية (5/ 12)) . وأصر بولس علىٰ أن (أجرة الخطية هي موت) (رومية (6/ 23))، وعلىٰ العكس من كلام بولس عن الخطيئة يتحدث الكتاب "المقدس" : (بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون) (حزقيال (18/ 20))، وفيه حديث عن أبرار كانوا في القديم، وأبرار في كل زمان (كالأطفال)، والمسيح يعظهم بالذبح وعمل الحسنات لتغفر خطاياهم، وبعد هذا كله جاء بولس وافترىٰ التجسد والصلب من أجل الفداء .

إن ما تراه عينك الآن في النصرانية جاء بعد المسيح، عليه السلام، علىٰ يد بولس والذين اتبعوه؛ فهؤلاء الذين تراهم أمام عينيك أتباع بولس وعبَّاد

المسيح، وليسوا بعبيد اللهِ أتباعِ المسيح!!

ولم يكن بولس علىٰ علاقة جيدة بتلاميذ المسيح، عليه السلام، بل كانوا علىٰ عداءٍ تام.. وعلىٰ رفضٍ تام.. وعلىٰ النقيضِ تمامًا مما يفعلهُ بولسُ، ولم يتبعه إلا واحد منهم (برنابا).. خرج معه واعظًا ثم نَفَضَ منه يديه وتبرأ منه علىٰ الملأ، وكتب كتابًا (إنجيل برنابا) يُثبت فيه تلك البراءة، وقد تنكر أتباع بولس لهذا الإنجيل، وحاولوا أن يخفوه!!

ويعلم الذين يقرؤون كتاب النصارىٰ أن بولس زارَ تلاميذَ المسيحِ، عليه السلام، في بيت المقدس مرتين وعرض عليهم ما افتراه في دين الله، وفي المرتين خالفوه، وذكر هو بنفسه مخالفتهم له في (غلاطية 2: 1 ـ 9)، وحين يأس منهم سبَّهم وشتمهم بألفاظ قبيحة لا تخرج من تقي فضلًا عن "رسول"، يقول عنهم: (كذبة) و(كلاب) و(فعلة الشر) و(لا يفهمون شيئًا)[1]!!

ما شأن عبّاس العقَّاد بهذا ؟!

كل هذا الاختلاف.. كل هذا التضاد بين بولس وتلاميذ المسيح، عليه السلام، وعباسُ العقَّاد يجعلهم سواءً. يقول: كلهم تلاميذ المسيح، عليه السلام، وكلهم انتشروا في الأرض بأمر المسيح، عليه السلام[2]!!

يقول: (**الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع إلىٰ مركزين: أحدهما برئاسة جيمس أي (يعقوب) المسمَّىٰ بأخي الرب، ومقره بيت القدس، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه، ومقرها خارج فلسطين بعيدًا**

---

(1) (فيليبي: 2ـ20)، و تيميثاوس 1 (6: 3 ـ 5).

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 712)، و(5/ 59، 60)، وما بعدها ط. دار الكتب لبنان.

عن سلطان هيكل اليهود. وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلىٰ المحافظة والحرص علىٰ شعائر العهد القديم)!!

ثم يقول: (وظلت الرئاسة علىٰ العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتىٰ تهدَّم الهيكل وتقوضت مدينة بيت المقدس وتبددت الجماعة في أطراف البلاد، وآلت قيادة الدعوة إلىٰ الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين)[1]!!

ولم يترك المسيح، عليه السلام، دولة بل أفرادًا يعدُّون عدًّا، تركهم محسورين مكبوتين خائفين، والعقَّاد يقول: فريقان يتناوبان رئاسة!!

وهو متردد، وتردده أمارة علىٰ فساد رأيه؛ مرة يقول: التلاميذ كانوا اثنىٰ عشر، ومرة يقول: كانوا ثمانين، ومرة يقول: ترك المسيح شعبًا كثيرًا[2]، ومرة يقول: بل ترك شُعْبتين متوازيتين إحداهما بالداخل والأخرىٰ بالخارج، وفي ذات الكتاب يغير عباس العقاد كلامه فيذكر أن التحريف الحاصل في النصرانية علىٰ يد (بولس) ومن معه كان تطورًا طبعيًا[3].

والقول بأن التغير الحاصل علىٰ يد (بولس) كان تطورًا وطبعيًا ينقض قوله الأول بأن بولس من التلاميذ، وأن المسيح، عليه السلام، ترك شعبتين متوازيتين

---

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 556) ط. دار الكتب لبنان. وهي مقدمة الطبعة الثانية لكتاب (عبقرية المسيح)، وقد صدرت الطبعة الثانية بعنوان (حياة المسيح) عليه السلام.

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 729) ط. دار الكتب لبنان. وفي صفحة 732 عاد يكرر ذات الكلام ويزيد عليه، يقول: التلاميذ ثمانون، وفوقهم ألوف من المسحيين. ولا أدري علام التفرقة ومن أين أتىٰ بهذا العدد؟!

(3) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 690) ط. دار الكتب لبنان.

إحداهما بالخارج يترأسها (بولس) والأخرىٰ بالداخل يترأسها يعقوب أخوه[1]!!

والقول بأن التغير الحاصل علىٰ يد (بولس) كان تطورًا وطبعيًا غير صحيح من ناحيتين:

الأولىٰ: أنه لم يكن تعديلًا بسيطًا في الفروع اقتضته المستجدات بعد أن طال عليهم الأمد وتغير الزمان والمكان، فاقتضىٰ الحال تغير الفتوىٰ كما يدعي عباس، وإنما كان تبديلًا شاملًا بدأ بالأصول، كما قدّمتُ.

الثاني: أن هذا التغير كاد أن يلحقَ المسيحَ، عليه السلام، فبولس (مؤسس شعبة الخارج كما يدعي عبَّاس) من معاصري المسيح، عليه السلام، في نفس عمره تقريبًا، وبدأ دعوته بعد رفع المسيح، عليه السلام، بأيام. فأين التطور الذي يتكلم عنه العقاد؟!

وحين تُراجِع الأدلة التي اتكئ عليها عباس في موقفه الإيجابي من بولس لا تجد شيئًا يقبل، يقول: عُذِّبَ وأوذي هو ومن معه وتبعته ألوف من الناس[2]، وأهلُ الباطلِ لا يتحملون العذابَ[3]!! بهذا يدلل. وكلامه غير صحيح فبولس لم يُعذَّب ولم يؤذَ؛ وجهده الذي بذله لا يساوي جهدَ ناشطٍ يترأس أسرة دعوية بين طلاب المدن الجامعية، فلم يقاتل عدوًا ولم ينفق مالًا، بل كان كذَّابًا متلونًا

---

(1) يختلف النصارىٰ في القول بأن للمسيح، عليه السلام، أخًا؛ والسبب في ذلك نص ورد عن (بولس) يصف يعقوب (أحد الحواريين) بأنه أخو الرب. ومختلفون في زواج المسيح، عليه السلام، فبعضهم علىٰ أنه تزوج مريم المجدلية وله نسل دارج بين الناس إلىٰ يومنا هذا، ومختلفون في كل شيء!!

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 714) ط. دار الكتب لبنان.

(3) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 558،559) ط. دار الكتب لبنان.

يَلْبِسُ لكل قومٍ لبُوسهم[1]، ولم يُجلد ظهره أو يُؤخذ ماله، وضُربت عنقه في نهاية حياته بعد أن شاخ دونما تعذيب وتشريد، ومثل هذا النوع من الناس يُقدمون علىٰ القتل كنوع من الدعاية لأفكارهم. وإن سلمنا جدلاً أن بولس لاقىٰ عذابًا شديدًا، وهو ما لا نعرفه، فلا يصلح أن يتكئ عليه العقاد كدليلٍ علىٰ موقفه الإيجابي من بولس، فلو أن كلَّ من صبر علىٰ بلاءٍ وتبعه ألوفٌ من الناس صحّحنا مذهبه، لصار الكل تقيًّا مؤمنًا: بوذا.. وكرشنا.. وجنكيز خان.. والحلاج وكان جلدًا صبورًا.. والجهم بن صفوان.. ومحمد بن كرام.. والجعد بن درهم.. بل ليس ثَمَّة تمكينٌ لحقٍ أو باطلٍ بلا جَلَدٍ ومجالدة، والأكثرية تتبع شهواتها (وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ) (يوسف: 103)، والانتشار ليس أمارة علىٰ الصواب، يقول الله تعالىٰ: (وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ) (الأنعام: 116).

فَتَّشْتُ كثيرًا وطويلاً فيما كتب العقاد.. فوجدت الرجل يصر علىٰ تصويب بولس ومن كانوا معه من المبدلين لدين الله؛ حتىٰ إنه يدفع عن بولس تهمة الكذب التي أقرّ هو (بولس) بها علىٰ نفسه، وشهد عليه بها أصدقاؤه وأعداؤه؛ يقول العقاد مدافعًا عنه: (بولس كان يتألف القلوب ببعض المجاملة)[2].

وشيءٌ آخر: مرّا المسيحُ، عليه السلام، وبولس مرور الكرام، حتىٰ إنك لا تستطيع أن تستدل علىٰ وجود المسيح، عليه السلام، من غيرِ كتب المسلمين، وكلُ كتابٍ يتكلم عن المسيح وعن بولس بما في ذلك كتاب النصارىٰ لا يثبت

(1) انظر إن شئت للكاتب: (لم أفهم، ولم يفهم، ولن تفهم). بصيد الفوائد وطريق الإسلام وغيرهما.

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 714) ط. دار الكتب لبنان.

أمام النقد العلمي، ومن شاء يراجع ما كُتب تحت مسمىٰ "النقد النصي للكتاب المقدس"!!

دخل الوثنيون النصرانية بعد قرنين أو يزيد من رفع المسيح، عليه السلام، وجعلوا ينتقون منها بأهوائهم، وجيء ببولس وتلك الكتابات التي بين أيديهم من تحت ركام الأيام، فعقيدة النصارىٰ الآن ظهرت بعد قرون من رفع المسيح، عليه السلام، وهلاك بولس وشارك فيها رجال (آباء الكنيسة) بمعنىٰ أنها تتطور يومًا بعد يوم، وبعض الرسائل لا يُعرَف كاتبها، علىٰ سبيل المثال (سفر أعمال الرسل) وهو أهم الأسفار المنسوبة لبولس. هذه هي الحقيقة التي لا يجهلها مهتم. **والسؤال: كيف طوعت له نفسه أن يُصور بولس وكأنه جاهد واجتهد وشدَّ واشتد حتىٰ مكّن للنصرانية، وكأنه علىٰ خطىٰ المسيح، عليه السلام؟!!**

كيف سولت له نفسه أن يتكلم بهذا الكذب المكشوف؟!

بعد أن تحدث عبَّاس العقاد بهذا الإفك في الطبعة الأولىٰ من كتابه "عبقرية المسيح" اعترض عليه كثيرون، وكان رده عليهم بأنه فتح الإنجيل أكثر من ألف مرة، وأنه يعرف ما لا يعرفون، وحقَّر من شأنهم، ولم يعتنِ بقولهم أو يناقش حججهم وبالتالي لم يتراجع عن قوله وأعاد طبع كتابه[1]!!

*****

(1) وانظر غير ما مضىٰ كتاب (حقائق الإسلام) ضمن الجزء الخامس من (موسوعة العقاد الإسلامية) ص60.

المبحث الثاني
موقف العقاد من "ألوهية" المسيح المزعومة

يدعي النصارىٰ أن المسيح، عليه السلام، هو الله، أو ابن الله، ثم هم مختلفون فيمن عاش بين الناس (شخص المسيح، عليه السلام): هل كان حال معيشته بين الناس إنسانًا كاملًا أم "إلهًا" كاملًا أم بعضه إنسان وبعضه "إله"؟؛ يقولون بكل هذا، وكل هذا لا يجتمع، وأي من هذا لا يصح، لذا كل فرقة منهم تُكَفِّر أختها، ولا ترىٰ نجاةً لها!!

ومتفقون علىٰ أن المسيح ولد من سيدةٍ عذراء، وتبعه اثنا عشر تلميذًا. ومتفقون علىٰ أن آدم أخطأ وورثت ذريته الخطيئة، فتجسد "الله" ـ أو ابن "الله" ـ من أجل أن يُكَفِّرَ عن هذه الخطيئة، تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا!! ومتفقون علىٰ أنه الشخص الذي صلب قُبض عليه وسِيق مُقيدًا يُبصق في وجهه ويُضرب علىٰ قفاه، ثم صُلب علىٰ الأخشاب وراح يصرخ من الألم!! تعالىٰ الله وتقدس عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومتفقون علىٰ أن مَنْ صدق بهذا نجا من الجحيم واستحق النعيم، مهما اقترف من المعاصي، فشرطُ النجاةِ عندهم هو قبول المسيح فاديًا ومخلصًا[1]!!

وعقيدتهم هذه ليست جديدة كما يزعمون، بل وجدت من قبل!! ففي القرن التاسع عشر الميلادي، تأسس علم مقارنة الأديان، وساح أحد الباحثين في الأرض يتتبع الديانات الوثنية، فوجد أن الرواية النصرانية عن المسيح، عليه

(1) في هذا تفصيل عندهم؛ فبعضهم يجعلها نجاة تامّة، وبعضهم يجعلها نجاة من الخطيئة الأولىٰ، وتبقىٰ الذنوب تحتاج لتوبة عند القساوسة أو دون قساوسة، وبعضهم يجعل الفداء للجميع.. مختلفون.

السلام، وجدت قبل ذلك أكثر من مرة، فما قيل عن المسيح، عليه السلام، قيل في غيره[1]، فليس في عقيدة النصارىٰ الموجودة اليوم، والتي أسسها بولس كما مرّ سابقًا، شيء جديد أبدًا.. بل كلها من الوثنيات[2]!!

وشيءٌ آخر:

إذا نظرنا لنبي الله المسيح، عليه السلام، من الناحية التاريخية، بمعنىٰ أننا إذا استدعينا شهادةَ المؤرخين الذين كتبوا التاريخ في عصره.. إذا بحثنا عن الروايات المتواترة أو غير المتواتر المنقولة مشافهةً من جيلٍ لجيلٍ تحكي شيئًا عن حياة المسيح، عليه السلام، فلن نجد شيئًا مذكورًا، وهذا قول "علماء الأديان". وكتاب النصارىٰ الذي بين أيديهم لا يثبت للنقد التاريخي، ولا يمكن الاعتماد عليه مصدرًا من مصادر التاريخ[3].

ما شأن عباس العقَّاد بهذا؟!

في سياق تدافع حملات التنصير مدعومة من الاحتلال الغربي، وانشغال الجادين بما قد دهاهم من سقوط الخلافة وتفتيت الأمة وغلبة العدو، وتمكن نموذجه في الحكم (الدولة القومية) من السلطة والمجتمع، وقف عبَّاس يدافع

---

(1) الباحث هو كيرسي جريفز (1813م-1883م) وكتابه اسمه: المخلصون من «الخطيئة الأولىٰ» الستة عشر الذين ماتوا علىٰ الصليب في العالم The World's Sixteen Crucified Saviors.

(2) يوجد تسجيل صوتي للأنبا يؤانس أسقف محافظة الغربية في مصر سابقًا، يفتخر فيه بأن كل ما عند الأقباط هو هو بأم عينه الذي كان عند الفراعنة الوثنيين!! والتسجيل منشور ومتداول. والدراسات التي تثبت وثنية النصرانية كثيرة ومنتشرة.

(3) قام فريق الترجمة بموقع (حرَّاس العقيدة) بترجمة أحد أكثر الكتب مبيعًا وهو كتاب: تحريف أقوال المسيح، من حرَّف "الكتاب المقدس" ولماذا؟!.

عن عقيدة النصارىٰ حتىٰ أحبوه وأثنوا عليه خيرًا، كما مرَّ معنا في المقدمة من ثناء زكريا بطرس وناهد متولي، يقول عن عقيدة النصارىٰ في المسيح، عليه السلام: من قبيل ما يفعله المتصوفة من نسبة كل الكرامات إلىٰ من يحبون من الأولياء! ومن قبيل خلع كل ما قيل في الكرماء علىٰ من عرف بالكرم!!

أسأل: هل التجسد والصلب من أجل الفداء مجرد مدح من التابع للمتبوع؟؟!!

سبحانك هذا بهتان عظيم.

دعنا نمر. فحسبي أن تعرف ماذا يقول عبّاس، وأين يقف. فكثيرًا ما يكفي كشف الأقوال والمواقف دون حاجة لكثيرٍ من الرد والمناقشة.

عقيدة التجسد والصلب من أجل الفداء خرجت من رأس الشيطان، أوحىٰ بها إلىٰ أوليائه، قال العليم الخبير سبحانه وتعالىٰ ذكره: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (الأنعام:121)، ولذا تجد ذات العقيدة تتكرر في جنبات المعمورة دون اتصال مكاني أو زماني، وفي سيرة "بولس/ شاؤول" ما يدل علىٰ أن الشيطان هو الذي أوحىٰ إليه بهذه الأفكار المكررة فقد كانت تعتريه أحوال من تلبّس بهم الجن[1].

شخص الشيطان هو مصدر الكفر والعصيان، وذلك حين يجد نفسًا خبيثة تستجيب له (هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم) (الشعراء: 221، 222). هو الذي جاء قومَ نوحٍ، عليه السلام، في هيئة رجلٍ

(1) انظر إن شئت: "يسوع النصراني الجني الذي صحب بولس" للعميد جمال الدين شرقاوي. ط. دار النافذة.

وصوّر لهم الصالحين، ثم نحت مثل الصور أصنامًا وما زال يوسوس لهم حتىٰ عبدوها؛ وعمرو بن لحي جاءه إبليس ودلَّه علىٰ أصنام مُعَدَّة في أرض "جدة" وأمره بإخراجها ورسم له خطة الدعوة إليها؛ وحين تتدبر ما اتخذ مشركو العرب من (آلهة)، وما اتخذ مشركوا الفراعنة من (آلهة)، وما اتخذ المشركون في العراق والشام من (آلهة).. الآشوريين والكلدانيين والبابليين والنبط، و(آلهة) اليونان، و(آلهة) الهند والصين واليابان تجد كلها متشابهة. الأفكار والأسماء وكثير من التفاصيل تكاد تكون متطابقة. ما يدلك علىٰ أنها خرجت من رأسٍ واحدة هي رأس إبليس إمام الضالين(1)، حتىٰ عبَّاس ذكر في ثنايا كلامه مرة أن "العُزىٰ" هي إيزيس(2) ولم يقف، وهو المفكر!، ويحاول تفسير هذا التشابه. وتستطيع أن تقف علىٰ كثير من التفاصيل التي تبين التشابه الكبير بين من عبدهم الكفار في كل زمان ومكان من خلال السرد الذي قدمه جواد علي في كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام".

وتدبر هذه؛ يقول، وهو يرد علىٰ إنكار علماء مقارنة الأديان وجود المسيح، عليه السلام،: إن ذلك من نشوة العلم الجديد.. يقول: كان علم الأديان جديدًا فأخذته النشوة، فعمد إلىٰ الغريب كي يلتفت الناس إليه. وفي مكان آخر (رسالة الله) مسالمٌ ودودٌ لعلم مقارنة الأديان ينقل عنهم ويناقشهم!! ثم هو يعترف بأن المصادر التاريخية خالية من ذكر المسيح، عليه السلام، وأن لا دليل فيها علىٰ وجود المسيح!!

---

(1) انظر للكاتب: أثر الشيطان في تحريف الأديان،

http://www.saaid.net/Doat/alkassas/100.htm .

(2) أبو الأنبياء إبراهيم ص152.

وسؤال ظلّ ثائرًا في خاطري لم يهدأ وأنا أقرأ دفاع العقّاد عن النصرانية هو: هل كان يقرأ كتاب الله؟!، هل كان يصدق ما أنزل الله علىٰ محمدٍ ﷺ؟! هل أتاه أن الله العليم الخبير شهد بوجود المسيح، عليه السلام، في كتابه، وأن شهادة الله، سبحانه وتعالىٰ وعز وجل، تكفي، يقول الله: (قل أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) (الأنعام:19).

وبعد.. أردت من هذا المبحث أن أبين أن العقاد دافَعَ بوعي تام.. وفي كتابٍ (عبقرية المسيح) وليس مقالٍ أو مقالين، عن وثنية النصرانية، وتم الاعتراض عليه من أقرانه وقرائه ولم يتراجع بل طبع الكتاب مرة ثانية واستخف بالنقد في مقدمة الطبعة الثانية!!



المبحث الثالث

عباس العقاد يدافع عن كتاب النصارى

يواجه كتاب النصارىٰ عددًا من المشكلات؛ واحدة منها فقط تذهب بقدسيته المزعومة، أول هذه المشكلات وأهمها: (التقديس). من أين جاءه التقديس؟!، أو: مَن قال إنه مقدس؟!

ظهر وصف "القداسة" علىٰ كتاب النصارىٰ بعد أربعة قرون من رفع المسيح، عليه السلام، تحديدًا من المجامع "المقدسة" التي عقدت في القرن الرابع الميلادي. والعقاد يعرف ذلك ويذكره[1]. ولا توجد ضوابط معلنة بموجبها قيل أن هذه الكتب الأربعة والرسائل الملحقة بها مقدسة، فقد كانت الكتابات التي سجلت تعاليم المسيح، عليه السلام، وتاريخه بين الناس كثيرة فاختاروا أربعةً منها وخلعوا عليه وصف القداسة.

المشكلة الثانية: الخبرُ بمن يخبر به، أو بشواهدٍ في ذات الخبر تدلل علىٰ صدقه؛ فبعضهم إن أخبرك صدّقتَ مهما كان الخبر غريبًا، كأبي بكر والصحابة رضي الله عنهم صبيحة الإسراء (إن كان قال فقد صدق)، ويكون الدليل أن الصادق هو الذي أخبر؛ وبعضهم إن أخبرك شككت في قوله وإن بدا أن القولَ صوابٌ لعلمك بسوء حاله. وكتاب النصارىٰ مردود من الناحيتين، من ناحية المخبِر به ومن ناحية ما فيه من أخبار؛ فأشخاص (أعيان) الذين كتبوا الكتاب مجهولة كليًا أو جزئيًا بما يطعن في خبرهم. وكثير مما كتبوه يُكذِّب بعضه بعضًا. والكتابات

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 720) ط. دار الكتب لبنان. وكذا كتاب إبليس ص102 وما بعدها.

في عدم ثبوت العصمة للكتاب "المقدس" كثيرة ومنتشرة تحت عنوان "النقد النصي".

في الوقت الذي كانت تعاني فيه الكنيسة من نقد كتابها بأيدي العلمانيين من أبنائها حتىٰ أنهم أخرجوه من دائرة الموثوقية كليةً، وفي الوقت الذي بدأت فيه طلائع الرد علىٰ شبهات المنصرين الذين انتشروا في جنبات العالم الإسلامي، **وقف عبَّاس يدافع عن كتاب النصارىٰ، وهذه بعض الأمثلة:**

المثال الأول: تشابه الأناجيل، ويفسر العارفون هذا التشابه بأن بعضهم نقل من بعضهم، ما يعني أن الأناجيل كتبت بأيدي بشر ولم تكن وحيًا من الله. بل أناس كتبوا بأيديهم ونقلوا من بعضهم، والعقّاد يعترف بهذا التشابه[1]، ويرد نيابة عن النصارىٰ، فماذا يقول[2]؟!

يقول: لتشابه المصدر الذي ينقلون عنه!! بمعنىٰ أنهم نقلوا من مصدرٍ واحد، ولذا تشابهت أقوالهم!! والنصارىٰ يرفضون قوله، وذلك كونهم يزعمون أن الأناجيل كتبت ب "وحي من الله" وليس عن طريق النقل من أي مصدر. والعقلاء يرفضون ذلك لعدم وجود دليل عليه، فلم يقل أحد قبل العقاد: إن مَن كتبوا الأناجيل كانوا ينقلون من مصدرٍ ما؛ بل كان نوعًا من تسجيل الأحداث للتاريخ أو للتسلية مع صديق[3]، ولكن العقّاد، كعادته، يتحدث من عند

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 720) ط. دار الكتب لبنان.

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 632) ط. دار الكتب لبنان. والأناجيل ليست كل كتاب النصارىٰ، بل تمثل الثلث تقريبًا، وكتابهم يتكون من (العهد القديم) و(العهد الجديد)، والعهد الجديد يتكون من الأناجيل الأربعة ورسائل بولس وغيره من "القديسين"، وتجاهل هذا العقّاد!!

(3) صرح لوقا (كاتب الإنجيل) في بداية إنجيله أنه يكتب لصديقٍ له، تدوينًا للأحداث.

نفسه[1]. وهذا ما أريد إثباته أنه ليس فقط يدافع عن باطل، بل وبغير علم.

المثال الثاني: مما يبين أن العقاد يدافع عن النصرانية، وبغير علم، قوله: "روايات الأناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة إلىٰ نهايتها، ومن التطور المعقول أن تبتدئ الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهي إنسانية عالمية، وأن تبتدئ في تحفظ ومحافظة ثم تنتهي إلىٰ الشك والمخالفة، وأن تبتدئ بقليل من الثقة في شخصية الداعي ثم تنتهي بالثقة التي لا حد لها في نفوس الأتباع والأشياع، وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل دون أن يتعمد كُتَّابها تطبيق أحوال التطور أو تلتفت أذهانهم إلىٰ معنىٰ تلك الأحوال"[2].

يحاول صب النصرانية في قالب التطور، أو يقرأها من منظور التطور، وما يعنيني هنا هو بيان: كيف يفكر؟، وأنه يبث أوهامًا.. يمسك بفكرةٍ أو فكرتين ويقرأ الظواهر من خلالهما. وحين تدخل في التفاصيل تجد أنه يكذب، فالنصرانية لم تتطور كما ادعىٰ، وإنما كبتها يهود ثم هجم عليها الوثنيون وأخذوها بعيدًا.

المثال الثالث: في كتاب النصارىٰ أن الشيطان تسلط علىٰ ربهم أربعين يومًا وليلة يهبط به ويصعد، ويدخل به ويخرج، ويقوم به ويقعد، ويأمره وينهاه، وهي إحدىٰ أشهر ما يتردد نقدًا للكتاب "المقدس"، ونسأل: كيف يتسلط الشيطان علىٰ رب الأرباب؟! وكيف يأخذه ويسيح به هكذا؟! أإله هذا؟! ولا نجد إجابة.

---

(1) في كتابه (ساعات بين الكتب) ص617 يعترف العقاد بأن من كتبوا الأناجيل لم ير أحد منهم المسيح، وأن كثيرًا من سيرة المسيح عليه السلام وسيرةَ كثيرٍ من مشاهير النصرانية لا يعرف أحد عنها شيء. ومع ذلك يعتمد كلامهم وينقله نقل من يثق فيه!!

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 633) ط. دار الكتب لبنان.

ولكن العقاد حشر نفسه وراح يرد نيابة عنهم، وكالعادة بكلام يقوله من عند نفسه، يقول: كانت هذه الرحلة، التي تسلط فيها الشيطان علىٰ إله النصارىٰ، نوع من رياضة النفس[1]. ولست هنا لمناقشة ما قيل عن المسيح وإنما لكشف مواقف العقاد وعرض عقله عليك، لتعلم أين يقف وكيف يفكر؟

المثال الرابع: في كتاب النصارىٰ هذا النص: "وإن كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته، حتىٰ نفسه، فما هو بقادر أن يكون لي تلميذًا"[2]، فبزعمهم هذا يكون شرطًا للإيمان بالمسيح، عليه السلام، أن تبغض نفسك وأولادك وأمك وأباك وزوجتك، وهو نص محرف ولا شك، فلا نبي يدعو لقطيعة الرحم وعقوق الوالدين وإشعال النار في البيوت بغرز الكراهية بين أفرادها، ربما كتبه من أراد الإساءة للمسيح، عليه السلام. والمحبون يقفون حول هذا النص حائرين لا يدرون كيف يدافعون عنه، ودون أن ينتدبه أحد جاء العقاد ليدافع فقال: "وهذه وأشباهها من الشروط الصارمة التي كان يفرضها علىٰ مريديه؛ هي الشروط التي لا غنىٰ عنها لكل دعوة مستبسلة أمام السيطرة والجبروت".

كأن شرط الإيمان بالمحبة والسلام (العنوان الذي اختاروه لدينهم) أن تتحلىٰ بهذه الصفات الرديئة التي يبغضها كل الناس!!

هذا ما يدور في عقل "الأستاذ" عبّاس!!

---

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 639) ط. دار الكتب لبنان.

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 638) ط. دار الكتب لبنان.

المثال الخامس: أكثَرَ عباس العقاد من الحديث عن أن دعوة المسيح، عليه السلام، كانت دعوة مسالمة، في الضمائر فقط، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، تتنحىٰ عن السلطة ولا تتصدىٰ لها بإبطال أو بإنقاذ، وأن قيمة الإنسان بما يضمره لا بما يظهره، وأن ملكوت السموات في الضمير وليس في القصور والعروش، وأنها كانت علىٰ نسق واحد، دعوةً للسلام استولت علىٰ الدنيا كلها من يومها إلىٰ الآن، وأنها دعوة ملكوت يدوم ولا يعرف له انتهاء، وأن ما تدعيه اليوم من سماحة وغفران هو جوهرها، ويثني علىٰ تحريم الطلاق إلا لعلة الزنا ويقول: هو شريعة المسيح(1).

ويقول عن رسالة عيسىٰ، عليه السلام، أنها كانت دعوة إنسانية عالمية(2)، ويقول بأن المسيح، عليه السلام، هو الذي نقض الناموس لأنه جاء بشريعة الحب لا شريعة الأوامر والنواهي، ويتطاول علىٰ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر(3).

ولم ينقض المسيحُ، عليه السلام، الناموس (تعاليم موسىٰ، عليه السلام، في العهد القديم) وإنما أكمله، والذي نقض الناموس هو بولس، والدعوة التي انتشرت هي دعوة بولس وليست دعوة المسيح، عليه السلام؛ وما يضمره الإنسان يظهر علىٰ جوارحه ولا شك فالظاهر لا ينفك عن الباطن؛ والنصرانية تدّعي السماحة والغفران بلسانها وتتنكر لها بأفعالها، فكم قتل أدعياء المحبة!!

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 647، 648) ط. دار الكتب لبنان.

(2) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 659) ط. دار الكتب لبنان. ويقصد بالتجربتين تجربة يحيىٰ، عليه السلام، وتجربة المسيح، عليه السلام.

(3) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 669) ط. دار الكتب لبنان..

سل عن الحروب الصليبية علىٰ أطراف العالم الإسلامي وفي قلبه، وفي أمريكا الجنوبية، وسل عن الحروب الأوروبية قبل ظهور الدولة القومية وبعدها إلىٰ الحرب العالمية الثانية.. تلك الحقبة التي كانت تقود فيها الكنيسة أوروبا، وسل: ماذا يُفعل بالأبرياء في العراق والصومال والشيشان وأفغانستان وفلسطين والشام.. كلها مِن فعل أدعياء المحبة!؛ والطلاق والزواج والميراث وكل ما تراه عينك من شرائع إنما شرعها بولس والذين اتبعوه من الآباء، فأدلة الزواج والطلاق بوضعه الحالي عندهم تؤخذ من رسائل بولس وتأويلات الآباء لا من نصٍ منسوبٍ للمسيح أو تطبيقٍ عملي.

المثال السادس: يدعي أن الخلاف بين أتباع المسيح، عليه السلام، كان بين منهجين: منهج الالتزام الحرفي ومنهج الالتزام بالمعنىٰ، ويضرب مثالاً بمن اختصي ومن تقشف حتىٰ أكله الدود، ويقول: ليس ثَمّ خلاف[1].

ودعواه هذه تخالف الحقيقة كليةً، فالقوم لم يتفقوا علىٰ شيء تقريبًا، واختلاف تضاد لا اختلاف تنوع، وفي العقيدة لا في الشعائر، مختلفون في طبيعة المسيح، عليه السلام، (إله أم إنسان أم بين بين)، وفي أمه مريم ابنة عمران، وفي الفداء لمن يكون؟، وفي الشعائر التي يؤدونها في كنائسهم.. في كل شيء ويجاهرون بتكفير بعضهم، والله يقول: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (المائدة:14).

بقي مما أعددته لهذا المبحث ثمانِ ورقات ممتلئة بمثل ما قرأتَ من أمثلة،

---

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 678) ط. دار الكتب لبنان.

ومما فيها: أن العقاد في مكانٍ يقول بأن كتبة الأناجيل هم الحواريون[1]، وفي مكان آخر يعترف بأن مرقص ولوقا ليسا من الحواريين، وفي مكان يقول: التلاميذ اثنا عشر، وفي مكان يقول: ثمانون، وفي مكان يقول: مات المسيح وخلفه صفوف كثيرة من الأتباع... إلىٰ آخر هذا التضارب. ولا أريد أن أطيل؛ فقصدي فقط التمثيل للتدليل علىٰ تلك الأباطيل التي يُلقي بها العقاد. وعلىٰ أن العقاد يدافع عن الذين كفروا من أهل الكتاب وبالكذب، وأهم من هذا كله أن مواقفه هذه جاءت في سياق تتابع حملات التنصير علىٰ العالم الإسلامي.

*****

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 710). ط. دار الكتب لبنان.

المبحث الرابع
موقف العقاد من قضية صلب المسيح المزعومة

الرواية النصرانية لحادثة الصلب المزعومة تنص علىٰ أن المسيح، عليه السلام، قبض عليه بعد أن خانه أحد تلاميذه (يهوذا الإسخريوطي)، وسيق مقيدًا في أغلاله يُبصق في وجهه ويُصفع علىٰ قفاه ويُستهزأ به، ثم حاكموه، وصلبوه وقتلوه علىٰ الصليب. هذا ما يقوله النصارىٰ في قضية الصلب، ويقولون: إن كل ذلك تم من أجل افتداء الناس من الخطيئة التي ورثوها عن أبيهم آدم!!

وتواجه عقيدة الصلب من أجل الفداء التي يعتقدها النصارىٰ عددًا من المشكلات التي لا يوجد لها حل إلىٰ الآن: منها: أنها ظهرت بعد المسيح ولم يتكلم بها المسيح، عليه السلام، بل بولس هو أول من تكلم بأن خطيئة آدم ورثت في ذريته، وأن أجرة الخطيئة دم يسفك. هو الذي تكلم عن "السقوط والتجسد والفداء"، وكلام بولس ليس له شواهد من "العهد القديم" ولا مما ينسبونه للمسيح، عليه السلام، بل في "العهد القديم" و"العهد الجديد" أن الخطيئة لا تورث، ولا يؤخذ أحد بذنب أحد، وأن الأبرار موجودون في كل زمان، وأن الله يغفر الذنوب جميعًا، وأن الحسنات يذهبن السيئات[1].

ومنها: قولهم بأن الخطيئة لا محدودة، وتحتاج إلىٰ فداء لا محدود.. تحتاج أن يموت (الله) كي يكفر عن خطايا البشر، إذًا كي يتم الفداء لا بد أن يموت (الله)، ولا يكفي (الناسوت/ الجسد) فقط؛ فهم بين أمرين: إما أن يقولوا: لم

---

(1) انظر ـ إن شئت ـ: هل افتدانا المسيح بالصلب؟! للدكتور منقذ السقار.

يمت "الله" وتم الفداء، ولا يستطيعون قول ذلك، لأنهم يعتقدون حياة أقنوم الابن بجوار الآب الآن في السماء، وفي ذات الوقت لو قالوا به لن يتم الفداء، أو يقولون: لم يمت الإله بل (الناسوت/ الجسد) فقط هو الذي مات، ولا يتم الفداء بالناسوت فقط حسب معتقدهم، فلا بد من لا محدود كي تكفر الخطيئة!!

الأمر مرهق جدًّا، ولا يوجد كلام واضح يقدمونه لمن يناقشهم. هم في حيرة لا تذهب عنهم. حالهم علىٰ ما وصف الله: (وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيب) (هود: 110). ومنها أن قضية الصلب من أجل الفداء، بذات الهيئة التي يدعيها النصارىٰ، تكررت من قبل كثيرًا. وقد سبق بيان ذلك[1]. **وأكبر التحديات التي تواجه قضية الفداء والصلب هو إنكار العليم الخبير لها في كتابه المجيد؛** قال تعالىٰ: (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا) (النساء: ١٥٦ – ١٥٧).

ونطرح علىٰ الأستاذ عباس هذا السؤال: هل قبض علىٰ المسيح وحوكم ثم صلب كما في كتابهم؟ أم أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم كما في القرآن الكريم؟!

(1) أورد الدكتور منقذ السقار في كتابه (هل افتدانا المسيح بالصلب؟!) جدولاً يوضح فيه تطابق ما يقال عن قصة الصلب في النصرانية وما قد قيل عن بعض آلهة البابليين في العراق.

الأستاذ محتار لا يعرف إجابة؟!!

إي والله.. هذا المسلم الذي يزعمون أنه ممن دافع عن الدين محتار في قضية الصلب كانت أم لم تكن!!

يقول في كلامه عن الصلب، وهو في آخر كتابه "حياة المسيح"/ "عبقرية المسيح": "ففي حادثة الاعتقال لا يدري متتبع الحوادث من اعتقله ومن دل عليه، وهل كان معروفًا من زياراته للهيكل أو كان مجهولًا لا يهتدىٰ إليه بغير دليل".

ونسأل: لم الحيرة؟!

لو كان "الأستاذ" يعتمد علىٰ كتاب النصارىٰ فإنه سيصرح سريعًا بأن الذي اعتقله هم يهود بعد أن دلَّهم عليه يهوذا الإسخريوطي، وأنه حوكم في الهيكل من قبل يهود، وأن يهود تجمعت تهتف: (اصلبه) حتىٰ قتل وصلب، أو صلب ثم قتل كما يزعمون في كتابهم. ولو كان يؤمن بالله والنبي وما أنزل إليه، لقال بقول الله تعالىٰ: (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) (النساء: ١٥٦ – ١٥٧). أو يقول بما ورد مفصَّلًا في صحيح السنة النبوية عَنِ عبد الله بن عَبَّاسٍ، قَالَ: "لَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَىٰ، عليه السلام، إِلَىٰ السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ - وَهُمَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا - مِنْ عين في الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ سَيُلْقَىٰ عَلَيْهِ شَبَهِي فَيُقْتَلَ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي؟! فَقَامَ شَابٌّ مِنْ

أَحْدَثِهِمْ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عِيسَىٰ: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ عِيسَىٰ: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ، فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ أَنْتَ ذَاكَ، قَالَ: فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَىٰ. قَالَ: وَرُفِعَ عِيسَىٰ، عليه السلام، مِنْ رَوْزَنَةٍ كَانَتْ فِي الْبَيْتِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبِيهَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَبُوهُ، وَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ[1].

ولكن العقَّاد وقف حائرًا..

كيف وقف حائرًا؟!

لا أدري. ولا إخالك تدري!!

لم يكن إنجيل يهوذا[2] قد ظهر بعد حتىٰ نقول: جاءه بعض الشك بسبب قراءته لإنجيل يهوذا!!

وتدبر هذه الكلمات للعقاد: "ولا نستطيع كما أسلفنا أن نقرر علىٰ وجه التحقيق من الناحية التاريخية كيف كانت نهاية السيرة المسيحية"[3]، ويتكلم

(1) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 546).

(2) اكتشف مؤخرًا إنجيل يهوذا الإسخريوطي في السبعينات (1972م بعد وفاة العقاد بثمان سنوات، وبعد كتابة كتابه عبقرية المسيح بعشرين عامًا تقريبًا) في محافظة المنيا في مصر، وظهر من قريب فقط!! وفيه تكذيب لثوابت النصرانية، ومنها أن يهوذا خائن كما يدّعون، وفيه توضيح لنص مُشكلٍ في إنجيل يوحنا: (ما كنت ستفعله فافعله الآن)، وفيه تصديق لقول العليم الخبير بأنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وفيه بيان لمشكلة النصارىٰ الأبدية وهي التوثيق لعقائدهم وتاريخهم، وفيه بيان لطريقتهم في اختيار كتبهم، وهي فقط بالتشهي، فليس ثَمّ ضوابط تنطبق علىٰ المقبول ولا تنطبق علىٰ المرفوض.

(3) موسوعة عباس العقاد الإسلامية (1/ 737) ط. دار الكتب لبنان. والحيرة جاءت العقاد من أنه قرأ لأحدهم كلامًا عن سيرة المسيح في بلاد الهند (لاهاسا). انظر: ساعات بين الكتب ص625 وما بعدها. والحق أن المسيح عليه السلام بالرواية النصرانية يوجد منه ستة عشر فردًا، والعقاد يعرف كما مرَّ بنا، فالذي

بعد ذلك عن "قبر" المسيح، عليه السلام، هل هو في فلسطين أم في كشمير؟!!

يتقاطع، بل يتطابق عبَّاس العقاد مع طه حسين في إنكار حجية القرآن الكريم. والفرق بينهما أن طه حسين صرَّح بعدم اعترافه بالقرآن كمصدر تاريخي وقال قولته الفاجرة: "للقرآن أن يحدثنا كما يشاء عن إبراهيم وإسماعيل، ولنا أن نصدق أو لا نصدق"؛ وعبَّاس تحدث بأفعاله، فاعتمد رواية النصارىٰ عن المسيح ولم يعتمد رواية القرآن الكريم، بل تعدىٰ طه حسين وأكد علىٰ أن كتاب النصارىٰ يصلح كمصدر من مصادر التاريخ!!، ولا أعتقد أن العقاد يجهل ما شاع في علم "النقد النصي" للكتاب "المقدس"، وهو علم قدَّمه العلمانيون بعد اكتشاف مخالفة الكتاب "المقدس" للحقائق العلمية المكتشفة حديثًا عن كروية الأرض وتاريخ البشرية، وانتهىٰ هذا العلم إلىٰ عدم موثوقية الأخبار التي وردت بين دفتي "العهد القديم و "العهد الجديد". ولا أدري لماذا أقدم عبّاس علىٰ هذه المجاملة العقدية التي تضاد الكتاب والسنة!!

وإن قيل: إنه يقول بما تقول به المصادر التاريخية. فهذا غير صحيح لأن المصادر التاريخية لم تتكلم عن المسيح، عليه السلام، والعقاد يعرف هذا، وذكره في بعض المواطن وفسر إهمال المؤرخين للمسيح، عليه السلام، بكونهم يهود ولذا لم يهتموا به بل تعمدوا إخماد ذكره. ولكن السبب الحقيقي أن العلمانية حين كتبت التاريخ حاولت إهمال ذكر رسل الله جميعًا، فأخرجت موسىٰ،عليه السلام، من تاريخ الفراعنة وأخرجت المسيح،عليه السلام،،

حكىٰ عنه كاهن التبت للكاتب الروسي الذي أشار إليه العقاد في كتابه "ساعات بين الكتب" مسيح آخر غير المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام. والهندوس عندهم ذات الحكاية، وغيرهم وغيرهم...

وأخرجت كل الرسالات، ولولا استمرار أثر رسول الله ﷺ، لحاولوا إخراجه أيضًا(1). وقد مر بيان ذلك في الفصل السابق. وكذلك لم يكن للمسيح، عليه السلام، كبير أثر في حياة البشرية، والتأثير جاء بعد ذلك من الوثنين حين اعتنقوا دين بولس، وتوطين المسيح في الذاكرة جاء من القرآن الكريم بالأساس ولولا ما أنزل الله علىٰ رسوله محمد ﷺ، لربما ظلّ المسيح وأمه تحت ركام الأيام واستقر بولس وأتباعه.

لم يكن العقاد نصرانيًّا، بل كان منتسبًا للإسلام ويدافع عنه أحيانًا، ولم يكن العقاد يؤمن بالصلب من أجل الفداء، بل يصرح بأن لا خطيئة موروثة، ولكنه لم ينفِ ما تكلم به في كتاب "حياة المسيح/ عبقرية المسيح"، ولم يصرح بضده إلا في جملة أو جملتين، ومات وكتبه منشورة، ولم يصلنا أسف منه علىٰ شيء منها أو فيها، **والذي أرتاح إليه هو ما صرحت به مرارًا في هذا الكتاب، وهو أن الرجل عاش مشاغبًا، ويحرص علىٰ أن يقف وحيدًا إن تكلم عن النصرانية أو تكلم عن الإسلام، إن كان في الأدب أو كان في الفكر!!**

هذا هو العقاد.. لم ينصر إسلامًا ولم يغظ كفرًا، وإنما أضاع جهده ونفسه في إثبات ذاته ومناطحة أقرانه، وأضاع وقتنا في الرد عليه.

*****

(1) توجد بعض المحاولات لإخراج الأحداث الهامة في تاريخ المسلمين من التاريخ، وذلك من خلال استخدام بعض المناهج العلمانية التي تتكئ علىٰ المكتوب، ما يقال له "وثائق". والمحاولات في هذا الباب تحاول التشكيك في تاريخ المسلمين أو بعض أحداثه ومن ثم إحداث حالة من الارتباك الذهني (العقدي) عند المسلمين.

الفصل الخامس
عبقريات عبَّاس العقَّاد

توطئة:

كتب عبَّاس العقَّاد في السياسة والأدب، وكتب في الإسلاميات، إلا أن ما كتبه تحت مسمىٰ العبقريات يُعدُّ أشهر ما قدَّم للمكتبة العربية، فلا يكاد يُذكر إلا مقرونًا بالعبقريات.

ويظهر، مِنْ تتبع سياق تأليف ونشر "العبقريات" أنها أول ما كتب في الإسلاميات، وكان ذلك بعد أن تجاوز الخمسين من عمره، فقد نُشرت الطبعة الأولىٰ من "عبقرية محمد" ﷺ في عام 1942، وكان قد مضىٰ من عمره يومها 53 سنة ميلادية[1].

ولم تظهر رؤية شاملة للتأليف ابتداءً، لا في العبقريات ولا في الإسلاميات عمومًا، بمعنىٰ أنه لم يمتلك مشروعًا فكريًا عالجه في عددٍ من الأطروحات، وإنما استخدم بعض المقولات المستعارة من المفكرين الغربيين مثل "العبقرية"، وشارك من خلال هذه المقولات في الرائج علىٰ الساحة الفكرية، فكان تناوله للسيرة النبوية والشخصيات الإسلامية دخولٌ في الرائج علىٰ الساحة الثقافية وبمقولات المستشرقين التفسيرية، وهذا حال عامة من شارك

---

(1) بعض الكتب حمل مسمىٰ العبقريات بداية ثم تغير العنوان في الطبعات اللاحقة، مثل كتابه عن المسيح عليه السلام، فقد صدرت الطبعة الأولىٰ بعنوان "عبقرية المسيح" والثانية بعنوان "حياة المسيح". وحدث العكس مع كتابه عن الشاعر الألماني "جوته" فقد صدر بداية تحت مسمىٰ "تذكار جوته" وتم تعديله بعد ذلك إلىٰ "عبقرية جوته"، وقد كان العقاد يسمح لبعض الناشرين بإعمال أيديهم في عناوين الكتب والمقالات، فكان لهم ظهور حول النص، في التسويق والعنونة، وفي التأطير الفكري، وهذا شديد الوضوح في تقديمهم لعددٍ من كتبه.

في المجال الثقافي وقتها، بمعنىٰ أننا نستطيع أن نقول أن ما عرف بالعصر الحديث اتسم بالنقل عن الغرب، حتىٰ في أخص أمورنا.. أعني قراءة السيرة والتاريخ الإسلامي[1].

ولم يتجه عبَّاس بالعبقريات لشخص الرسول ﷺ وصحابته ﷺ، وإنما كَتَبَ عن الرسول ﷺ وصحابته ﷺ، وكتب عن زعيم الصين وزعيم الهنود وزعيم الأمريكان، وغيرهم. فظهرت عبقرياته قِطعًا متتالية لا يربطها سوىٰ أنها انتصار للفردية ضد الهجمة الجماهيرية كما سيأتي بيانه من كتاباته هو إن شاء الله.

وتنطوي العبقريات علىٰ فكرة رئيسية تعارض ما استقر في صحيح المنقول وصريح المعقول، وهي أن السيرة، أو التاريخ عمومًا، من صنع أفراد معدودين "العباقرة". وهؤلاء "العباقرة" صنيعة العوامل الوراثية والبيئية التي نشؤوا فيها، فكل منهم ورث أباه وتأثر ببيئته!!

وبدهي أن ذات البيت وذات البيئة أنتجت الأضداد، فقد كان خير خلق الله ﷺ،

(1) في كتاب "الفكر العربي في عصر النهضة 1798م-1939م"، أرّخ "ألبرت حوراني" لمراحل التطور الثقافي في المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث، من خلال الترجمة للشخصيات البارزة في كل مرحلة. وباستعراض هذه التراجم نلاحظ أن الثابت عند عامة "رواد" "النهضة" أنهم استعاروا أفكار الغرب، بمعنىٰ أن عملية النقل الثقافي عن الغرب مثّلت واحدة من أهم سمات مرحلة الاحتلال الغربي للعالم الإسلامي، فكانت مدارس الأدب الحديث، وكان المسرح والسينما، وكانت الصحافة، وصنعت ثقافة جديدة لم نعرفها من قبل في تاريخنا؛ وظهرت قضايا عقدية وفقهية لم تعرفها الأمة من قبل، مثل: التبرج والسفور، وتنحية الشريعة عن واقع الناس؛ وصُنعت رموز مجتمعية جديدة علىٰ غير قواعدنا، فتصدر المجتمع أهل الخنا والفجور واللاعبون. وتأخر أهل الرأي وأهل المروءات. وفي هذا السياق ظهرت موجة فكرية تستهدف إعادة قراءة الشريعة الإسلامية من جديد بمقولات المستشرقين، كان من "روادها" في مصر طه حسين وعباس العقاد.

وأبو طالب وأبولهب، كانوا من بيئة واحدةٍ. بل ومن بيتٍ واحد "بني عبد المطلب بن هاشم"؛ ومن صلب رأس النفاق (ابن سلول) خرج ابنه "عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول"، وكان ممن يحب الله ورسوله؛ وفي بيت نبي الله نوح، عليه السلام، تربىٰ ولده الذي كان من المغرقين؛ وفي بيت فرعون كانت آسية التي صدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، وفي بيت نوح ولوط، عليهما الصلاة والسلام، كانت امرأتان علىٰ غير ما عليه زوجيهما. فكيف يقال أنها البيئة وأنها العوامل الوراثية؟!

ومن أهم ما برز في عبقريات عبّاس التطاول الشديد علىٰ عامة الصحابة ﷺ، وليس علىٰ من ذكروا في القتال بعد موت عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وبلا دليل صحيح، فالعقاد لم يُعِر الدليل اهتمامًا، وإنما استدل بما وافقه صح أم لم يصح، وكثيرًا ما يكمل من عند نفسه بلا دليل!

وأحاول في هذه الدراسة إبراز هذه الأفكار، وغيرها، ومناقشتها بهدوء من خلال خمسة مباحث، هي:

المبحث الأول: **عبقريات العقَّاد والانتصار للإسلام.**

المبحث الثاني: **عبقريات العقَّاد ركوب للكذب واستخفاف بالعقول.**

المبحث الثالث: **عبقريات العقَّاد إنكار للوحي.**

المبحث الرابع: **تطاول عبَّاس العقَّاد علىٰ الصحابة.**

المبحث الخامس: **أثر العقيدة الإسلامية في بناء الشخصية.**



المبحث الأول
عبقريات العقَّاد والانتصار للإسلام

يحلو لبعضهم أن يضع العبقريات في إطار الانتصار للإسلام، فهل، حقًا، كانت انتصارًا للإسلام؟، هل كتب عبَّاس العقَّاد العبقريات ردًا علىٰ أعداء الدين؟

الحقيقة أن وصف "عبقري" عند عبَّاس العقَّاد لم يتجه للحبيب ﷺ وصحابته ﷺ فقط، وإنما شمل غيرهم ممن يخالفهم كليًا أو جزئيًا، وإليك بعض التفاصيل:

العباقرة عند عبَّاس العقَّاد!

لم يقتصر وصف العبقري عند عباس العقاد علىٰ رسول الله ﷺ وعددٍ من أصحابه ﷺ، ولكنه أرفق حديثه عن رسول الله ﷺ، والمسيح عيسىٰ ابن مريم، عليه السلام، وأبو بكر، وعمر، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين، حديثًا عن الحلاج، وابن عربي، وابن سينا، وابن رشد، وسعد زغلول، ومحمد عبده، وعابد البقرة غاندي، وبنيامين فرانكلين، و يوهان جوته، وفرنسيس باكون، وشكسبير، وبرنارد شو، وصن يات سن (أبو الصين أو نبي الصين كما يسميه العقَّاد).

كل هؤلاء يحملون أعلىٰ الأوسـمة عند العقَّاد: "عبقري"، أو "عظيم"، ويصـرح بذلك في "عبقرية محمد" ﷺ؛ يقول: "العظماء في جميع الأمم وفي جميع العصـور.. يدخل فيهم القديسـون كما يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون، ويدخل فيهم القادة

العسكريون والسياسيون..."[1].

والسؤال: **ما القاسم المشترك بين هؤلاء جميعًا؟!**

بأيهم العقَّاد معجب؟!

بالأنبياء والمرسلين؟! أم بالمكذبين الضالين؟!

بالشخصية القوية الهجومية المقاتلة كخالد بن الوليد؟!، أم بالشخصية السلبية كغاندي؟!

بالشعراء والأدباء أم بالساسة والحكماء؟!

يظهر بوضوح من خلال تتبع السياق والتفاصيل أن هذه الأوصاف ليست سببَ إعجابِ العقَّاد بمن كتب عنهم؛ فلا هو مأخوذ بالأنبياء المرسلين، ولا هو مأخوذ بالكافرين الضالين، ولا بالفلاسفة والمبتدعين، فقط مأخوذٌ بمَن يصنع مجدًا..

مأخوذٌ بكلِ من يُؤَثِّر في حياة الناس، سواء أكان مؤمنًا أم كان فاسقًا، بمعنىٰ أن الكفر والإيمان ليس وصفًا مؤثرًا عند العقَّاد!!

يقول الأستاذ رجاء النقاش في كتاب "أدباء ومواقف" عن العقَّاد: "إنه يؤمن بالإنسان العبقري، ويؤمن بأن الحضارة من صنع العباقرة أولاً وأخيرًا، فهم الذين يصنعون التاريخ"[2].

ويقول في ص15: "ولو استخدمنا أسلوب العقَّاد في عبقرياته فإننا نستطيع أن نقول: إن حبه للعبقرية صفة تصلح مفتاحًا لشخصيته، فهو يطرب للعبقرية كما

---

(1) ص127، والعبقرية هي العظمة عنده. انظر: "عبقرية عمر"، ص327.

(2) رجاء النقاش، أدباء ومواقف، ص11.

يطرب النحل بين الزهور، وكما تطرب العصافير في الربيع، وحتىٰ في مواقفه السياسية كان حبه للعبقرية دافعًا أساسيًّا من دوافع العمل والتصرف في حياته، فقد كان مرتبطًا بسعد زغلول أكثر من ارتباطه بالوفد".

ويقول في ص14: "والعقَّاد معجب، كما قلت، بالإنسان الفرد والعبقرية الفردية، ولذا فهو لم يكتب عن عصر من العصور أو عن شعب من الشعوب أو عن ثورة من الثورات، وهو إذا كتب عن عصر وشعب وثورة فهو إنما يكتب عن ذلك من خلال شخص من الأشخاص".

ووافق الشيخ الدكتور غازي التوبة ما ذهب إليه رجاء النقاش في كتابه "الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم"[1] ، وذكر عددًا ممن تأثر بهم العقَّاد من الفلاسفة الغربيين، واستشهد بمواقف العقَّاد وكتاباته. وكذلك أيدتْ الدكتورة نعمات أحمد فؤاد هذا المذهب في فهم عبقريات العقاد، وأنها (العبقريات) كُتبت للإنسان بغض النظر عن انتمائه الديني. بمعنىٰ أننا أمام إجماع من الذين عرفوا العقّاد وكتبوا عنه علىٰ أنه كتب انتصارًا للإنسانية، من منطلق الإعجاب بالإنسان الفذ.. العبقري. لا تأريخيًا للإسلام ولا دفاعًا عن الدين وسيد المرسلين ﷺ.

ودعنا نطرح السؤال (لماذا كُتِبَتْ العبقريات؟) علىٰ العقاد نفسه، وقد أجاب بنفسه إجابة صريحة واضحة عن سبب كتابته للعبقريات. فقد ذكر في مقدمة "عبقرية محمد" ﷺ ذكر أن دافعه لكتابة العبقريات هو رد تطاول الناس علىٰ العظماء تحت وطأة المساواة التي جرت بينهم اليوم.

(1) الفكر الإسلامي المعاصر - غازي التوبة ص144.

وفي مقدمة عبقرية الصديق أفصح العقَّاد عن تألمه الشديد لما نال العظماء من تطاول في العصر الحديث، حتىٰ صحَّ عنده أن العظمة في حاجة إلىٰ ما يسمىٰ بـ "رد الاعتبار" في لغة القانون، ولم ينصرف حتىٰ أعلن احترامه واعترافه بالجميل لكل عظيم حتىٰ ولو كان من غير المسلمين، أو كما يقول هو: من "عظماء الأديان"[1].

وحال حديثه عن الصديقة بنت الصديق.. حبيبة الحبيب.. أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، ذكر أن الغرض الأول أو الغرض الذي تنتهي إليه جميع الأغراض من تدوين سير العظماء، هو "توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماتها، والنفاذ إلىٰ الجانب الإنساني من كل نفس تستحق التنويه والدراسة"[2]. وحال حديثه عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أكد أن الذي يعنيه من عرض العبقريات هو "التعريف بالنفس الإنسانية في حالة من أحوال العظمة والعبقرية"[3]. وحال حديثه عن بنيامين فرانكلين بثَّ شكواه من تطاول الكثرة وظهور التخصص علىٰ العظماء، وأعلن أنه إذْ يؤرخ لبنيامين فرانكلين فهو ينقذ العظمة من هجمة الكثرة وظهور التخصصية بإبراز حياة هذا العبقري[4].

نعم.. لا يشك عاقل في أن عبقريات العقَّاد لم تكتب انتصارًا للإسلام، بل كتبت لغرضٍ آخر هو الدفاع عن "الفردية".. "العظماء".. "رد هجمة

---

(1) انظر: مقدمة عبقرية الصديق.

(2) الصديقة بنت الصديق ص23.

(3) عثمان ذو النورين ص 17، وعثمان ليس بعبقري عند العقَّاد.

(4) بنيامين فرانكلين ص14، 15.

التخصصية".. إلىٰ آخر ما يقول هو[1]، وهذا ما يفهمه المسوِّقون لبضاعة العقَّاد الفكرية، يقول مَن قدَّم لرسالة "الصهيونية العالمية" عن العقَّاد: "ومن يقرأ كتبه، ولا سيما عبقرياته وحملاته ضد الحكم المطلق والمبادئ الهدامة، يعرف أنه **يدين بالقيم العليا، ويقيس عظمة الرجال والأعمال بالمقاييس الأخلاقية**"[2].

هل كان ظلامًا؟!

بعض المدافعين عن عبَّاس العقَّاد يقول: لم يكن في الفترة التي عاصرها العقاد علمٌ بالدين.. يقولون: كان ظلامًا!!

وكأنَّ العقَّاد جاء علىٰ فترة من الرسل، في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب!!

والحقيقة خلاف ذلك، فقد عايَشَ عبَّاس العقَّاد الصحوة الإسلامية.. عايش تكونها، وصعودها، وأحداثها الكبرىٰ؛ وكانت الأكثر دويًّا في تاريخنا المعاصر؛ كانت تناظر، وكانت تجاهد، وكانت- ولا زالت- في كل مكان[3]. عاصر عبَّاس العقَّاد حسن البنا، وعز الدين القسَّام، ومحمد شاكر، ومحمود شاكر، ومحمد عبد الله دراز[4]، ومحمد رشيد رضا، ومحمد عبد الكريم خطابي، وعبد الحميد

(1) رجاء النقاش وغيره يقولون بأن العقَّاد كتب للسوق، والحقيقة أن الكتابة للسوق أحد أهداف عباس وليست كل أهدافه.

(2) المقدم هو محمد خليفة التونسي. الصهيونية العالمية ص8.

(3) مصر قديمًا هي مصر والسودان حاليًا، عدا غرب السودان فإنه يتبع منطقة الولايات تاريخيًّا، وجنوبها يتبع الحبشة، والسودان قديمًا هي إفريقيا الآن عدا مصر والمغرب العربي، وكانت تسمىٰ سودان لسواد بشرة سكانها، وإفريقيا قديمًا هي المغرب الأدنىٰ (ليبيا وتونس)، والمغرب الأوسط قديمًا (الجزائر)، والمغرب الأقصىٰ قديمًا هو دولة المغرب وموريتانيا. وتغيرت الأسماء بعد قدوم الاحتلال الغربي.

(4) صاحب كتاب النبأ العظيم، وهو مصري توفي في باكستان في مؤتمر حضره هناك، وكان ممن ابتعث للغرب.

باديس؛ وظلت الصداقة قائمة بين سيد قطب وعباس العقاد لعقودٍ من الزمن وكانا صفًّا واحدًا في حزب الوفد في العقد الثالث من القرن العشرين؛ ومر به أحداث جسام مثل سقوط الخلافة1924م، ونكبة فلسطين1948م وكلها كانت أحداث منشأة لتحولات وتغيرات فكرية وسياسية في الاتجاه الإسلامي التجديدي (الصحوي).

كانت الحركة الفكرية إسلامية في جملتها، أو بالأحرىٰ ذات مواضيع إسلامية، تؤيد أو تعارض ـ وكانت الصحوة كبيرة برموزها وجماهيرها، وعريضة بمساحة انتشارها، ولم يكن عبَّاس العقَّاد إلىٰ يوم مماته ضمن المنظومة التي تدافع عن الإسلام أيًّا كان توجهها، بل كان من المشاكسين للصحوة ورجالها!!

كان مجافيًا للتوجهات السلفية المعنية بالسنة النبوية، وينظر بعين الازدراء إلىٰ الدعوة السلفية في نجد (الدعوة الوهابية)[1]، واتهم "الإخوان المسلمين" بالعمالة للعدو الصهيوني ووصفهم بـ "خُدّام الصهيونية"، وزعم أن الأستاذ حسن البنا من يهود ويعمل لصالح يهود!!، وكان يسمي الإخوان بـ"خُوَّان المسلمين".

وقرأ عبَّاس العقَّاد في أمهات الكتب التراثية، فيعرف البخاري ومسلم، ويعرف شيخ الإسلام ابن تيمية وينقل عنه ويسميه الإمام الثبت[2]، ويعرف ابن

(1) عقد فصلاً في كتاب "الإسلام في القرن العشرين"، تكلم فيه عما أسماه الدعوة الوهابية.

(2) انظر: "التفكير فريضة شرعية"، ص865 وما بعدها، فقد أطال الكلام عن وحول شيخ الإسلام ابن تيمية.

القيم[1]، ويعرف القرافي[2]، ويعرف ابن الجوزي[3]، ويعرف أئمة السلف وكثيرًا من مشاهير الخلف، ويرجح بين الروايات كما في وفاة أم رومان زوجة أبي بكر رضي الله عنهما[4]، ويعرف أننا نمارس النقد علىٰ المتن وعلىٰ السند[5]، ولك أن تراجع ما قاله حول قصة وأد عمر لابنته في الجاهلية[6] يتكلم عن السند والمتن، ويرد المتن بعقله، ويشكك في السند دون أن يذكر عنه شيئًا، فقط بالتخمين والظن، وما يعنيني أنه يعرف أن ثَّمَّة متن وسند.. يعرفه جيدًا. والدكتور صالح سعد اللحيدان في نقده للعبقريات يعتذر للعقاد بأنه يجهل المصادر الصحيحة، أو يجهل التفرقة بين الصحيح وغيره. وهذا غير صحيح؛ كان عالمًا بها مطلعًا علىٰ كثير منها، يدري أن ثَمَّة صحيح مقبول وضعيف مردود.



---

(1) في كتابه "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، ص134 ذكر كتاب إعلام الموقعين" لابن القيم، وفي صفحة 248 من الكتاب نفسه شرح منهج ابن القيم في تعاطي المسائل الفقهية شرْحُ مَن قرأ وعلم. وفي كتاب التفكير فريضة إسلامية" ص928 ذكر ابن القيم وكتابه إعلام الموقعين ثانية ينقل عنه.

(2) التفكير فريضة إسلامية ص927.

(3) التفكير فريضة إسلامية ص935.

(4) الصديقة بنت الصديق ص32.

(5) فاطمة الزهراء ص55.

(6) عبقرية عمر ـ موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية، دار الكتاب، ص511.

المبحث الثاني
كيف يستدل عبّاس العقّاد في عبقرياته؟

حال التحدث عن أي "عبقري" من "العباقرة" يأتي عبَّاس العقَّاد إلىٰ مَعْلَمٍ ثابت. هذا المعلم هو أصل "العبقري" وبيئته التي نشأ فيها. ويربط كلَّ الكرائم التي تظهر علىٰ هذا "العبقري" بأصله وبيئتِهِ، ولا يجعل شيئًا منها لعقيدته. وينتقي عباس نصًا أو نصين يستدل بهما، ولا يبالي بمصدر النصوص إن وافقت ما يذهب إليه. يتحرك بين المصادر يفتش فيها حتىٰ يجد ما يوافق هواه فينقله، كان البخاري أم كان الأصفهاني!!

وكأن العقاد لا يدري أن الخبر بالمُخْبِرِ أو بشواهدٍ في ذات الخبر تشهد علىٰ صدقه، فنحن نفتش في النص (المتن) ونفتش فيمن نقل إلينا النص (السند)، ولا بد من صحّة الاثنين معًا، فلا نقبل من الكذوب ولا نقبل ممن لا يَضْبِطُ ولا ممن خدشت عدالته، ولا نقبل نصًّا يتعارض مع الصريح الصحيح[1]. فحينًا تجد الخطأ عنده في الاعتماد علىٰ نصٍّ ضعيف أو غير صحيح، وحينًا تجده يمسك بنص صحيح ولكنه يغير المعنىٰ بطريقته في الاستدلال، وكثيرًا ما يجمع بين الأمرين: نص غير صحيح ومعالجة غير صحيحة. أو يتكلم من تلقاء نفسه بلا دليل صحيح أو غير صحيح!!

وفي هذا السياق تظهر بعض الجمل التي لا تستطيع وصفها بغير أنها حالة من

(1) قلت: وعباس يعرف هذا ويتكئ عليه وهو يبرر ما حدث بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، رضي الله عنهما ـ ويصرح بأنه لا بد من صحة السند، ولكنه لا يلتزم به كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ. انظر: عبقرية عمر ص480.

السخرية والاستخفاف بمن يقرأ، مثلا، يقول: "عن عبد الله ابن عباس". ولكي يقتنع من يقرأ بما ينسبه العقَّاد لابن عباس، رضي الله عنه، يُقحم جملة اعتراضية هي، "وكان حاضرًا"، أي عبد الله بن عباس، وكأنّ العقَّاد تلقىٰ مباشرةً من عبد الله بن عباس!!

ومعلوم أن المشكلة ليست في الصحابي، وإنما فيمن أتىٰ بعدهم، فالكذابون من المتأخرين لابد أن يسندوا كذبهم لصحابي، فتكون المشكلة فيمن يدعي الرواية عن الصحابي لا في شخص الصحابي نفسه.

وتقرأ للعقاد: "وأيده علىٰ ذلك بعض المجتهدين". ولا تدري من هم، ولا أين يجتهدون، ولا في ماذا يجتهدون؟!! وكله نوع محاصرةٌ للقارئ وفرضٌ للرأي عليه.

وإلىٰ بعض الأمثلة لبيان كيف يتعامل مع النصوص، **وكيف أنه لا يرىٰ أثرًا للعقيدة في حياة الناس، والهدف الأهم، في هذا المبحث وغيره، هو بيان مدىٰ تغلغل الفكر الغربي في عقول نخبة الأمة**، وما العقّاد إلا نموذجًا.

أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

ينسب الصفات الحميدة التي ظهرت علىٰ الصديق، رضي الله عنه، لشخصه، يقول: "أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه"، ويقول: "يدري بوحي نفسه"!!

ويذكر أن سبب إسلام أبي بكر هو إعجابه ببطولة النبي ﷺ[1]، فأبو بكر ـ عند العقَّاد ـ سيَّر جيش أسامة بعد وفاة الحبيب ﷺ، وقاتل المرتدين، وكان علىٰ هدي النبي ﷺ في كل شيء؛ لأنه مُعجب ببطولة النبي ﷺ، أو ـ كما يقول العقَّاد

(1) انظر: الأعمال الكاملة 1/ 230، 231، 239، 344.

- **لأنها أوامر بطله العزيز عليه**[1] لا إيمانًا بالله وما أنزل علىٰ رسوله ﷺ!!

والحقيقة أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، عاش قريبًا من أربعين عامًا قبل البعثة نسيًا منسيًّا، ولولا الله ما اهتدىٰ ولا صام ولا صلىٰ، ولمات كما مات ألوف من قومه لا يسمع بهم أحد؛ والله يقول: (لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (النور: ٤٦)، والله يقول: (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ): (النور: ٢١)، والله يقول: (هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ. وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) (الجمعة: ٢ - ٤)، فكله من فضل الله علينا ابتداءً وختامًا، وفي الحديث: «وَاللهِ لَوْلا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا»[2].

أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

حال تناوله لسيرة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق، رضي الله عنهما، قدّم بحديثٍ طويلٍ يتكلم فيه عن حال المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وخاصة النساء اللاتي في بيوت سادة العرب، يقول: كانت تُستشار. والثابت أن إستشارة النساء في الأمور العامة لم تكن ظاهرة مجتمعية لا قبل الإسلام ولا بعده، فلا يُعلم حضور النساء لمجالس الرأي والقرار. ثم ينثني بعد ذلك علىٰ بيت أبي بكر الصديق في الجاهلية فيقول: بيتُ سيادةٍ متحضر، رجاله رقاق

(1) السابق ص287.

(2) البخاري برقم 3795.

القلوب يهيمون بنسائهم، ونساؤهم حسناوات منعمات أو كما يقول هو واصفًا بيتَ أبي بكر، رضي الله عنهم أجمعين، "ظُرفُ الرجالِ وتدليلُ النساءِ".

ثم يبني علىٰ ذلك فيقول بأن هذه النشأة، في بيوت السيادة والشرف، جعلت لها شخصية قابلة للمشورة وللمشاركة في الأمور العامة، ويصورها بأنها كانت "سيدة المجتمع الأولىٰ"، فقد كانت للنبي ﷺ "سفيرته الأولىٰ لعالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور، فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلىٰ بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين"[1].

يحاول أن يَصبَّ نموذج الدعوة الأول في قالب العلمانية المعاصر!!

وغير صحيح!!

أبو بكر الصديق من بني تَيْمِ بن مُرَّةٍ، وبنو تيم بن مرة هم أضعف قريش نسبًا وأقلهم حسبًا، فكانوا بين قريش في الجاهلية لا يفاخرون بغير ابن جدعان. وابن جدعان هذا صعلوكٌ مطرود عثر علىٰ كنز فراح ينفق أمواله فيما كانت العرب تفاخر به (إطعام الطعام) ليخلد ذكره بين الناس، واجتمع حوله عدد من الشعراء يمدحونه إن أطعمهم ويذمونه إن أُطعموا ما هو أشهىٰ عند غيره، فشاع بين الناس ذكره، وكله من فخر الجاهلية، ومشهورٌ قول أبي سفيان يوم بويع أبو بكرٍ بالخلافة: "ما بال هذا الأمر في أقل قريش قلة وأذلها ذلة"[2]. ومشهورٌ أيضًا قول أبي قحافة (والد أبي بكر الصديق) يوم بويع بالخلافة: هل رضيت بذلك

---

(1) ص65.

(2) انظر: المستدرك (3/ 83) حديث (4462)، وانظر: تاريخ الطبري (2/ 2237)، وحياة الصحابة (2/ 148)، وانظر: كنز العمال (5/ 657) حديث (14155).

بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟! قالوا: نعم، فقال: لا واضع لما رفعت، ولا رافع لما وضعت[1]. فهو يشير إلىٰ موضوعٍ رُفع، ومرفوعٍ وضع. وحالُ بني تيم بن مرة في الجاهلية معروفٌ في كتب الأنساب وكتب السيرة وكتب الحديث، ولابد أن العقاد قد مر عليها أكثر من مرة، وخاصة أنها تحدث عن المنافسة بين القبائل في قريش، فانظر كيف يحيد عن الحقيقة وصولًا لما يريد؟!

ولم يكن النبي ﷺ يستشير السيدة عائشة في شأنه كله، بل ولا استشار السيدة أم سلمة يوم الحديبية كما هو مشهورٌ بين الناس، وإنما دخل خيمته وهي، رضي الله عنها، فيها وتحدث إليها حديث المدهش المأخوذ بما رأىٰ من الناس وقد أمرهم فتباطؤوا، فسمعت قوله وعرضت عليه رأيًا فأخذ به. فلم يكن الحال معها، رضي الله عنها، طلبًا للمشورة وإنما حديث عفوي. ولم يكن الحال أن تعقد مجالس الشورىٰ بالنساء، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، ولا عند الكافرين من أهل اليونان والرومان، بل لم يكن للمرأة حق التصويت في الانتخابات عند الأوربيين والأمريكان إلىٰ وقت قريب. كانوا يأنفون من ذلك، وشاعرهم يقول مفاخرًا بنفسه:

وَلا جَبأَ أَكهىٰ مُـرِبٍّ بِعرسِهِ   يُطالِعُها في شَأنِهِ كَيفَ يَفعَلُ[2]

---

(1) انظر: أسد الغابة (1/ 650)، تاريخ الخلفاء ص73.

(2) البيت من "لامية العرب" للشنفري، وهي من مشهور شعر العرب، وكانوا يحفِّظونها صغارهم. وجبأَ: جبان. وأكهىٰ: أفعل من الكهاةِ، يدور معناها علىٰ الضخامة والعظمة، والمقصود هياب متردد تكبر الأشياء في حسه، يدعم الوصف الأول (جبأ). والمربُّ: الملازم. انظر: لسان العرب 15/ 234. والشنفري: هو عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان، شاعر جاهلي، يماني، من فحول الطبقة الثانية. كان من فتاك العرب وعدائيهم. وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم. انظر: الأعلام للزركلي 5/ 85.

ولم يكن النبي ﷺ يفرد النساء بصلوات دون الرجال، ولا بمجلسٍ دون الرجال يجلسن فيه بين يديه أو يجلس إليهن مصطحبًا أم المؤمنين عائشة أو غيرها من نسائه وبناته. فقط يأتين لبيته يسألن نساءه أو يسألنه في حضرة نسائه كالتي جادلت في فراق زوجها بعد أن جعل زوجها ظهر أمه كظهرها[1]. وتخصيص يوم ومجلس للنساء حدث مرة بعد طلب النساء لذلك، ولم يكن يومًا ثابتًا كل أسبوع ولا مكانًا ثابتًا يجتمعن فيه ويأتيهن. وفي الجملة: كان النساء في البيوت خلف رجالهن، ولم يبرز في المجال العام إلا واحدة أو اثنتين وفي مواقف معدودة استلزمت حضورهن بأعيانهن. وما كان له ﷺ سفيرة أولىٰ ولا ثانية لعالم النساء بالمعنىٰ المعروف المتبادر للذهن من السفارة[2].

وكانت أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، تُحَدِّثُ بما علمت من النبي ﷺ النساءَ والرجالَ، بل وأكثر من روىٰ عنها هو ابن أختها عروة بن الزبير، رضي الله عنه، فلم تكن تنشط بين النساء فقط بما يشبه الجمعيات النسائية اليوم، وهو ما يحاول العقاد إيهامه للقارئ، كان مجتمعًا واحدًا متكاملًا: النساء في البيوت شريفات مصونات يقمن بما خلقهن الله له من تربية الأولاد والقيام بحق الزوج، والرجال بالخارج يضربون في الأرض سعيًا علىٰ الرزق ودعوةً إلىٰ الله. وقلة قليلة جدًا من النساء تظهر في المجال العام في مواقف محدودة، وإلىٰ الآن لم تفلح العلمانية في جر كل النساء للمجال العالم رغم إصرارهم علىٰ "تمكين المرأة" من التواجد في جميع المجالات، وذلك لاختلاف المرأة عن الرجل في

---

(1) هي خولة، أو خويلة، بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت، والحديث في صحيح البخاري (360).

(2) وأسماء بنت يزيد الأشهلية الأوسية الأنصارية، وافدة النساء، كانت وافدة ولم تكن سفيرة، تتحدث بما يدور بخاطرها، وحديثها ضعفه الألباني. انظر: السلسلة الضعيفة (6242).

الخصائص النفسية والجسدية (وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ) (ال عمران: 36). فالمجتمع الإسلامي يصعب فهمه وتفسيره من خلال منظور علماني، نسوي أو ذكوري، بمعنىٰ أن الحالة الإسلامية مستقلة من حيث العموم، وإن تقاطعت في بعض التفاصيل مع غيرها؛ فلم تكن المرأة كما هي في جاهلية ما قبل الإسلام ولم تكن كما هي في المنظومة العلمانية المعاصرة.

ولو كان مرجع الأمر لبيت أبيها الذي نشأت فيه، لكان أولىٰ منها السيدة أم حبيبة بنتُ سيد قريش أبي سفيان بن حرب، أو الصوَّامة القوامة بنت سيدِ قومها جويرية بنت الحارث أم المؤمنين، رضي الله عنها؛ وكذا بنت سيد قومها سليلة الأنبياء صفية بنت هارون، رضي الله عنها، وصلىٰ الله وسلم علىٰ أبيها هارون وعمها موسىٰ[1]. بمعنىٰ أن الأمر لم يكن متعلقًا بالبيت الذي نشأت فيه أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وإنما بصغر السن، وقد صرحت هي بذلك كما في روايتها لوفاة النبي ﷺ[2].

ولم تشارك أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في المجال العام كما تفعل زوجات رؤساء الدول الآن، وإنما شاركت يوم الجمل بعد إلحاح عليها، وخرجت للصلح بين المؤمنين، كما تفعل الأم مع أبنائها، والأحداث توالت ولم يكن هناك من يُعدّ لها ويخطط، بل ولا من يتوقعها، وبقيت بعد النبي ﷺ قرابة نصف قرن من الزمان تعبد ربها في بيتها وتحدث الناس بما سمعت ورأت

---

(1) وحديث الترمذي (3827) الذي فيه: فكيف تكونان خيرًا مني وزوجي محمد وأبي هارون وعمي موسىٰ؟!). ضعفه الألباني؛ انظر: السلسلة الضعيفة برقم 4963.

(2) البخاري برقم 1300.

في بيت رسول الله ﷺ كما أمرها الله، يقول الله تعالىٰ لنساء النبي ﷺ : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (الأحزاب: 33). وإن قصدها أحد المؤمنين بشيء شفعت له وهي في بيتها، فلم تكن شخصية عامة بما يصوره خيال السياسيين والمفكرين اليوم.

وذكر عباس العقاد في أكثر من موضع أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- ذهبت لعثمان في أمرٍ ما، ووقفت علىٰ الباب وأسمعته ما يكره ورفعت عليه (أي عثمان) النعل تسبه وتهدده. ولا أدري من أين جاء عباس بهذا المشهد البذيء شديد الرداءة، فلا هي من تفعل هذا، ولا خليفة رسول الله ذي النورين (عثمان، رضي الله عنه) من يُرفع عليه النعل ويسب في بيته.

عثمان بن عفان:

يَذكر العقّاد أن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، آمن وحده وكفر بنوا أمية كلهم. ويعلل ذلك بوجود شخصين في حياته، أحدهما زوجِ أمِّه (عقبة بن أبي معيط) والثاني: خالته الكاهنة، وليس لأن خطاب الوحي أثر فيه فاستجاب لمن يدعوه إلىٰ الله. فعند عباس أن نشأة عثمان، رضي الله عنه، في كنف عمِّه وزوج أمه عقبة بن أبي معيط الأموي أورثه جفاءً من ناحية الأسرة ومن ناحية بني أمية عمومًا جعله لا يسايرهم في كفرهم ولذا أسلم[1]، يقول: واشتد إقباله علىٰ الإسلام بحديث لخالته الكاهنة التي تنبأت له فاتبع محمدًا ﷺ.

و"الأستاذ" يغرف من خياله!

(1) عبقرية عثمان ص53.

لم يكن عثمان وحده مَن أسلم من بني أمية، بل لم يكن وحده من السابقين إلىٰ الإسلام من بني أمية. كان منهم، غير عثمان بن عفان، عمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط[1]، وهي من ذات البيت الذي نشأ فيه عثمان، رضي الله عنه وعنها، وقد أكثر العقَّاد من الحديث عن بيت أبيها دون أن ذكر شيئًا عن أم كلثوم بنت عقبة هذه، رضي الله عنها.

فلم يكن بنو أمية كلهم صفًّا واحدًا ضد الإسلام، كونه خرج من بني هاشم، ولم يكن الأمر كما زعم العقَّاد جفاءً بين عثمان وبني أمية دفعه إلىٰ الإسلام وترك ما عليه قومه من الكفر. بل جاءت الأخبار أن عثمان كان محببًا في بني أمية، ولذا آووه ومنعوه يوم الحديبية، بل وعرضوا عليه أن يطوف آمنًا بالبيت، وحين رشحه عمر لتولي الخلافة من بعده، ذكر أن بني أمية سيجتمعون حوله (لحبهم له، وحبه لقرابته) فيجتمع عليه وعليهم الناس، بل وكانت قريش كلها تحب عثمان، وكانت المرأة تهدهد طفلها وتقول: أحبك والرحمن حب قريش عثمان.

ولم يكن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، حبيس بيت عمه وزوج أمه (عقبة بن أبي معيط)، يركله ويؤذيه، كما هو الحال اليوم فيما تصوره المسلسلات التليفزيونية التي تُبغِضُ الناس في الحلال، بل كان غنيًّا ثريًّا يتاجر في مكة ويرحل بالتجارة إلىٰ الشام؛ وكان زواج الأم بعد موت الأب، من العم أو غيره، أمرًا

(1) تجد أسماء من أسلم من بني عبد شمس في ذكر من هاجر للحبشة، وذكر من حضر بدرًا في سيرة ابن هشام (1/ 323).

عاديًّا، والعقَّاد يعرف ذلك ويذكره، في مكانٍ آخر، وينكره أو يتنكر له هنا كما هي عادته[1].

والمقصود هو بيان كيف أن العقَّاد **لا يرىٰ أثرًا للعقيدة في أفعال أبي بكر والسيدة عائشة وعثمان بن عفان، رضي الله عنهم، وأنه يستخدم مقولات العلمانيين في تحليل السيرة النبوية، وخاصة القول بأن العداوة بين بني هاشم وبني أمية صاغت الفترة الأولىٰ من الدعوة الإسلامية أو أثرت فيها بشكل كبير،** وبهذا يقترب من سيد القمني وخاصة في كتابه "الحزب الهاشمي"؛ وسيد القمني شديد الوضوح في رفضه للرسالة، بخلاف العقاد الذي يبدو مادحًا للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. وبعد قليل، إن شاء الله، يتضح أكثر حاله مع عموم الصحابة رضوان الله عليهم.

ويضيف إلىٰ تأثير البيئة العامل الوراثي، كمؤثر كلي في الشخصية، والذي أفهمه أن ما يرثه الإنسان من آبائه واجداده لا يعدوا أن يكون استعدادًا للفعل ثم تدخل المناهج النظرية والتطبيقات العملية التي يتلقاها الفرد في البيت والبيئة (فأبواه يهودانه أو ينصرانه). والإنسان يتلقىٰ من بيئته حسب ما أودع الله في النفس من استعداد للإيمان أو الكفر والضلال؛ فذات النص يُقرأ من شخص واحدٍ في مجلسٍ واحدٍ علىٰ قومٍ من بيئة واحدة ثم تكون الثمرة مختلفة، وتدبر: (يضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (البقرة:26). (لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) (الحج:53)

(1) تكرر في كتابه عن عثمان بن عفان (عثمان ذو النورين).

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَانا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ)(التوبة:125). وفي المقابل: (والَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) (محمد:17).

والمقصود هو بيان أن أفكار المستشرقين نفذت للعقاد ونفذت منه لعوام المسلمين!!

والمقصود هو بيان مدىٰ استباحة مفاهيم المخالف لعقول نخبة المسلمين فضلًا عن عوامهم!!

والمقصود هو بيان أن النص الشرعي وواقع الدعوة (تطبيق النص العملي في صورته المثالية) في وادٍ وعبّاس في وادٍ آخر.

استراحة!

أكسرُ بها الملل، وأؤكد فيها علىٰ ما مضىٰ ثم أستأنف المسير!!

يقول في "عبقرية الصديق": "وهكذا يبين لنا في إسلام أبي بكر كما بان لنا في إسلام كل رجل ذي بال من السابقين إلىٰ الدعوة المحمدية أنها دعتهم إليها بأسبابها المعقولة؛ **فاستجابوا إليها بأسبابهم المعقولة التي توائم كلاً منهم أصدق المواءمة ولا تحوج أحدًا من المعللين والمفسرين إلىٰ الخوارق المكذوبة، أو إلىٰ تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف"**[1].

والحقيقة أن الخطاب الشرعي في دعوة الناس لعبادة الله، ارتكز علىٰ تعريفهم بربهم وما أعده من الثواب لمن أطاع والعقاب لمن عصىٰ، وقصَّ عليهم خبر مَن قبلهم ، ماذا فعل الله بمن أطاع منهم وماذا فعل بمن عصىٰ ، وقدم

(1) موسوعة العقّاد الإسلامية ص276.

آياتٍ بينات يدلل بها علىٰ صدق الرسول ﷺ، وأجاب علىٰ تساؤلات من سأل، فلا تجد شبهةً ولا سؤالاً للمخالفين ولا تشريعًا للمؤمنين المتبعين إلا مشفوعًا بذكر اليوم الآخر صراحةً أو ضمنًا[1]؛ وهو ما يرد بقوة ما يدعيه عباس من أن الاستجابة جاءت لأمور عقلية أو إعجابًا بشخص الداعي ﷺ فقط.

إن كل شيء في الشريعة مربوط بالوعد والوعيد الذي يسخر منه العقَّاد، فإيمان المؤمنين سببه معرفتهم باليوم الآخر:(وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ): (الأنعام: ٩٢)، وكفر الكافرين سببه جهلهم باليوم الآخر: (وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ) (المؤمنون: ٧٤)، ويقول الله تعالى: (إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰه وَٰحِد فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَة وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ) (النحل: ٢٢). وأمثال هذا كثير في كتاب الله.

وعباس ينكر المعجزات، ويسخر منها ويتطاول عليها بتسميته إياها "الخوارق المكذوبة"، وهي ليست مكذوبة، وإنما صادقة جاءت بها الأخبار عن المرسلين؛ وهي ضرورة لتصديق النبي، أي نبي، فلا يكون النبي نبيًّا حتىٰ يأتي بمعجزة حسية كتكلم الجمادات بين يديه، وشفاء من لا يُرجىٰ شفاؤه، أو بمعجزة غيبية كالإخبار عن غيب، فهاتان (المعجزات الحسية والإخبار بغيب) أمارتان علىٰ أن المتكلم بهما مؤيَّد من الله العليم الخبير القادر علىٰ كل شيء.

خالد بن الوليد رضي الله عنه:

كباقي "العباقرة" لا يرىٰ أثرًا للعقيدة في تكوينه؛ يقول عن خالد، رضي الله

(1) انظر للكاتب: الخطاب الدعوي المنقوص، بالصفحة الخاصة في صيد الفوائد وطريق الإسلام.
http://saaid.net/arabic/44.htm

عنه،: "مُدّخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه، وملكات نفسه وجسده"[1]؛ ويقول : "أعمال خالد تعنينا في هذا الكتاب لمقصدٍ واحد، وهو الرجوع بها إلىٰ مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه"[2]. وفي كتاب "عبقرية خالد" يؤكد أن خالدًا إنما انتصر بما له من صفات شخصية؛ يقول في نهاية بحثه عن خالد وهو يلملم أفكاره ومفاهيمه التي يريد أن يقدمها للقارئ ،: "وإجمال القول في توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور علىٰ النضال: وهي الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير.. كان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة إليها"[3].

ويسند جَلَدَ خالد، رضي الله عنه، وقوته في الحرب إلىٰ بيئته وليس إلىٰ عقيدته، فيقول: "وموضع الترجيح والاستنتاج هنا إنما هو في إرسال خالد إلىٰ البادية قصدًا لرياضة النفس والجسد علىٰ خشونة الأعراب وشدائد الميادين.. فهذا، وإن جرت به عادة بعض الأشراف في حواضر الحجاز، لم يقطع به قول من الأقوال في سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه "الشهود" علىٰ احتمال الشهادة للمعنىٰ الذي قدمناه. ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة، والذي لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج، أن خالدًا قد نشأ حيث نشأ في الحاضرة أو البادية مستعدًا للخشونة مستطيعًا لمعيشة الأعراب، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد في أوعر القفار وأعنف الحروب".

---

(1) عبقرية خالد ص34.

(2) عبقرية خالد ص126.

(3) عبقرية خالد ص163.

ماذا يفعل؟!

يريد أن يثبت أن خالدًا، رضي الله عنه، اكتسب القوة والجلد من البدو في الصحراء، ولم يجد دليلاً علىٰ ذلك، بل وجد عددًا من الأدلة وقوفًا يقطعون الطريق عليه؛ منها أن القرآن الكريم صرح بأن أولاد الوليد بن المغيرة، ومنهم خالد، كانوا شهودًا حول أبيهم؛ بمعنىٰ أنهم لم يتركوه: (وَبَنِينَ شُهُودًا) (المدثر: ١٣). ومنها أن خالدًا، رضي الله عنه، لم يكن بدويًّا، وإنما من حواضر الجزيرة.. من أم القرىٰ.. مكة المكرمة (وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا) (الشورىٰ: 7)، ولا يوجد في الروايات ما يفيد أن خالدًا بادَ في الأعراب. وأمام هذه الأدلة الواضحة، راح يغرف من خياله، ليوهم القارئ أن خالدًا، رضي الله عنه، كان علىٰ علم تام بالصحراء وأحوال العرب، ولذا استطاع أن يهزمهم في حروب الردة وما بعدها، يقول: "**فلعله** سافر كثيرًا في الجزيرة قبل الإسلام، **ولعله** عرف في تلك الأسفار دروبها العصية التي كان يطرقها من العراق إلىٰ الحجاز ومن الحجاز إلىٰ اليمن، ومن نجد إلىٰ الشام".

ونسأل: إذا كان السر في نشأة البادية، فكيف هزم خالد من نشأ عندهم وتحلىٰ بصفاتهم وهم أوفر عددًا وعُدّة؟!!

فبدهي أننا لو قلنا بقول العقَّاد بأن السر في تفوق جيش الصحابة رضي الله عنهم في عهد أبي بكر، وهم خيرة الأمة والنموذج العملي للشريعة، أولئك الذين قادهم خالد، يكمن في النشأة في البادية لكان أولىٰ بالنصر أهل البادية أنفسهم!!

ولم يكن رجال قريش، وخالد واحدٌ منهم، يتجولون في الصحراء، بل كانوا يسيرون في الدروب المشهورة ولا يقتحمون الصحراء، وكانت رحلاتهم شمالاً

وجنوبًا بجوار الساحل (تهامة) إلىٰ الشام أو إلىٰ اليمن، وليس تجوالاً في دروب الصحراء، ولم يُعرف خالد بتجارة، والعقَّاد يقر بذلك بعد هذا الكلام بقليل. بل كان خالدًا، رضي الله عنه، يتخذ الدليل حال سيره في الصحراء كما في قصة عبوره من العراق للأردن وهي قصة مشهورة!!

ويقول، وهو يتكلم عن خالد بن الوليد، بأن بني مخزوم "باؤوا بأسباب المحافظة علىٰ القديم جميعًا حين تصدىٰ الإسلام لتبديل ذلك القديم، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها، ومن ثم كانت المصاولة بين الإسلام والجاهلية في وجه من وجوهها مصاولة بين محمدﷺ وبين خالد بن الوليد الذي انتهىٰ إليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الأوان"[1].

قوله هذا في صفحة 22من "عبقرية خالد"، وبعده بقليل، وهو يحسب عُمْر خالد بن الوليد، يُغيِّر أقواله، يقول بأن خالدًا كان غلامًا صغيرًا والرسول ﷺ في مكة!!

والسؤال: كيف كان رأسًا للكفر في مواجهة النبيﷺ وصحابته رضي الله عنهم وهو غلام صغير؟!

والحقيقة أن خالدًا، رضي الله عنه، لم يكن يومًا رأسًا لبني مخزوم، ولا رأسًا لبني أبيه، فضلًا عن أن يكون رأس المشركين كلهم في مواجهة سيد البشرية ﷺ[2].

---

(1) عبقرية خالد ص21!!

(2) استنبطُ هذا مما ورد في فداء الوليد بن الوليد أخو خالد لأبيه) بعد أسره في بدر، ثم حبسه في مكة بعد أن أسلم، حيث لم يظهر أن لخالد قيادة علىٰ بني أبيه فضلًا عن بني مخزوم كلهم، وقيادته للخيل يوم

وفضلًا عن ذلك: لم يكن بنو مخزوم كلهم صفًّا واحدًا في وجه النبيﷺ. وتأمل: في واحدٍ من بيوت بني مخزوم بدأت الدعوة الإسلامية، وهو بيت الأرقم بن أبي الأرقم؛ ومن إخوان خالد بن الوليد وأبناء عمومته من أسلم سابقًا غيره إلىٰ الإسلام، أعني الوليد بن الوليد بن المغيرة، وسَلَمَةَ بن هشام بن المغيرة (ابن عم خالد)، وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة[1]، وأمَّ المؤمنين سلمة رضي الله عنها، وزوجها أبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي. **فلا أدري هل جهل العقاد هذا الحضور الوافر لبني مخزوم في صف المؤمنين؟!، أم هي أفكار المستشرقين التي حاولوا من خلالها قراءة السيرة النبوية من خلال منظور "الخلاف الحزبي"، فقسمت مكة إلىٰ أحزاب متصارعة، وظنت أن الدعوة فصل من فصول الصراع بين أحلاف الجاهلية!!**

وإن من يتأمل في حال من أسلم أولًا يجد أننا إذا أردنا أن نرسم خريطة للمؤمنين تبعًا لأنسابهم فإن الحقيفة الأبرز أنهم لم يكثروا في فخذٍ من فخوذ قريش دون غيره، وكذلك الذين تزعموا الكفر والصد عن سبيل الله كانوا من قبائل قريش كلها وليسوا فصيلًا واحدًا، فمن بني هاشم أبو لهب عم النبي ﷺ"، ومن بني مخزوم "الوليد بن المغيرة"، ومن بني أمية "عتبة بن ربيعة وإخوته ثم أبو سفيان".. وهكذا من كل بطن تجد من آمن ومن كفر في مستوىٰ الملأ ومستوىٰ العوام؛ وهذا حال الملأ في كل زمان ومكان يكذبون الرسل دفاعًا عن مصالحهم وتكبرًا علىٰ التبعية لغيرهم لا انتصارًا لعوائلهم وأنسابهم، وإنما تُفعَّل

أحد ويوم الحديبية لأن قيادة الخيل كانت في بني مخزوم قيادة الخيل فقط، وكان أبو سفيان بن حرب بن أمية زعيمًا لقريش يوم أحد في حضور خالد.

(1) أسد الغابة 1/ 37)، و1/ 470)، و1/ 682)، و1/ 884).

الأنساب في سياق الحفاظ علىٰ السلطة والنفوذ في المجتمع، يقول الله تعالىٰ: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ) (سبأ:34) ، (ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ) (المؤمنون:44). (وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ) (النمل:14).

فهل جهل العقاد هذه الحقيقة الكبرىٰ التي لم يخلو منها زمان ولا مكان؟!، أم أنها أفكار المستشرقين تشبَّع بها، وراح يقرأ من خلالها السيرة النبوية؟!

الحقيقة أن عبّاس العقّاد تبنىٰ أفكار المتطرفين من المستشرقين، ويظهر ذلك في تفسيره لتفاعلات السيرة النبوية من خلال الإطار القبلي؛ فعند العقاد أن هذا مجافٍ لأهله ولذا خالفهم وآمن حين كفروا، وهؤلاء منافسون لبني هاشم ولذا لم يؤمنوا، وأم المؤمنين عائشة تريد طلحة خليفة للمسلمين لأنه من بني عمومتها، وأهل الشورىٰ انقسموا علىٰ خلفية القرابة بين علي وعثمان؛ وحين يتحدث عن أحدٍ من بني أمية يصور لمن يقرأ وكأن بني أمية هم الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، والآن حال حديثه عن خالد بن الوليد يصور جبهة الكفر والصد عن سبيل الله وكأنْ ليس فيها إلا بني مخزوم..!!

ما يهمني هنا هو بيان مدىٰ تغلغل أفكار المستشرقين في الحالة الإسلامية، فهذا هو عباس العقاد مقدمًا بين المفكرين العرب، بل ويعد من المنتسبين، بشكلٍ ما، للحالة الدينية ومع ذلك يتبنىٰ أفكار المستشرقين كليةً، أو بالأحرىٰ تمر من خلاله أفكار المستشرقين.

الفتوحات العربية !!

أجمعت كتب السير علىٰ وصف حركة التمدد التي ظهرت في عهد الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم بالفتوحات الإسلامية، بخلاف المستشرقين، ومن تبعهم، الذين وصفوها بأنها فتوحات عربية، ووافقهم عباس العقاد، يقول: "وانتصر العرب"، "جيش العرب"[1]، "لكن حركة العرب حركة إنشاء ونماء".. فهي عنده عربية تكمل مسيرة العرب في الجاهلية، يقول: "وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتدادًا للواقعة الأولىٰ بذي قار، أو استئنافًا لتلك الواقعة"[2]!!

والفرق جوهري فنحن نعدها دعوة للناس للدخول في دين الله، والمستشرقون، ومعهم عباس، يعتبرونها تمددًا للعرب والعروبة!

وحتىٰ تستيقن من أنه لم يكن يرىٰ تأثيرًا للوحي في البعثة النبوية، وأنه يراها كلها عربية وقامت علىٰ يد "عباقرة" أعرض عليك تفسيره لانتصار المسلمين (العرب علىٰ حد قوله) علىٰ الفرس والروم.

يذكر أن العامل الأساسي في النصر والهزيمة هو الخبرة بالفنون العسكرية، يقول بأن العرب كانوا أخبر وأقدر من الفرس والروم ولذا انتصروا عليهم!! ويقول: "كتب النصر لأولىٰ الفريقين به في ميزان الفن العسكري الذي يشمل جميع المرجحات"[3]، ويقول: "وفرة نصيب العرب يومئذٍ من أقطاب الرجال ذوي الحنكة والنظر البعيد، وإنهم قد ظهروا لأنهم كانوا علىٰ أهبة في هذا الباب

---

(1) انظر مثلاً: ص3، ص145 من عبقرية خالد، وما بعدها، تجده مصرًّا علىٰ أنه جيش العرب.

(2) عبقرية خالد ص123.

(3) عبقرية خالد ص10.

حُرِمتها كلتا الدولتين"[1]. وفي ذات السياق يشكك في أمر العدد، بما يشي بأن المسلمين كانوا هم الأكثر أو مماثلين للفرس والروم في العدد مع أن المعارك نقلت بتفاصيلها وفيها أن المسلمين كانوا أقل في العدد والعتاد من غيرهم!!

يقول: جَمَعَ العربُ بين جميع فنون القتال التي يمارسها أهل البادية والتي يمارسها أهل المدن، ويستشهد بالمناذرة والغساسنة، يقول بأن هذه القبائل جمعت بين خبرة البدو في حرب العصابات وخبرة أهل المدن في الحروب النظامية؛ وكأن الغساسنة والمناذرة حاربوا مع المسلمين ضد الفرس والروم!!

وهذه جرأة على الكذب، أو على التحدث بغير علم.

هذه القبائل كانت حربًا على الإسلام وأهله، قاتلوا المسلمين في "مؤتة" و"تبوك" و"اليرموك" و"فتوحات العراق" و"وفتوحات الشام"؛ بمعنى أن خبرتهم القتالية كانت على المسلمين وليست معهم.. كانوا يحاربون خالدًا والصحابة مع الفرس والروم، لا أنهم يحاربون في صف الصحابة رضي الله عنهم. فانظر كيف جهله؟، أو كيف يقلب الحقائق!!

ويقول بأن قريشًا تعلمت علم العالمين في الحرب؛ إذ كانت تنتقل إلى العرب وينتقل العرب إليها، "فقلما غاب عنها علم عربي وصل إليه أبناء الحواضر والبوادي باجتهادهم واختبارهم، أو وصلوا إليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية"[2]!!

(1) عبقرية خالد ص118، 119.

(2) عبقرية خالد ص15.

وهذا محض خيال فقريش كانت ترحل إلىٰ الأسواق تحمل البضائع بحثًا عن المال، ويأتيها العرب محرمين لحج بيت الله الحرام. وكانت قريش أُمِّية لا تقرأ ولا تكتب، وما كان لها جيش نظامي، ولا قائد عام، فضلاً عن علمٍ بالفنون العسكرية، وهُزِمت في أكثر حروب الفجار التي خاضتها. وهكذا كان حال باقي قبائل كنانة وقيس وأبناء عمومتهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وإخوانهم في اللغة من أهل اليمن، باستثناء ما دخل في حلف الفرس "اللخميين"، أو في حلف الروم "الغساسنة" وأولئك كانوا حربًا علىٰ الإسلام وفيهم كانت بداية الفتوحات الإسلامية. وقريش وقبائل العرب كانوا يجتمعون للحرب بالتنادي لا بأوامر نظامية، وهذا الأمر شديد الوضوح في خروجهم لبدر وأحد وغيرهما.



المبحث الثالث
عبقريات العقَّاد إنكار للوحي

إنكار الوحي من القضايا الرئيسية التي يحاول من لم يؤمنوا إثباتها. ويأتون من طرق عدة، من أهمها القول بأن شخص الرسول ﷺ كان بشرًا بإمكانات شخصية هائلة، وأنه استطاع ما استطاع بإمكاناته الشخصية، وتأتي أطروحات عباس العقاد، عن "الوعي الكوني" و "العبقريات" تحديدًا، في هذا السياق. يقول: كان النبي ﷺ عبقريًا.. صنع ما صنع بوعيه الكوني وعبقريته.

و"الوعي الكوني" من تأليف عبَّاس العقّاد يخالف به المتكلمين في نشأة الأديان، سواءً من الصالحين أم من الفلاسفة الملحدين. يرىٰ أنه هو الوسيلة التي تنشأ بها الديانة عند الإنسان، ويصرح بأن أرباب "الوعي الكوني" هم العباقرة.. أولئك الذين يمتلكون قدرات ومهارات نفسية خارقة تجعلهم يعقلون عن الله. وها أنا ذا أعرض عليك بعض الشواهد علىٰ أن عبقريات العقَّاد مرَّ من خلالها إنكار الوحي قصد العقاد أم لم يقصد.

النبي ﷺ ونابليون!!

عند العقَّاد أن النبي ﷺ عبقري من العباقرة، ولذا يقارن بينه ﷺ وبين العباقرة المعاصرين مثل نابليون؛ فكما أن نابليون عبقري فكذا كان محمدًا ﷺ؛ يقول: كلاهما يفاجئ عدوه، وكلاهما يعطي اهتمامًا للقوة المعنوية، وكلاهما يتجه للقضاء علىٰ القوة المالية، وكلاهما يهتم بالجيش ولا يُشغِل باله بالمدن إلا قليلاً، وكلاهما كان يشاور أصحابه، وكلاهما كان يعنىٰ بالاستطلاع والاستدلال، وكلاهما كان يعرف قيمة الدعوة والبيان، وكلاهما حاول أن يغتال معارضيه من أصحاب الأقلام، والنبي ﷺ لم يقتل أحدًا من أرباب الأقلام، فقط

قتل من سبوه بدون وجه حق، قتل من تعرضوا للنساء والحرمات، قتل مَنْ حرضوا القبائل علىٰ القتال، قتلهم فأحيا بقتلهم قومهم هم قبل غيرهم، ومَنَعَ الفتنة عن الناس، وهم نفر قليل جدًّا.. ثم يُفضِّل "أي العقّاد" النبيَّ ﷺ؛ إذ كانت عبقريته أقوىٰ!!

ويقارن بين الرسولﷺ وبين غيره من "عباقرة" الحروب في العصر الحديث، فهو ﷺ قد عرف سياسة الأوامر المغلقة، ويضرب مثلاً بـ"سرية عبد الله بن جحش" إلىٰ بطن نخلة، وكتمان الخبر علىٰ من حوله من أصحاب رسول الله ﷺ. يحاول رفع شأن النبي ﷺ من خلال مقارنته بمن كبروا في حسه من رؤوس الكفر في الواقع المعاصر.

وفي ص120، 121 من كتابه "عبقرية محمد"، وهو يتكلم عن تعدد الزوجات، يقول: "ضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابًا في الأطوار والعادات يشبه نشأة الدين في أيام الدعوة المحمدية ويعني به الثورة الفرنسية، وحضر انحدارًا في الأخلاق يشبه الانحدار الذي أصيب به العرب في أواخر عهد الجاهلية، وأسس دولة، ونظر في سن قانون وحاول ضروبًا من الإصلاح".

قلت: تأثير نابليون محدود جدًا، فقد كانت قدرات نابليون في القتال فقط، وفي سياق تكتيكي (إدارة معركة) ولم تكن أبدًا في سياق استراتيجي أو سياسي، وعمليًا فشل في إقامة حكم مستقر. ولم يكن نابليون هو مشعل الثورة الفرنسية، ولا هو من وقف وراء سياق التغيير الشامل في أوروبا أو فرنسا، ولم تشهد أوروبا تغييرًا حميدًا، بل خرجت من الاستبداد الديني والسلطوي إلىٰ الإباحية وأكل أموال الغير وقتلهم (الاحتلال). بل فشل نابليون في إقناع زوجته بشخصه،

والحبيب ﷺ، بعيد كل البعد عن حال نابليون، فقد أغاث الله به الأرض فاخضرت بعد جفاف وأنارت بعد ظلام، وما ظهر علىٰ يديه لم يظهر علىٰ يد بشر. قد كان وحيًا يوحىٰ.

النبي ﷺ وغاندي!!

ويقارن بين النبي ﷺ وغاندي.. عابد البقرة!!

فإن كان غاندي قد استعمل المقاومة السلبية فإن النبيﷺ، علىٰ حد قول عبّاس، استعملها يوم الحديبية!!

ولا أدري أي سلبية كانت يوم الحديبية، وقد خرج يريد بلد عدوه وقد وتَرَهُمْ في سادتهم وأشرافهم؟!! حتىٰ ظن المنافقون أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبدًا؟!

أي سلبية وقد بايع أصحابه علىٰ الموت تحت الشجرة ؟!!

أي سلبية وهو يشترط لنفسه أن يعود إليهم بعد عام ويقيم في ديارهم ثلاثة أيام، وقد عاد وأقام؟!

أي سلبية وقد استغل الصلح للتفرغ لمن حوله من اليهود والأعراب(1)، بل والخروج للروم ذات القرون وقد تترست بمئات الألوف من العرب والعجم؟!

أي سلبية وهو الذي دعا القياصرة والأكاسرة ومن وليهم للدخول في الإسلام؟، ولم يكن يعني هذا سوىٰ إعلان الحرب علىٰ من خالفه؟!!

يحسب العقَّاد أن استجابة النبي ﷺ لشروط قريش والرجوع من أمامهم يوم

---

(1) شهدت فترة ما بعد الحديبية نشاطًا عسكريًّا أكثر من غيرها؛ ففيها كان فتح خيبر وغزوة مؤتة وعدد من السرايا والبعوث في غطفان ومن حول المدينة من الأعراب.

الحديبية نوع من السلبية في المقاومة.. كأنه رضي بالهزيمة استجاشة لعطف الكافرين من قريش، أو مَن يسمع برجوع المسلمين من الحديبية وقد خرجوا آمِّين البيت الحرام. وهذا خطأ محض، فالحقيقة أن الحديبية، كلها، من تدبير الله عز وجل. بركت الناقة قبل أن يحدث أي شيء، وصرّح الرسول ﷺ أن الذي حبسها هو الله، سبحانه وعز وجل، كما حبس الفيل، والحديث في الصحيح: "وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ، فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا: خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، **وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ**»[1]. يقول شارح البخاري يروي ذلك من طريق آخر يصححه: "أي حبسها الله عز وجل عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها". وهاودهم للصلح مراعاةً لحرمات الله، وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»[2]. وكان ﷺ، سيّدًا مطاعًا له دولة، وتحتمي به قبائل مثل خزاعة، وتخافه قبائل أخرىٰ، ولم يكن كغاندي تحت وطأة عدوٍ (الإنجليز) يستجديه..!!

ووافق النبي ﷺ علىٰ بنود الصلح بوحي من الله، دليل ذلك: أنه حين تباطئ الصحابة رضي الله عنهم، في التحلل من الإحرام بالحلق أو التقصير أملاً في شيء تحدثه قريش ينقض الصلح و يدخلون به إلىٰ البيت الحرام؛ وبدا الأمر وكأنها حالةُ تمردٍ وعصيانٍ. والحال هكذا. لو كان الرسول ﷺ يسير بشيء من تلقاء نفسه..

(1) البخاري برقم 2529.

(2) البخاري برقم 2529.

لو كان يحسبها بعقله لقدَّم تلك الحجج العقلية التي بموجبها أمضىٰ الصلح علىٰ ما هو عليه من شروط تبدو جائرة، ولكنه لم يزد علىٰ القول بأنه رسول الله ﷺ ولن يضيعه.

كان النبي ﷺ يسير بالوحي في شأنه كله. في يوم الحديبية وفي غير يوم الحديبية. فكان الوحي هاديًا، وكان الوحي مراقبًا لما يصدر من النبي ﷺ. فدِلالةٌ وإملاءٌ، أو إقرارٌ، أو تصويبٌ[1]، وفي التنزيل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٤)، وفي التنزيل﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الأنعام: ٥٠)، (يونس: ١٥)، (الأحقاف: 9)، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ ﴾ (الأعراف: ٢٠٣)، وهذا ما فهمه الشيخ محمد عبد الله دراز، [2]، من صلح الحديبية، حيث رأىٰ في ذلك اليوم دليلاً علىٰ أن الرسول ﷺ كان يسير بوحي من الله وليس من تلقاء نفسه[3]. والعقَّاد يشبه كل الكمال وجملة الجمال بعبد البقرة غاندي!!

تدري ماذا يفعل؟

كبر في حسه غاندي فظن أن مساواة النبي ﷺ له رفع لشأن النبي ﷺ!!

---

(1) من أفضل ما اطلعت عليه رسالة دكتوراه بعنوان دفع الشبهات عن عصمة النبي ﷺ) للدكتور عماد الشربيني منشورة في مكتبة صيد الفوائد.

(2) محمد عبد الله دراز (1894م ـ 1978م) من أعلام القرن الماضي، وممن عاصروا العقَّاد وطه حسين، وممن حملوا الشهادات العليا من مصر ومن الخارج (السوربون)، وممن منَّ الله عليهم بحسن البيان، وآية ذلك فيما كتبت يداه وخاصة كتاب النبأ العظيم)، ولم يحظ بهذا الدوي الإعلامي كما العقَّاد وطه حسين وغيرهما.

(3) انظر: النبأ العظيم ص28، 29. ط. دار القلم. وفي الكتاب أدلة أخرىٰ كثيرة، قبل وبعد حديثة عن الحديبية، يثبت فيها بالعقل والشرع من الواقع ومن السيرة أنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين.

سبحانك هذا بهتان عظيم.

والعقَّاد متضارب كما هي عادته، وكما هي عادة من ينكر الحقائق البينة أو يحاول إنكارها، ففي كتابه "عثمان ذو النورين" يسمي الحديبية حملة(1)، وهذا يناقض استشهاده بها في "عبقرية محمد" ﷺ على أنها نوع من المقاومة السلبية.

من تلقاء نفسه !!

لا يعرف العقَّاد ملك الوحي.. الروح الأمين جبريلَ، عليه السلام، ولا يعرف توجيه الله للنبي ﷺ، وإنما يعتقد أن النبي ﷺ كان يفعل كل ذلك من تلقاء نفسه، بما أوتي من حاسة "الوعي الكوني" التي جعلته يفهم عن الله دون واسطة، يقول: "هذا الإلهام النافذ السديد في **تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذي أوحى إلى الرسول الأمي** قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحجر الصحي بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضي في مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذي لم يأت العلم بعده بمزيد؛ حيث قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»"(2).

وعندنا: (إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ. ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ. وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ) (النجم: ٣ – ٧).

---

(1) عثمان ذو النورين ص81.

(2) الأعمال الكاملة (1/ 75) ط. بيروت، وهو بهذا يسوي بين النبي ﷺ وبين إخناتون. انظر: رسالة الله ص40. ط. نهضة مصر.

ناقة النبي ﷺ:

وتعرَّض العقَّاد لدخولِ النبي ﷺ المدينة المنورة، وتنافسِ الأنصار علىٰ ضيافته ﷺ، فانظر ماذا يقول العقَّاد، يقول: "استقبلته الوفود تتنافس علىٰ ضيافته ونزوله، وهو يشفق أن يقدح في نفوسها شرر الغيرة بتميز أناس منهم علىٰ أناس أو اختيار محلة دون محلة.. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتىٰ بركت حيث طاب لها أن تبرك، **وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضىٰ فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها**، ولو أمنت في تلك الساعة علىٰ دخل وسوء طوية".

وقارِن بين كلام عباس وما ذكره ابن القيم عن ذات الحدث، يقول ابن القيم عن دخول النبي ﷺ المدينة: "ركب بأمر الله له، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، ثم ركب فأخذوا بخطام راحلته هلم إلىٰ العدد والعدة والسلاح والمنعة، فقال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، فلم تزل ناقته سائرة به لا تمر بدار من دور الأنصار إلا رغبوا إليه في النزول عليهم ويقول: «دعوها فإنها مأمورة»، فسارت حتىٰ وصلت إلىٰ موضع مسجده اليوم وبركت"(1).

فالنبي ﷺ ركب بأمر الله، والناقة مأمورة تسير بأمر الله، ولكن العقَّاد لا يرىٰ ذلك كله، ويتحدث من تلقاء نفسه.

خالد بن الوليد رضي الله عنه:

في يوم الحديبية تحدث خالد بن الوليد وأصحابه بأن للمسلمين صلاةً

---

(1) انظر: زاد المعادج3، ص50، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير ج 2، ص271، والحديث أورده ابن حجر في شرحه لحديث البخاري رقم 2134.

(العصر) أحب إليهم من أبنائهم وأموالهم[1]، وعزم خالد، وكان علىٰ رأس خيل قريش، أن يغير علىٰ المسلمين وهم يصلون العصر، فأنزل الله أمين الوحي جبريل يخبر النبي ﷺ بما يفكر فيه خالد وأصحابه، فصلىٰ النبي ﷺ بأصحابه صلاة الخوف[2](نصف يصلي، ونصف يحرس)، فعلم خالد أن الرسول ﷺ ممنوع من أذىٰ عدوه، وحاول خالد أن يغدر بالمسلمين بغير هذه الوسيلة.. كان عازمًا علىٰ الحرب سالكًا أسبابها، وعبَّاس العقَّاد لا يعرف هذا، بل يسند الفعل للنبي ﷺ، وكأنه ﷺ علم من تلقاء نفسه ما يُضمره خالد وأصحابه، يقول العقَّاد علىٰ لسان خالد بن الوليد: "هممنا أن نغير عليه، ثم لم يعزم لنا، **وكان فيه خيرة**، فاطلع علىٰ ما في أنفسنا من الهجوم به، فصلىٰ بأصحابه العصر صلاة الخوف"[3]. وقبل هذا النص بسطرين يقول: "وهمَّ خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان علىٰ المسالم، وقمعت فيه طمع الرئيس الموتور". وهذا تضارب؛ فلا ندري هل مُنع الرسول ﷺ من خالد بخيريته التي علم بها كما يدعي فيما ينقله عن خالد؟! أم أن خالدًا كفَّ شره بموجب حسن الخلق الذي يتمتع به كما يزعم العقَّاد؟!

وقد ورد بلفظ صريح أن جبريل هو الذي أخبر النبي ﷺ ، والرواية مشهورة نقلها الإمام ابن حجر العسقلاني في شرح حديث البخاري رقم "3817".

---

(1) صلاة الخوف جاء ذكرها في أكثر من غزوة منها ذات الرقاع، ومنها غزوة في جهينة، ومنها يوم الحديبية. والروايات كثيرة في البخاري ومسلم وغيرهما.

(2) مسند أحمد برقم 15986. وانظر: شرح ابن حجر لحديث البخاري رقم 3817، فقد جمع الروايات كلها التي في صلاة الخوف. وانظر: القرطبي والطبري وابن كثير في تفسير الآية 102 من سورة النساء.

(3) عبقرية خالد ص38.

وتعرض العقَّاد لإرسال النبي ﷺ لخالد بن الوليد إلىٰ سرية أكيدر صاحب دومة الجندل فقال: "ومن خبرة النبي ﷺ بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد: ستجده يصيد البقر.. فكان ما قال"[1].

وهو الوحي لا الخبرة.. هو الوحي الذي ينبئ النبي ﷺ بالغيب.

نعيم بن مسعود:

ويقول بأن النبي ﷺ ربما بلغ برجل واحد في هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة، وبالمكاتب والدواوين، وبدر الأموال، ويضرب مثالاً بنعيم بن مسعود، رضي الله عنه[2].

ويقف منفردًا كما هي عادته، فهو أول من قال: إن ما كان من نعيم بن مسعود بتدبير رسول الله ﷺ، وقد راجعت ما لا يقل عن عشرين مصدرًا للسيرة والحديث والتفسير كلهم علىٰ أن رسول الله ﷺ لم يزد علىٰ أن قال لنعيم بن مسعود كلمة واحدة: «إنما أنت رجل واحد؛ فخذِّل عنا ما استطعت»، وما درىٰ النبي ﷺ بشيء بعد ذلك. بل يصرح العلماء بأن ذلك كان من تدبير الله عز وجل؛ يقول ابن القيم: "ثم إن الله، وله الحمد، صنع أمرًا من عنده خذل به العدو وهزم به جموعهم وفلَّ به حدَّهم، فكان مما هيّأ من ذلك أن رجلًا من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر..."[3]. وابن هشام بعد سرد القصة يقول: "وخذَّل

(1) عبقرية خالد ص75.

(2) عبقرية محمد ص53، 55.

(3) زاد المعاد 3/ 240.

بينهم"[1]. ينسب الفعل لنعيم بن مسعود، والعقَّاد ينسب الفعل للرسول ﷺ، وكأنه خطط له ودبر، وكأنه هو النبي الذي جاء بنعيم بن مسعود وهو الذي رسم له الخطة وأعانه على تنفيذها.

يُعرِّف الرسول ﷺ!!

يسأل في بداية "عبقرية محمد": من هو الرسول؟! ويجيب: "هو الذي **له وازع من نفسه** في الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس؛ لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس **وازعًا يأمرهم بالحسن وينهاهم عن القبيح** ويقرر لهم حدودهم التي لا يتخطونها فيما بينهم".

يُعرِّف البلاغ المبين:

ويتكلم عن البلاغ، ويأتي بقول النبي ﷺ يوم عرفة: «**اللهم هل بلغت؟! اللهم فاشهد**»، ويدور حول المعنى ليعطي البلاغ معنى غير الوحي.. غير البلاغ عن الله، يفسر البلاغ بالإبلاغ. يقول: أسلوب من أساليب التعبير يستطيع به المتكلم أن يوصل المعنى من أقصر طريق وأوضحه، كأن البلاغ هو البلاغة في التعبير فقط. والذي أفهمه أن محمدًا ﷺ رسول الله ، ورسول تعني مرسلاً من عند الله برسالة، وفي التنزيل: (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ) (المائدة: 92)، (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ) (النحل: ٣٥)، (فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ) (النحل: ٨٢) (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا

(1) 2/ 230.

ﭐلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ) (النور: ٥٤)، (وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ) (يس: ١٧)، (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ) (التغابن: ١٢)، والبلاغ المبين هو: الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها[1]. فالرسولﷺ لم يأتنا فقط بألفاظ القرآن، بل بألفاظ القرآن وبمراد الله من هذه الألفاظ. وبالتالي فإن الصحابة ﭫ لم يتلقوا من النبي ﷺ فقط منطوق القرآن الكريم بل تلقوا اللفظ ودلالات اللفظ ورأوا نموذجًا عمليًا في شخصه ﷺ وطبقوا هم بين يديه، وفي الحديث عن جُنْدُبِ بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا[2].

وجاء في مسند الإمام أحمد من حديث أَبِي عبد الرحمن[3] قال: حدثنا من كان يُقْرِئُنَا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يَقْتَرِئُونَ من رسول الله ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَىٰ حَتَّىٰ يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ. ونحن ملتزمون بهذا النموذج العملي في شخص الرسول ﷺ وصحابته ﭫ ؛ قال تعالىٰ: (وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا) (النساء: ١١٥). والصحابة هم أحق من وصف بالإيمان، قال تعالىٰ: (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ

---

(1) السعدي عند تفسير الآية 17 من سورة يس.

(2) الحديث في سنن ابن ماجه برقم 60، والحديث صحيح رجالة ثقات كما جاء في شرح السندي لسنن ابن ماجه. والفتيان الحزاورة هم من قاربوا البلوغ.

(3) هو زيد بن خالد الجهني توفي بالمدينة 68 هـ. والحديث في مسند الإمام أحمد برقم 22384.

عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ) (التوبة: ١٠٠). وقال تعالىٰ: (فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ) (البقرة: ١٣٧). فجعل الله الهداية في مشابهة الصحابة فيما كانوا عليه، وَقَالَ تَعَالَىٰ: (لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا) (الفتح: ١٨).

عبادة النبي مصدرها الجاهلية!!

عند عبَّاس العقاد أن عبادة النبي ﷺ، لم تكن بتعاليم الوحي وإنما بما ورثه من آبائه وبيئته؛ يقول تحت عنوان "العابد": "تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه؛ فولد في بيت السدانة والتقوىٰ، وتقدمه آباءٌ يؤمنون ويوفون بإيمانهم، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه..."[1]. وفي كتابه "طلائع البعثة النبوية، أو مطلع النور"، أطال الحديث عن أخلاق أجداده، وذلك في سياق بيان دوافع البيئة ودوافع التكوين الذاتي الموروث من الآباء، يقول: وحدة قومية مهدت للبعثة (وحدة اللسان ووحدة الجنان، ووحدة عسكرية وسياسية في مواجهة الفرس والروم)، وصفات شخصية محورها الديانة والعفة وجدت في آبائه كلهم[2].

(1) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم، ضمن "المجموعة الكاملة: المجلد الأول: العبقريات الإسلامية"، (بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1984م)، ص142.

2 عباس محمود العقاد، مطلع النور، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، 2013).

وهذا جهل بما اشتهر، أو كذب، فَسَدَانَةُ البيت لم تكن في بني عبد المطلب، ولا في بني عبد مناف وإنما كانت في بني عبد الدار، وحديث رد مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة العبدري معروف مشهور[1].

وأكدَ عبّاس مرارًا علىٰ أن ما كان بأبي بكر هو خلق أصيل فيه، يقول: "أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه"، يقول: "يدري بوحي نفسه"[2]!!

ولم تكن عبادة النبي ﷺ يشبهها شيء من فِعال أهل الجاهلية، لا في قريش ولا في غيرها. أكانوا يركعون ويسجدون؟!، أم كانوا يصومون كما يصوم ﷺ ؟!، أوْ كان يحج ﷺ كما يحجون؟!

وفي باب "محمد السيد" يؤكد علىٰ أن **دافع ما كتبه تحت مسمىٰ "عبقرية محمد" ﷺ هو بيان البواعث النفسية التي توحي إلىٰ النبي ﷺ أعمالَه ومعاملاته!!**

لا يرىٰ أثرًا للوحي مطلقًا، فطريق الوصول هو التفكر، و"البواعث النفسية التي توحي إلىٰ النبي ﷺ أعماله ومعاملاته".

وحال سرده لحياة المسيح، عليه السلام، قدم بمقدمة طويلة عن موطن المسيح "الجليل أو فينيقية أو كنعان"، وكيف أنها كانت مدينة قوافل تجارية، وكيف أن المسيح، عليه السلام، ولد في بيئة عرفت التسامح وتنكرت للجمود، وحضرت الثورات، وحضر (أي المسيح، عليه السلام،) زوال مُلك مَلِكٍ وقيام

---

(1) الإمام ابن كثير، **السيرة النبوية: من البداية والنهاية**، (بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، 1395هـ/ 1976م)، ج3، ص،570، وانظر: زاد المعاد 3/ 356، والرحيق المختوم 1/ 386.

(2) السابق 1/ 228.

مُلْكٍ لملك آخر، يقدم ذلك كله وكأنه هو الباعث علىٰ ما ظهر علىٰ يد المسيح، عليه السلام، من تسامح، ومن ثورة علىٰ الأوضاع ورغبة جامحة في تغييرها[1].

وهذا الفرض يكذّبه العقَّاد نفسه، فقد تكلم عن جشع "العشارين" الموجودين في بيئة المسيح، عليه السلام، وتكلم عن طوائف يهود "الفريسيين" و"الصدوقيين".. طبقة المنافقين وطبقة الأرستقراطيين كما يسميهم، وفي الأحداث قرينة تكذبه، وهي بعثة يحي، عليه السلام، ذلك أنه يرتكز في كل ما يكتب علىٰ ضرورة الزمن، فيرىٰ أن كل نبي يبعث بوحي مما حواليه.. يسميه ضرورة الوقت، **ويرىٰ أن ضرورة الوقت هذه كبرىٰ الأمارات علىٰ النبوة**[2]؛ ويحيىٰ، عليه السلام، وعيسىٰ، عليه السلام، كانت أوصافهما متضادة، كما يحكي العقَّاد، أحدهما (يحيىٰ، عليه السلام) قوي شديد يعظ الملك وينهره، ويواجه الناس بقوة، والثاني (عيسىٰ، عليه السلام) هين لين؛ وأسأل: أيهما "أرسلته" ضرورةُ الوقت؟!!، أيهما كان أنسب للزمان والمكان؟!

لا أدري.. ولا إخاله يدري.. ولا إخالك، وإن فتشتَ طويلًا، ستدري، لأن الناس في كل زمان ومكان يحتاجون لشيء من الملاينة وشيء من العنف، فبعضهم يستقيم بهذا وبعضهم يستقيم بذاك، وقد كان مع موسىٰ، عليه السلام، الحبيب المحبب في أهله هارون عليه السلام، وجمع الله لنبيه وصحابته الصفتين (الرحمة والرفق والشدة): (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

---

(1) موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية 1/ 620. ط. دار الكتب لبنان.

[2] واتكأ علىٰ هذه المقولة (ضرورة الوقت) في حديثه عن بعثة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، وذلك في كتابه طوالع البعثة المحمدية (مطلع النور).

ٱلۡكَٰفِرِينَ) (المائدة: 54) (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ) (الفتح:29).

من أرسل عيسى، عليه السلام؟!

يبحث في نهاية كتابه "حياة المسيح / عبقرية المسيح"، عن مصدر ما جاء به المسيح، عليه السلام، ومن أين تعلم؟! ولا يجد مصدرًا، ذلك أن شخص المسيح، عليه السلام، لم يحظَ باهتمامِ مَن دونوا التاريخ من أتباعه، فحياةُ المسيح، عليه السلام، مجهولةٌ في كثير من مراحلها. لم يعثر العقَّاد علىٰ شيءٍ ينسب إليه علم المسيح، عليه السلام، فراح يُخمن.. راح يتكلم بالظنون!! يقول: **ربما** في كُتَّابِ القرية، أو من يوحنا المعمدان "يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام "، مع أن يحيىٰ بن زكريا، عليهما الصلاة والسلام، علىٰ ما تذكر الأناجيل وما يعترف به عبَّاس العقَّاد لم يُلْقِ إلىٰ المسيح إلا كلمات معدودات، ولو سلّمنا بأن الذي علمه هو يحيىٰ بن زكريا، عليهما الصلاة والسلام، فمن علم يحيىٰ، عليه السلام، ومن علم زكريا، عليه السلام؟!

لا تجد إجابة عند العقَّاد، فقط يريد أن يثبت العبقرية للمسيح، عليه السلام، وأنه تعلم من تلقاء نفسه أو ممن حواليه، ليقول: إن ما تم علىٰ يد المسيح، عليه السلام، ما هو إلا مجهود ذاتي.. عبقرية!!

ويذكر الخلوة في البرية علىٰ أنها أحد الأسباب لتهيئة النبي "أي نبي" للرسالة، يقول: "التي عالجها كل نبي قبل أن يصدع بما أمر الله به، وقبل أن يستيقن أن ما أُمر به من عند الله"[1]. "وإن فترة الخلوة في البرية علىٰ أثر ذلك

(1) موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية 1/ 726. ط. دار الكتب لبنان.

كانت فترة اعتكاف لاستخلاص الحقيقة من أعماق الضمير... وعندنا أنفس خبر يعين علىٰ التعريف بمنهاج الإيمان في نفس الرسول العظيم هو هذا الخبر عن تجربة الوحدة في البرية..."[1].

والذي حدث مع المسيح، عليه السلام، حسب روايات الأناجيل، يبين بوضوح أنها لم تكن خلوة كما يدعي العقَّاد، وإنما (حسب صريح روايات الأناجيل) تَسَلَّطَ الشيطانُ علىٰ المسيح، عليه السلام، أربعين يومًا.. ساح به في البرية يصعد به ويهبط، ويدخل به ويخرج، ويأمره وينهاه والمسيح يطيع الشيطان (حسب صريح روايات الأناجيل)!! هذا قولهم هم. وهم لا يجدون ما يعتذرون به، والأستاذ عبَّاس يدعي أنها كانت خلوة في البرية تعلم منها المسيح، عليه السلام!!

وفي مكانٍ آخر[2] يعترف عباس بأن الخلوة في البرية كانت امتحانًا من الشيطان للمسيح.. تسلّط عليه يختبره.. وفي هذا الموضع يتكلم كالمصدق لتسلط الشيطان علىٰ المسيح، عليه السلام!!

وفي كتابهم أن المسيح، عليه السلام، كان يتعلم في الهيكل علىٰ يد أحبار يهود، وكان يسبق باقي التلاميذ ممن يدرسون معه، والعقَّاد يقول: إنه راجع الكتاب (كتاب النصارىٰ) ألف مرة أو يزيد، فكيف لم يهتدِ إلىٰ هذه؟!، أتراه جهلها وهي من المواطن القليلة التي تتكلم عن شخص المسيح؟! أم تراه كتمها كي لا تنقض ما يذهب إليه من أن المسيح فطن من عند نفسه؟!

---

(1) موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية 1/ 728. ط. دار الكتب لبنان.

(2) كتابه "إبليس"، ص99.

بعد تأمل وإعادة النظر فيما كتب العقاد يتضح أنْ لا هذه ولا تلك، فالعقَّاد يكتب كل كتاب بذهن مستقل، بل كل فقرة في كتاب يكتبها بتفكير مستقل، لذا يكثر التضارب في كتاباته.

موسى، عليه السلام:

عند العقّاد أن موسىٰ، عليه السلام، علّمه بشر، يقول: "موسىٰ الكليم الذي تتلمذ علىٰ حمية نبي مدين قبل جهره بدعوته، وبعد أن جهر بهذه الدعوة في مصر وخرج بقومه منها إلىٰ أرض كنعان، ولكنهم أخذوها وسلموها فنقصوا منها ولم يزيدوها"[1]، وأن موسىٰ، عليه السلام، كان يرجع لنبي مدين (شعيب) من وقت لآخر حال معالجته لفرعون وبني إسرائيل بعد ذلك[2]؛ وفي مواضع أخر نجد ما يُبين بوضوح أن الرجل ينكر الوحي من الله لأنبيائه مثل قوله: "هنا موقف من المواقف التي نسميها موقف استلهام الغيب واستخارة الحوادث"[3]. وقوله: "ولم تكن النبوءة بإذن من ذوي السلطان أمراءً كانوا أم كهانًا أم شيوخًا مطاعين في القبيلة، **بل يمتلئ يقين الإنسان بالإيحاء إليه، فيمضي في تبليغ وحيه ولا يقوىٰ أحيانًا علىٰ كف لسانه**"[4].ومثل قوله: "وإن الإنسان المتهيئ للنبوءة كان يخشىٰ أن يسكت عن الدعوة متىٰ جاشت ضمائره بحوافزها وألحت عليه أيامًا بعد أيام"[5]. ومثل: قوله عن إبراهيم، عليه السلام:

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص83.

(2) عباس محمود العقاد، **طلائع البعثة المحمدية (مطلع النور)**، (القاهرة، هنداوي للنشر والتوزيع، 2013)، ص81..

(3) موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية 1/ 733 ط. دار الكتب لبنان.

(4) موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية 1/ 571. ط. دار الكتب لبنان.

(5) موسوعة عبَّاس العقَّاد الإسلامية 1/ 573. ط. دار الكتب لبنان.

"اختبر حياة الشرك، واختبر شعائره وفرائضه، وخلصت له الهداية بالخبرة والهداية الإلهية"[1]. ومثل: "أما ديانات الأنبياء فلا وجود لها في غير السلالة العربية، والاختلاف بينها وبين الديانات الأخرىٰ أن النبي لا يعينه أحد ولا ينبعث بأمر أحد، ولكنه **ينبعث بباعث واحد من وحي ضميره ووحي خالقه**"[2]. و"ووحي خالقه" تعني، حسب سياقات العقاد في أماكن عديدة، الإلقاء في النفس وليس إرسال جبريل، عليه السلام، عليه السلام.

وغاندي، أو نبي الهند كما يسميه عبَّاس العقَّاد، كانت عبقريته / نبوته وراثية "رضعها من ثدي أمه قبل أن يتعلمها من مرشدٍ إلىٰ أدبٍ، أو مبشرٍ بدين"، وفي موطن آخر -حال حديثه عن غاندي- ذكر أن ما كان بغاندي من عبقرية جاءه من الملة التي كان ينتحلها (الجينية)، فغاندي -عند العقَّاد- "ورث دواعي الثورة علىٰ «السيادة الغالبة» من عقيدة الجينية"[3]؛ فـ"عقيدة غاندي هي أهم شيء في بنيان شخصيته[4]. وهذا تردد وتخبط؛ فلا أدري "عبقرية" غاندي المزعومة من أمه أم من عقيدته التي كان يدين بها؟!

العقَّاد متردد، وأفردَ صفحات كثيرة في كتابه عن غاندي ليقول فيها بأن الذي صاغ هذا "النبي" هو عبادته للبقرة وقوله بالحلول والاتحاد والعودة للحياة الدنيا بعد الموت وأن الحياة سدىٰ فلا هم يحشرون ولا هم يحاسبون، والله يقول: (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا)

---

(1) إبراهيم أبو الأنبياء ص200.

(2) ص157، وأكد ذات المعنىٰ في ص179.

(3) عظيم المهاتما للعقاد ص71، وانظر ص83.

(4) ص 86.

(مريم:93).

وأسأل: ما بال العقيدة هنا هي صاحبة العبقرية وعند عباقرة الإسلام ليست كذلك؟!

وما بال عابد البقرة غاندي "نبيًّا" "عبقريًّا"؟!

ولا تظن أنها شطحة أديب، فإن العقاد يتحدث عن نبوة ورسالة انتشرت في الهند وأوروبا واعتنقها بعض الإنجليز في بريطانيا وبعض المفكرين في أوروبا، وإن كانت شطحة فالرجل مستخفّ باللفظ يطلقه علىٰ عابد البقرة غاندي، وعلىٰ بنيامين فرانكلين، وعلىٰ لورنس.

وأسأل: غاندي، بما يرويه عنه العقَّاد، شبَّ جبانًا يخاف أن يخرج من بيته، وإن خرج يخاف من ظله، وإن دخل يخاف الظلام في البيت، وغاندي لص مارس السرقة مرات، وغاندي عربيد لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، وغاندي في دراسته غبي بليد، لم يكن يحفظ إلا بشق الأنفس، وغاندي في وظيفته فاشل لم ينجح حتىٰ ارتبط بالإنجليز مساعدًا لهم يركلوه ويهينوه حتىٰ كادوا أن يحرقوه، وغاندي كان متناقضًا في وصاياه وأعماله[1]، ثم هو عبقري[2]، ومعجزة من معجزات الزمان! لم؟!، من أين؟!، وكيف يكون مثل هذا عبقريًّا في حسّ العقَّاد؟!

ويتكلم العقَّاد عن معرفة إبراهيم، عليه السلام، بعقيدة البعث بعد الموت، ويتعجب من ذلك، ولكنه يفسر هذا الأمر، ويزيل هذا العجب بأن إبراهيم، عليه

---

(1) ذكر تناقضه في ص91، وبرر ذلك وعلل له، وذكر الباقيات من صفاته في ترجمته له في بداية كتابه.

(2) الكتاب لا يحمل اسم العبقري، ويحمل اسمًا أكبر منه، ووصفه العقَّاد بالعبقرية ص70.

السلام، كان يتردد علىٰ مصر، **وربما** تعلم من كهان الوثنية هناك شيئًا عن البعث!!

ليس عندي تعليق، ولا أحسب أن عندك تعليق، فقط لتعلم أن الرجل لم يكن يرىٰ اتصال أنبياء الله بالله، جل جلاله، عن طريق ملك الوحي.

أثر العقيدة في حياة الناس عند العقاد:

يلحق بإنكار العقَّاد للوحي، بمعناه المتبادر للذهن وهو نزول الرسالة علىٰ رسول الله ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل، عليه السلام، يلحق بذلك إنكاره لأثر العقيدة في حياة الناس. وهذا توضيح من خلال "عبقرياته":

عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عندَ عبَّاس العقَّاد أنَّ الصفاتَ الطيبةَ الَّتي ظهرتْ في عمرَ، رضي الله عنه، مِنْ شخصهِ هو ولا فضلَ للدينِ فيها، فبعدَ ذكرهِ لعددٍ من خصالِ عمر ـ رضي الله عنه ـ الكريمةِ ينفي أنْ يكونَ ذلك بتأثيرِ الوحيِ، ويقولُ: "لا يقال: إنه قد كان يطيع أمرًا سماويًّا تحركت له نفسه"!!

ويَسندُ عدلَ عمرَ إلىٰ الوراثةِ لا للدينِ، ثم يذكرُ قصةَ عمرَ، رضيَ الله عنه، مع النصرانيِّ الذي لا يستطيعُ دفعَ الجزيةِ وكيفَ أنَّهُ رَحِمَهُ، ومع ابنِ الزنا اللقيطِ وقدْ فرضَ لهُ من بيتِ المالِ كما فرض لمن عُرفَ أبوهُ، ويَذكرُ رحمةَ عمرَ بالبهائمِ، ثم يقولُ معلقًا: "كانَ عمرُ يرحمُ في أمورٍ يحولُ فيها النفورُ الدينيُّ دونَ الرحمةِ عند كثيرين". وكأنَّ الرحمةَ بالذميِّ وابنِ الزنا اللقيطِ فضلٌ من عندِ عمرَ لا يقومُ به المتدينونَ. ثم يعلقُ قائلًا: "علمته الرحمة كيف يطيع الدين"[1]!!

---

(1) عبقرية عمر ضمن موسوعة العقَّاد الإسلامية ص329 ـ 340.

تدبر ماذا يقول عباس: الرحمةُ هي التي علمتْ عمرَ ـ رضيَ الله عنه ـ كيف يكونُ متدينًا!!

والعكسُ هو الصحيحُ؛ فالدينُ هو الذي علَّمَ عمرَ الرحمةَ!

نعم لا يرىٰ العقَّاد أثرًا للوحيِ في أخلاقِ عمرَ، ولا يرىٰ أثرًا للوحي جعلَ عمرَ يؤمنُ بالنبيِ ﷺ، بل يصرحُ العقَّاد قائلًا: "كان عمر مستقيم الطبع مفطورًا علىٰ الإنصاف، فلم يكن رجل مثله ليستريح إلىٰ فساد الجاهلية"(1).

وعندَ العقَّاد أنَّ عمرَ آمنَ بالنبيِ ﷺ؛ لأنه كان معجبًا بهِ، يقول: "عمر كان يحب محمدًا حب إعجاب، ويؤمن به إيمان إعجاب"(2)!! تمامًا كالذي قالهُ وهو يتكلم عن الصديق!!

ولستُ بحاجةٍ إلىٰ استحضارِ حالِ عمرَ بن الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ في الجاهليةِ وهو يشربُ الخمرَ، ويسعىٰ في أذية من آمن بالله ورسوله ﷺ، فأينَ كانت هذه الصفاتُ؟! أين كانت الرحمةُ بالمخالفِ؟! وأين كان العدلُ؟!

كلُّ ذلك من فضلِ اللهِ علىٰ عمر، رضي الله عنه حين أسلمَ، كلُّ ذلك علمتهُ العقيدةُ لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، ولكنَّ العقَّاد في كلِّ مرةٍ مع كلِّ "عبقري" يصرُّ علىٰ أنَّ مكارمَ الأخلاقِ في هذا العبقريِّ من عنده هو؛ ورثها من أمِّهِ وأبيهِ، وظهر شيءٌ منها في أختهِ وأخيهِ(3)!! والتالي يزيدُ الأمرَ بيانًا.

---

(1) عبقرية عمر ص383.

(2) عبقرية عمر ص438.

(3) يستثنىٰ من ذلك فقط غاندي الهندي عابد البقرة، فهو العبقري الوحيد ـ عند العقَّاد ـ الذي شكلته العقيدة مع العوامل الوراثية.

فراسةُ عمرَ رضي الله عنه:

يرىٰ المؤمنُ بنورِ اللهِ؛ فاللهُ قد جعلَ لعبادهِ المتقينَ نورًا يقذفهُ في قلوبهم، يفرقونَ به بين الحقِّ والباطلِ والصالحِ والفاسدِ[1]، قال اللهُ ـ سبحانه وتعالىٰ ذكره : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (الأنفال: ٢٩). وفي الصحيحِ: «**وَمَا يَزَالُ عبدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِىٰ بِهَا، وَإِنْ سألني لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**».

والفراسةُ من الإيمانِ، والمتفرسونَ في الناسِ هم المتوسمونَ الذين يَعتبرون بآياتِ اللهِ في خلقهِ؛ قالَ اللهُ: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰت لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) (الحجر: ٧٥)، وفي الحديث: «**إن لله عبادًا يعرفون الناسَ بالتوسمِ**»[2].

والنورُ الذي يقذفهُ اللهُ في قلبِ المؤمنِ يفرقُ به بين الحقِ والباطلِ هو "الفراسةُ"، ووجودُ الفراسةِ بالإيمانِ مما اشتهرَ في الدينِ، وتناثرَ ذكرهُ في الكتابِ والسنةِ وكتاباتِ وأحاديثِ فقهاء ووعاظ الأمةِ[3].

يفسرُ عباسُ فراسةَ عمرَ، رضي الله عنه، بأنها "تستند إلىٰ التقدير الصحيح

---

(1) راجعت أقوال عددٍ جمّ من المفسرين يدور المعنىٰ عندهم علىٰ هذا، والنص من أيسر التفاسير للجزائري، وحديث الترمذي: «**اتقوا فِراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**»، مع شهرته وانتشاره في المعاجم وكتب أهل العلم، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية، إلا أن أهل الاختصاص علىٰ أنه ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة للألباني(4/ 299) برقم 1821. وربما انتشر لأن المعنىٰ صحيح بشواهد أخرىٰ.

(2) للوقوف علىٰ عدد من الأحاديث في هذا الباب ، انظر: أضواء البيان تفسيره للآية 75من سورة الحجر. وانظر: الجامع الكبير للسيوطي برقم 1626، والسلسلة الصحيحة (2/ 437) برقم 1693.

(3) أكثر ابن القيم من الحديث عن الفراسة وخاصة في رسالة "الطرق الحكمية".

والظن المدعوم بالخبرة".

هكذا يفسرُ عباسُ فراسةَ عمرَ بن الخطابِ ـ رضي الله عنه ـ يذهبُ بها بعيدًا عن الوحي. ولنا أنْ نسأل: أينَ كانَ هذا التقديرُ الصحيحُ والظنُّ المدعومُ بالخبرةِ في حربِهِ للإسلامِ؟!

أكانَ نداؤه علىٰ ساريةَ بأنْ يلزمَ الجبلَ، وهو في المدينةِ بالحجازِ وساريةُ في خراسانَ (شرق إيران الآن) من "التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة"[1]؟!

أوْ كان إخباره الرجلَ بأن أهلَه قد احترقوا بعد أن عرفَ اسمَهُ ومسكنَه من "التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة"؟!

أوْ كان إخبارُه مَنْ حولَه بأنَّ هذا القادم عليهم كان كاهنًا في الجاهليةِ من "التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة"؟!

ثم لم يكن عمرُ وحدَه، فقد كان لعثمانَ وغيرِهِ مثلُ هذا[2].

وكانت فراسةُ عمرَ تستندُ للدليلِ أحيانًا، كما في اعتراضِهِ علىٰ الصلاةِ علىٰ ابن سلول[3]، وكان عمرُ يُخْطِئ أحيانًا كما حدثَ يومَ الحديبيةِ، فأينَ كانتْ الخبرةُ؟!

وقد مرَّ بالتاريخِ عظماءُ كثرٌ لم يكن لهم من الفراسةِ ما كان لعمر بن

(1) الحديث في السلسلة الصحيحة برقم 1110.

(2) ذكر ابن القيم عددًا غير قليل من فراسة عمر في كتابه الطرق الحكمية) ص40، وما بعدها.

(3) عبد الله بن أبي ابن سلول، زعيم المنافقين، وسلولٌ هذه أمه أو أم أبيه، وهي من خزاعة. وبيان ما ذكرته في النص أعلاه في تفسير الطبري للآية 84 من سورة التوبة.

الخطاب، رضي الله عنه، أو لغيرهِ من صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ. بل وعاشَ عمرُ قبلَ الإسلامِ ثلثَ قرنٍ من الزمنِ لم نسمعْ له عن موقفٍ واحدٍ يتفرس فيه.

أعمالُ عمرَ رضي الله عنه:

ومن الأدلةِ على أنَّ عبَّاس العقَّاد لا يرى أثرًا للوحي في حياةِ الصحابةِ، أنه حينَ يتعرضُ لأعمالِ عمرَ، رضي الله عنه، يعرضُها وكأنَّما قامَ بها من تلقاء نفسهِ! ففي عرضِه لمعاهدةِ عمرَ ـ رضي الله عنه ـ مع نصارى بيت المقدسِ "إيلياء" يقولُ: أعطاهم كذا، وأعطاهم كذا[1]، وكأنه يعطي من عنده لا بحكمِ الشريعةِ!!

وحينَ يأتي على أحكامِ أهلِ الذمَّةِ في الإسلامِ يبدي قليلاً ويخفي كثيرًا، ثم يعرض الأمر وكأنَّه من عندِ عمرَ، رضي الله عنه،.. كأنه هو الذي شرعه لهم[2]!!

وكلُّه من تشريعِ ربِّ العالمين، وأحكامُ أهلِ الذمَّةِ لها أبوابٌ مستقلةٌ في كتبِ الفقه يعرفها مَنْ له درايةٍ بالدينِ ممَن ينتسب للعلمِ، ولكنَّ العقَّاد يسندُ الفعالَ للعباقرةِ لا للوحي.

وإذا تعرَّضَ لإيمانِ عمرَ يقولُ: "له من قوته ومن إيمانه قدرتان"[3]؛ وأحيانًا يقول: الإيمان هو الضابط، ولا يصف كنْه هذا الإيمان، ويذكر أن الدعوةَ المحمديةَ أثرت في عمر، ولا يتكلم عن مدى هذا التأثير؛ ونسبة الدعوة للنبي ﷺ نوع من إنكار الوحي أيضًا، فكما مر بنا من قبلُ أنه يرى أن النبي ﷺ عبقري

(1) عبقرية عمر من الموسوعة الإسلامية ص393.

(2) عبقرية عمر ص396.

(3) عبقرية عمر ص352.

تكلم من عند نفسه أو عَقَلَ عن الله بنفسه، ولا ترىٰ ذكرًا لأمين الوحي جبريل، عليه السلام.

والعقَّاد في كل مرةٍ يرمي ببعض الجملِ التي تصلحُ للاعتذار عنه إن قطعتَها من النص، كقوله في عبقرية عمر: "الإيمان لَيَقوىٰ في نفوسٍ كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس"[1]، ولا تعرف عن أي إيمان يتكلم الرجل، ولكنك إن تتبعته وسألت عن التوحيد وعن الإيمان وجدت أن الرجل بعيد.. جدّ بعيد.. كما قد مر في فصول هذا البحث[2].

جندية عمر!!

يقول: فُطِرَ عمرُ علىٰ الجُنديةِ.. هي التي كانت تحركه، فهي مفتاح شخصيته، بزعمه، ثم ينثني إلىٰ كرائم عمرَ كلِّها فلا يتركُ منها شاردةً ولا واردةً إلا وينسبها للجُندية، يقول، مما لم أذكره من قبل، يسوي الصفوفَ لأنه جنديٌّ، والجنديُّ يحب النظامَ والتسويةَ!!

وهي سنَّةُ النبي ﷺ. تعلمها عمرُ من النبي ﷺ ، فقد كان النبيُّ ﷺ يأمر بها قبل الصلاة، ويصر عليها، حتىٰ إنه يسويهم بيده إن لم يَكْفِهم القولُ بلسانه، كان يسوي الصفوفَ حتىٰ كأنه يعدها ليسوي بها كما يقول النعمانُ بن بشير، رضي

(1) عبقرية عمر من الموسوعة ص361.

(2) ينتشر بين النخبة (نخبة المال والسلطة والثقافة) التمظهر بالإيمان والتقوىٰ وإنزال نصوص الكتاب والسنة علىٰ أشخاصهم ومن قاربهم، ومن الأمثلة علىٰ ذلك تفسير حسين الشافعي(أحد الضباط الأحرار في ثورة يوليو1952 بمصر) خطاب القرآن الكريم والسنة النبوية للمؤمنين علىٰ أنه ينطبق علىٰ حاله هو ومن آمن بثورة يوليو. فلفظ الإيمان حين يتحدث به نخبوي لابد أن تسترسل معه حتىٰ تعلم من يقصد، وماذا يقصد؟

الله عنه، ولا يرضىٰ بأن يبرز من أحدهم أي شيء من جسده خارج الصف[1].

وكان عمرُ يمشي كمشية الحبيب ﷺ[2]، ويعاقبُ من يعتدي علىٰ الطريق.. يحفظُ للطريق حقَّه كما أوصىٰ الحبيب ﷺ، ويعطي للمستحقين من بيت المال كما أمرت الشريعةُ وكما فعل أبو بكر وفعل عثمانُ، ويزهدُ في الدنيا فلا ينفق علىٰ مطعمه ومشربه، ودائمُ الفكر والمراقبة لله فلا يمزح إلا قليلاً[3]. والعقَّاد يجعلها كلَّها من عند عمر، رضي الله عنه، يقول: جاءته من صفة الجندية التي طبع عليها، وليست من تعليمٍ تعلمه؛ يقول: "ذلك هو السمت العسكري بالفطرة التي فطر عليها، **وليس هو السمت العسكري بالأسوة والتعليم**"[4]!!

حتىٰ أدبُ أم المؤمنين عائشةَ، رضي الله عنها، حين تركت التفضُّلَ في ثيابها بعد دفن أمير المؤمنينَ عمر، رضي الله عنه، في حجرتها بجوار رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، يفسره العقَّاد بأنه من مهابتها لعمر.. خافته بعد أن مات وهو في قبره[5]!!

---

(1) حديث النعمان عند مسلم برقم 660، والأحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة.

(2) عند أحمد برقم 8948: "مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَىٰ لَهُ، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ" ﷺ.

(3) العقَّاد يثبت لعمر الجندية المطلقة، وفي مكان آخر في عبقرية عمر وعبقرية خالد حال المقارنة بينهما يثبت أنه كان لعمر دعابة. وهذا صحيح، وفيه دليل علىٰ تضارب العقَّاد. ويستدل العقَّاد علىٰ جندية عمر بشرب عمر للخمر في الجاهلية، والحقيقة أن أهل الجاهلية كلهم كانوا يشربون الخمر إلا ما ورد عن حالات قليلة تعد عدًا ولم تمثل ظاهرة بينهم.

(4) عبقرية عمر من الموسوعة الإسلامية ص363.

(5) عبقرية عمر ص321.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخلاق الفروسية:

عند عباس العقاد أن الفروسية ـ هي مفتاحُ شخصية الإمام علي، رضي الله عنه، يقول: "هي التي كانت تمنعه أن يعملَ في السرِّ ما يزري به في العلانية"[1]!!، يقول: "كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها"[2]!! ويذكر أن إسلام عليٍّ "إسلام المسلم المطبوع الذي يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه علىٰ وحي بصيرته وارتجال مزاجه"!!

قلتُ: اشتهر عليٌّ، رضي الله عنه، بالعلم والزهد والورع، حتىٰ إنك إن أردت أن تستشهد علىٰ زهده وورعه وجدت أمثلة في قتاله، كتركه، رضي الله عنه، جندَ معاوية يشربون من الماء بعد أن غلبهم عليه، وكانوا قد منعوه وجنده من الماء قبل ذلك. وتَرَكَ لنا الإمامُ عليٌّ ثروةً بلاغيةً، يعرفها العقَّاد جيدًا ويتحدث عنها أحيانًا، تحث علىٰ الزهد في الدنيا، وكان في آخر أيامه يرجو الموت، ويناجي ربه: مللتهم وملوني. وقضىٰ علي، رضي الله عنه، ثلثي عمره تقريبًا لم يحمل سيفًا[3]، وأبرز ما في شخصيته هو عقلُه (علمُه وفطنته)، فكيف يقال: إن الفروسية هي مفتاح شخصيته؟! كيف يقال أنها هي التي تأمره وتنهاه؟!

إنما هي محاولة لإيجاد تَعِلَّةٍ تبعد القارئ عن فهم شخصية الإمام علي من خلال الوحي، أو تبعد الوحي عن صياغة شخصية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، إنه عبَّاس العقَّاد يبحث عن أي شيء يفسر به كرائم الممدوحين من الصحابة الأكرمين بعيدًا عن تأثير الوحي!!

---

(1) عبقرية علي من موسوعة العقَّاد الإسلامية ص700.

(2) المصدر السابق ص702.

(3) لم يقاتل علي ـ رضي الله عنه ـ إلا عشر سنوات مع النبي بعد الهجرة، وقليلاً بعد أن تولىٰ الخلافة.

وفاطمة الزهراء، رضي الله عنها!!

أغرب ما وجدت في إسلاميات عباس العقاد حديثه عن فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ وزوج علي بن أبي طالب وأم السبطين، رضي الله عنهم أجمعين، يقول "كانت مفطورة علىٰ التدين وراثة وتربية"(1)، ولا تحسب أنه يتكلم عن وراثة فاطمة، رضي الله عنها، للتدين من أبيها رسول الله ﷺ ولا أنها تربت علىٰ التدين من أبيها وأمها، بل من أجدادها خويلد، وأقرباء أمها في الجاهلية ورقة بن نوفل(2)؛ فعنده أن خديجة، رضي الله عنها، كآبائها، متدينة، وبالتالي بثت هذا التدين (الجاهلي الموروث) في بنتها الزهراء فاطمة. هكذا يتكلم عبّاس!!



(1) فاطمة الزهراء ص20.

(2) تكلم بهذا في بداية بحثه عن السيدة فاطمة الزهراء، وأعاده في نهاية بحثه.

المبحث الرابع
تطاول عبّاس العقّاد على الصحابة رضي الله عنهم

الصحابة رضي الله عنهم هم التطبيق العملي للشريعة الإسلامية، فالذي جاءنا من ربنا نص وتطبيق عملي للنص الشرعي في شخص الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم ولذا أمرنا بالإيمان بمثل ما آمنوا به، قال الله تعالىٰ: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (البقرة:137) وأمرنا الله باتباع سبيلهم، قال الله تعالىٰ: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا)(النساء:115).

والصحابة رضي الله عنهم هم حملة هذا الدين إلينا؛ ولذا فإن عامة من يطعن في الدين يتجه إلىٰ الطعن فيهم، ويأتون من طرقٍ شتىٰ. ولذا عدَّ الله الطعن في الصحابة طعنًا في الدين، قال الله، تعالىٰ ذكره،: (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ)(التوبة: ٦٥)، ونزلت هذه الآية الكريمة في نفرٍ من المنافقين استهزؤوا بالقرَّاء(فقهاء الصحابة)، قالوا: "أرغبنا بطونًا، وأجبننا عند اللقاء"[1]، فعدَّ الله السخرية من القراء سخرية من الله ورسوله[2]، مع أنهم لم يتعمدوا سبَّ الدين ولا التطاول علىٰ الله ورسوله ﷺ،

(1) انظر: تفسير الطبري للآية 65 من سورة التوبة.

(2) وهذا تفضل من الله، سبحانه وتعالىٰ وعز وجل، علينا، فله الحمد والمنة، جعل نفسه ورسولَه ﷺ والمؤمنين صفًّا واحدًا، كأنّ من يستهزئ بهم يستهزئ به - سبحانه وتعالىٰ وتقدس - وبرسوله ﷺ، ومثل هذا أيضًا قول الله تعالىٰ: (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ)(النساء: ١٤٢)، فهم لا يخادعون

ولم يكن قولهم جَدًّا، بل كان "حديث الركب" كما قالوا، ولم يكذبهم الله في دعواهم بأنه حديث الركب، بل لم يلتفت إلىٰ دعواهم هذه، وكأن السب للصحابة إن حصل يعاقب عليه صاحبه أيًّا كان دافعه[1].

وقد مرَّ بنا أن إعجاب عباس ببعض الصحابة إنما هو إعجاب بالعظمة لا بالبعد الديني المكون في أشخاصهم، فلم يكن يرىٰ هذا المتغير (تأثير الدين)، بل كان يسند فضائلهم لأشخاصهم كما مرَّ.

قد يقع أحدهم في مصدرٍ فاسد؛ فيخطئ مرةً، أو مرتين، علىٰ صحابي بعينه ظهر في خلاف بين الصحابة، وهنا نصحح الخطأ ولا نقف طويلاً مع المخطئ، ننصرف عنه بعد وعظه ونحن نردد: الكمال مفقود.. كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم ﷺ. ولا يظهر أن عباس من هؤلاء؛ بل ظهر بوضوح أنه لا يوقر إلا نفرًا قليلاً، ويوقرهم من وجهة نظر خاصة بعيدة عن كونهم صحابة النبي ﷺ، وينظر إليهم نظرة في منتهىٰ السوء، وهذا سياق عام، وليس نصًّا أقتطعه من كتابٍ. وأحاول الآن باختصار بيان بعض ذلك، علىٰ النحو التالي:

الله في الحقيقة، وإنما يخادعون المؤمنين، وعَدَّ الله خداع المؤمنين خداعًا له. فتدبر. وقفت علىٰ مثل هذا في كتاب "المنافقون" للشيخ عبد الرحمن الدوسري.

(1) وليس كل المتطاولين (الطاعنين) من أهل النفاق الأكبر المخرج من الملة، فقد كان حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، رضي الله عنهم أجمعين، ممن تكلموا بالإفك، ولم يرموا بنفاق، فالقصد في مثل هذه الأمور قصدان: قصد للفعل/ القول، وقصد لما وراء الفعل/ القول، والعبرة هنا بالثاني، وأيضًا يعرف القول بالنظر فيه وبالنظر في قائله وبالنظر في سياق حاله. انظر للكاتب: "التأويل أنواع"، و "القصد قصدان" بالصفحة الخاصة في صيد الفوائد، وغيرها.

أولاً: لخبطة وسوء خلق:

هذه بعض المشاهد التي يرسمها عبّاس للصحابة، رضوان الله عليهم:

* أم المؤمنين عائشة[1]، رضي الله عنها، ترفع نعل رسول الله ﷺ علىٰ عثمان، والصحابة يتصايحون ويتقاذفون في المسجد[2].

وأمُّ المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بزعم العقَّاد تَذكر عليًّا، رضي الله عنه، بما لا يصح أن يُذكر به متأففةً[3]. وكأن أم المؤمنين الطاهرة المطهرة حبيبة الحبيب ﷺ بذيئة رديئة تتكلم بالوقح القبيح، وكأن عليًّا، رضي الله عنه، به ما يتأفف منه ولو ادعاءً.

وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بزعم العقَّاد في حياة عثمان ضده وتقف بطريقه وتنصر أعداءه، وبعد وفاته تغير رأيها الأول بلا دليل تقدمه وتقف مع أنصاره ضد قتلته!!

وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، بزعم العقَّاد، تحرض الناس علىٰ عثمان، وتريد البيعة لابن عم أبيها طلحة بن عبيد الله، وتكره بيعة علي بن أبي طالب، ثم هي تحرض الناس للثأر من دم عثمان[4]!!

كأنَّ أحبّ الناس إلىٰ رسول الله، ﷺ، ... أمنا عائشة، رضي الله عنها، خفيفة تتحرك كثيرًا وسريعًا، وكأنها بين الرجال في السياسة. ولم يكن شيء من هذا،

---

(1) لم ألتزم في الترتيب أفضلية الصحابة رضي الله عنهم (أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلي...) وإنما راعيت الترتيب حسب الدلالة علىٰ المعنىٰ المقصود.

(2) انظر: كتاب الصديقة ص91.

(3) عبقرية علي ص692.

(4) الصديقة بنت الصديق ص96.

كانت في بيتها، رضي الله عنها، كما أمر الله، تصوم وتصلي وتعلم الناس ما كان يتلىٰ في بيت النبي من آيات الله (القرآن الكريم) والحكمة (السنة) كما أمرها الله[1]: (وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) (الأحزاب: ٣٤).

* وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، يكذب علىٰ خالته أم المؤمنين عائشة كي يلقىٰ عليًّا ويقاتله[2].

* وأبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يسبّ المهاجرين لعبد الرحمن بن عوف، ويتهمهم بأنهم أهل دنيا[3]!!

* وعلي، رضي الله عنه، يقول للأشعث بن قيس بزعم العقَّاد: "عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين: حائك بن حائك، منافق ابن كافر"[4].

سبٌّ لا تسمعه إلا في شجار بين أراذل!!

* وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عند العقَّاد "يحب الغناء جملةً، ويطيل الإصغاء إليه"، وظل يسمع الغناء حتىٰ مطلع الفجر، "ثم قال للقوم: إيه! قد طلع الفجر.. اذكروا الله"[5]. وجيء له برجل يغني في الحج فقال: "دعوه؛ فإن الغناء زاد الراكب"[6]، ويقول: "وكان يسمع الغناء ويغني في بعض

---

(1) الحكمة هي السنة، وكل نبي أرسله الله بكتاب وحكمة (سنة) شارحة لهذا الكتاب، قال الله:(وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) (آل عمران: ٨١).

(2) الصديقة بنت الصديق ص97.

(3) عثمان ذو النورين ـ المكتبة العصرية ص102.

(4) عبقرية علي ص703.

(5) عبقرية عمر ص371.

(6) عبقرية عمر ص490.

الأحيان، ولا ينهىٰ عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات"[1]. ويدعي أن عمر الفاروق، رضي الله عنه، يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء[2].

ثم إن العقَّاد في مكانٍ آخر يبني علىٰ هذا الباطل الذي يفتريه، فيذكر أن الغناء ما لم يكن مصاحبًا للخلاعة فهو حلال، ويستدل بما افتراه علىٰ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه[3]، ويذكر قصة عن ابن عباس وأبيه، رضي الله عنهما، دون سند أو مصدر، فيها عثمان ـ رضي الله عنه ـ يروح ويجيء، ويشكو من سوء خلق علي بن أبي طالب وأنه سبه واتهمه في دينه، ويشكو بني عبد المطلب كلهم، وفيها مروان بن الحكم بالباب يثني عثمان عما يريد، ويأمره وينهاه[4].

ولا تخرج من القصة إلا بأن آل بيت النبي ﷺ قوم فحش اللسان تمكن حب الدنيا من قلوبهم، فهم ينازعون عثمان الإمارة ويحقدون عليه، وأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ رجل ضعيف يحركه ابن عمه مروان بن الحكم. هذا ما تفهمه من القصة، وتجده مكررًا عند العقَّاد هنا وهناك.

* ويدعي أن أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، يصلي الجمعة يوم الأربعاء[5]، والعجيب أنه ينفي صحة الرواية بعقله، ولكنه يثبت ما

(1) عبقرية عمر ص490.

(2) عبقرية عمر ص490. والذي اختلف فيه الناس هو الإنشاد، بكلمات تستجيش العواطف للمكارم، وهذا بعيد تمامًا عن لفظ الغناء اليوم، فحين يقول أحدنا الغناء في سياق واقعنا المعاصر فإن شيئًا من المكارم لا يتطرق إلىٰ حسه.

(3) انظر: التفكير فريضة إسلامية ص902 وما بعدها.

(4) عثمان ذو النورين المكتبة العصرية ص63 وما بعدها.

(5) عبقرية علي ص713.

تنطوي عليه من أنه يقود قومًا بلا أخلاق أو دين منه ومنهم!!

* ويتكلم بكلام قبيح عن بني أمية، وأنهم أولاد حرام.. أو مستلحقون، وينقل عن دغفل البكري النسابة المعروف، ودغفل لم يلق أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وإنما جاء بعده بقرن ونصف من الزمن[1]!!

* ويذكر العقَّاد أن خالد بن الوليد كان مشغولاً بالنساء ويعتذر، ضمنًا، بأن ذلك كان وقت الراحة حين لا تكون حرب!! ثم يقرر بأن حب النساء وحب الغَزَلَ حالُ بني مخزومٍ كلهم لجمالٍ في نسائهم وشغف بالجمال في رجالهم بزعمه، يستدل علىٰ ذلك بقصة في كتاب الأغاني لا تصح، كما يذكر هو، ويستدل علىٰ شغف خالد وقومه بني مخزوم بالنساء بكلمة قيلت للسفاح الخليفة العباسي الأول عن جمال في نساء بني مخزوم، ويستدل بأنْ كان في بني مخزوم شاعر اشتهر بالغزل[2]!!

وأسأل: هل جمال النساء، إن كان، أمارة علىٰ الشغف بالأنوثة في إخوانهن وبني أعمامهن وبني عماتهن!!

---

(1) استدلُ علىٰ ذلك بأن دغفل النسابة المشار إليه، التقىٰ النبي ﷺ في مكة وهو يعرض نفسه الشريفة علىٰ القبائل، وكان غلامًا صغيرًا لم تكتمل لحيته، وكان مع سادات قومه بكر بن وائل، وتحدث مع أبي بكر. والقصة معروفة مشهورة. انظر: دلائل النبوة للبيهقي (2/ 297). وأمية لم يلتقِ عبد المطلب؛ فقد عاصر عبد المطلب ولده حرب بن أمية، ومعروف أن عبد المطلب تجاوز مائة عام. بمجموع ذلك (عُمْر عبد المطلب وعُمْر النبي ﷺ إلىٰ قبيل الهجرة حين التقاه دغفل) قلت: بينهما قرن ونصف من الزمن، وليت العقَّاد تدبر.

(2) عبقرية خالد ص173، 174.

وهل زواج المنتصر.. لاحظ زواج.. ممن هزمهم أمارة علىٰ حب النساء؟!، أم هي عادة في العرب يتألفون بها خصومهم؛ لما عند القوم للنسب من مكانة عالية؟! وقد سنَّها الحبيب ﷺ حين تزوج جويرية فأعتق قومها وصاروا جندًا للإسلام بعد أن كانوا حربًا عليه.

وهل يشهد عاقل علىٰ قصةٍ ما بأنها لا تصح ثم يستدل بها كما يفعل العقَّاد؟!

إنه العقَّاد.. يبني تحليلاته علىٰ الكذب البيِّن، ويلوي الحقائق ليصور حال هؤلاء الكرام وكأنهم كانوا شهوانيين، فقط لتتم صورة "البطولة" المزعومة التي يرسمها لخالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ... مقاتل.. محب للنساء.. محب للخضرة والفراش!!، ولا أدري كيف لم يقف علىٰ الروايات التي ذكرت حال خالد في ليله وهو يطيل الصلاة ويُسمع بكاؤه من بعيد!!

هكذا يتكلم العقَّاد عن صحابة رسول الله ﷺ، وقومٌ يمرون علىٰ هذا ويقولون: ذنبه في الاعتماد علىٰ الروايات الفاسدة.. يقولون: اشتبه عليه الدليل!!

وأقول: ما اشتبه عليه الدليل، بل يعرف أنه فاسد ويستدل به، ويعرف أن ثمّ صحيح عندنا وفاسد، ويعرف أننا ننقد المتن وننقد السند، فليس كل ما أسند وروي قُبِل. وأقول: هل رأىٰ هذا ولم يرَ الآيات والأحاديث في فضلهم؟!

ثانيا: طُلَّاب دنيا!!

أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يسبّ المهاجرين لعبد الرحمن بن عوف، ويتهمهم بأنهم أهل دنيا[1]، مع أنه في ذات المكان يعترف بزهد أصحاب

(1) عثمان ذو النورين ـ المكتبة العصرية ص102.

الثروات من الصحابة، رضوان الله عليهم، ويعترف بأن المال لم يكن مشكلة أبدًا عند الأغنياء أو عند الفقراء. ويروي، في ذات المكان، أحاديثًا عن زهد عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه.

ويذكر أن أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، حذّر عمر الفاروق من الصحابة[1].

وفي أكثر من مكان يذكر أن عمر رأىٰ من الصحابة، رضوان الله عليهم، حرصًا سيئًا وخلافًا لا يحسمه رأي واحد عند مماته[2].

ويدّعي أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا متنازعين مختلفين، حتىٰ إنهم لا يتفقون[3].

ويدعي أن من الصحابة من بايع عليًّا، رضي الله عنه، علىٰ أن يكون شريكًا له، ومنهم من خالفه متعللاً بقلة المشورة، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليًّا باسم عثمان، تمحلاً لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور كما يفتري عبَّاس العقَّاد[4].

ويدعي العقَّاد أن الصحابة الذين خرجوا يوم الجمل. طلحة والزبير تحديدًا. خرجوا من أجل "المقاسمة في الأمر علىٰ وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة، فيتولىٰ بعضهم العراق وبعضهم اليمن، ويصبح الأمر شركة أو (شورىٰ) بينهم وبين الخليفة"[5]. هذا نص كلامه!!

---

(1) عبقرية علي ص717.

(2) عبقرية عمر ص457.

(3) عبقرية عمر ص461.

(4) عبقرية علي ص717.

(5) عبقرية عثمان ص100.

وعند العقَّاد أن طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، كان ينافس أبا بكر وعمر ويحقد علىٰ عثمان وأعانه علىٰ ذلك الزبير بن العوام، رضي الله عنهم أجمعين[1]!!

وفي "عبقرية عمر" و"عبقرية خالد" كرّر العقَّاد مرارًا القول بأن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يريدون الانقلاب علىٰ عمر ولم يستطيعوا.

وجملة يقول: "إذا تركنا الحوادث جانبًا ونظرنا إلىٰ التاريخ في صدر الإسلام علىٰ أنه تاريخ قيم ومبادئ، فلنا أن نقول: إننا أمام فواجع مؤلمة، يود الناظر إليها لو يزوي بصره عنها"[2].

بل هو تاريخ مبادئ وقيم لم تشهد البشرية مثله، ويظهر طُهر هؤلاء الكرام الأفاضل السادة حين يقارنون بغيرهم، لا حين يقرؤون بمقدمات فاسدة وتضخيم لحوادث جزئية هي من أقل ما حدث بين البشر حين يختلفون، وإذا أردت أن تعرف فضل الصحابة في خلافهم وما حدث بينهم من قتال قارن حالهم وقت خلافهم بحال غيرهم وقت خلافهم، مثلًا: أوروبا في حروبها الداخلية.

ويقول: "ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقًا أن يتشعب ويستفحل، وكان الأنصار فيما بينهم مختلفين شيعتين كبيرتين ثم شيعًا صغارًا في كل من الشيعتين، وكذلك كان المهاجرين من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش؛ فإن بني هاشم علىٰ انفرادهم لم يجتمعوا بينهم إلىٰ كلمة، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرىٰ"[3].

---

(1) عبقرية عثمان ص34، 35.

(2) عبقرية عثمان ص30.

(3) عبقرية خالد ص82، 83 .

والعقَّاد يتبنىٰ رؤية **المستشرقين، فما ثمة خلافٌ بين المهاجرين والأنصار، ولا بين الأنصار أنفسهم، ولا بين المهاجرين بعضهم بعضًا، فضلاً عن بني هاشم ـ وغيرهم ـ فيما بينهم**. أين هذا الاختلاف في بطون الكتب الصحيحة؟!!، ما يذكره هو تقسيمات قبلية توجد بشكل طبعي بين الناس، والله يقول: "وَجَعَلۡنَٰكُم شُعُوبا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ" "الحجرات: 13"، هذا ابن فلان، وهذا ابن فلان، وهكذا، وفي تكملة الآية أن التفاضل بالتقوىٰ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13).

وما حدث بين الصحابة رضوان الله عليهم لم يشهد التاريخ مثله. فقد أخذ تنصيب أبو بكر دقائق معدودة من النقاش، أعني أمر السقيفة، وانتهي الأمر بإجماع.. تم تنصيب خليفة "حاكم" في دقائق معدودة، وهؤلاء يقولون فرق وجماعات وأحزاب.

وفي السيرة حادثان للخلاف؛ أحدهما بين المهاجرين والأنصار، وكان بفعل المنافقين، أعني حال العودة من بني المصطلق ونزل فيه قول الله تعالىٰ: (يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ) (المنافقون:8) والثاني بين الأنصار "الأوس والخزرج" وكان بفعل اليهود[1]، وكلا الحادثين انتهىٰ بكلمات معدودة. أفي هذا أمارة علىٰ الشقاق أم أمارة علىٰ أن الدين غالب علىٰ النفوس يوجهها؟!

(1) أعني ما فعله شاس بن قيس اليهودي، ونزل فيه قول الله تعالىٰ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ) (آل عمران: ١٠٠). انظر: تفسير الطبري وغيره للآية.

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تقرر خلاف ما يذهب إليه عبّاس العقاد في حديثه عن الصحابة رضوان الله عليهم، وهذه بعضها:

(مُّحَمَّد رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ) (الفتح: ٢٩)

(وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَة مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) (الحشر: ٩).

(وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيم) (الأنفال: ٦٣).

(وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآء فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا) (آل عمران: ١٠٣).

فكانوا "رُحَمَاء بَيْنَهُمْ"، "يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً" وألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانًا.

وكذبًا يصور العقَّاد الصحابة وكأنهم كانوا بالسيوف في الطرقات ينتظر كل واحدٍ منهم الآخر، ولولا حروب الردة ما اتحدوا!!. يقول: "فلما تحفزت البادية للوثوب علىٰ المدينة أحسّ المسلمون جميعًا أنهم فريق واحد، مهدد بخطر واحد، فاتفقوا بوحي البداهة التي لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض، ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة إلىٰ الوفاق، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار"[1].

(1) عبقرية خالد ص82، 83.

كذب على كذب.. ظلمات بعضها فوق بعض. يصور الحال، وكأن حروب الردة كانت حربًا بين أهل البادية وأهل الحضر "مكة والمدينة". توحدت البادية فتوحد أهل الحضر "مكة والمدينة.. قريش والأنصار".

وينقض هذا الكلام في نفس الكتاب (عبقرية خالد)(1)، بل في نفس السياق، وذلك حين ذكر أن أبا بكر، رضي الله عنه، استنجد بقبائل البادية المجاورة للمدينة في قتال المرتدين، بمعنى أن الحرب لم تكن بين بادية وحضر كما ادعى. وحين ذكر في مقدمة كتاب "عبقرية خالد" أن مكة كانت وسطًا بين الحاضر والبادية.

وينقض التاريخُ والواقعُ ما يذهب إليه عبّاس؛ إذ كان كثير من المرتدين من أهل اليمن وأهل العراق، وهم أهل ريف وزرع وكثير منهم عرف المدنية كما أقر هو في مقدمة الكتاب "عبقرية خالد" فلم يكونوا، إذًا، أهل بداية يقاتلون أهل مدن (الصحابة رضوان الله عليهم).

ماذا يفعل العقاد؟

يفسر السيرة بأفكار الغربين. يفسرها بمقولة "الصراع/ الخلاف/ النزاع/ الفردانية"، يظن أن الناس يتحزبون ضد بعضهم بعضًا: أحزابًا وأحلافًا داخل القبيلة الواحدة، وقبائلَ ضد بعضها، وحضر وبدو. وهذا التصور (الصراع) قائم في ذهنه وهو يتناول جميع أحداث السيرة تقريبًا(2)؛ فيذكر أن البادية كانت تنقم على قريش، وأن قريشًا كانت تنظر من علي لأهل الباديةِ والسوادِ (الريف)، ما

---

(1) انظر: ص86.

(2) لم يكتب العقاد بحثًا خاصًا في السيرة وإنما تناولها من خلال الأشخاص (العباقرة) وغيرهم.

أدىٰ إلىٰ تمرد البدو وحدوث الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان رضي الله عنه وكثير من صحابة رسول الله ﷺ بعد ذلك[1]!!

وهذا التفسير شديد الغرابة، فلم يقاتل الصحابةُ أحدًا دفاعًا عن قرية أو نسب، ولا كانوا هم قبيلة أو مدينة محددة، فقد كان بينهم صهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وبلال الحبشي، ومن مكة والمدينة والبادية (كبني سليم، وغيرهم)".

ولم يكن غير العقيدة محركًا للأحداث في القرون الأولىٰ، فكان الخلاف الأول علىٰ الخلافة، وهي قضية عقدية لا قبلية ولا عنصرية (عرب وعجم أو عبيد وأحرار)، والخوارج لم تكن دعوتهم قبلية أو تستبطن القبلية، فقد كانوا من قبائل شتىٰ، وكانوا من العرب ومن غير العرب (الأمازيغ مثلًا)[2]، وما يدعيه عبّاس بعيد جدًا.

وقد غضضت الطرف، طلبًا للاختصار، عن حديث عباس العقَّاد فيما يخص الصحابي الكريم معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، رضي الله عنهما، وفيه ما فيه من سوء الأدب مع صحابة رسول الله ﷺ، وهو مشهور كلما تكلم

---

(1) ذكر ذلك في عبقرية علي ، وينقد قوله هذا في تحليله للأحداث في كتاب "عثمان ذو النورين"؛ إذ إنه هناك يهون من أمر الفتنة ويذكر أنها حالة شغب صغيرة من الدهماء جرأهم سهولة الشكوىٰ وسرعة الاستجابة لها من قبل الخليفة، وسهل مهمتهم أن لم تكن حراسة عند الخليفة تمنعهم، ولم تكن ثورة يتمرد فيها الشعب أو عامة الرعية علىٰ الحاكم سخطًا، يخالف عامة من كتب في الخلاف الذي حدث في أواخر عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولأن الذين كتبوا كانوا من الذين في قلوبهم مرض فقد جاءت مخالفته لهم قريبة من الصواب.. يدافع فيها. علىٰ عادته في المخالفه.

(2) أحداث الخوارج في المغرب الأوسط الجزائر في بداية القرن الثاني الهجري مشهورة، وكان من قادتهم هناك في المغرب الأوسط (الجزائر) حفيد رستم القائد الفارسي، فلم تكن أبدًا دعوة قبلية.

أحدهم عن حال العقَّاد مع صحابة رسول الله ﷺ جاء علىٰ قوله في معاوية وعمرو، رضي الله عنهما؛ تركته لشهرته ولأقول بأن الأمر لم يكن مع معاوية وعمرو فقط وإنما مع عامة الصحابة. كان تصورًا عامًّا وافق فيه المتطرفين من المستشرقين، أو مرت تصورات المستشرقين من خلال عباس العقاد فكأنك حين تقرأ له إنما تقرأ لأحدهم.



المبحث الخامس

أثر العقيدة الإسلامية في صياغة الشخصية

نموذج توضيحي: خالد بن الوليد رضي الله عنه

هذا المبحث قراءة لشخصية خالد بن الوليد، رضي الله عنه، كحالة دراسة أحاول من خلالها بيان فساد ما ذهب إليه عبَّاس العقَّاد في عبقرياته من أن الصفات الشخصية هي التي صنعت هؤلاء الكرام الأفاضل من الصحابة، وتعمدت خالدًا لوضوح المثال فيه، ولأنه من الشخصيات الرئيسية التي تحدث عنها عباس بحماسة شديدة وحاول من خلالها بيان مفاهيمه الرئيسية (البيئة، والوراثة)، وأبدأ بعرض مشاهد ثم أعلق عليها مستنبطًا منها.

خرجت قريش، يوم أحد، بحدِّها وجدِّها وحديدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة والظعينة"[1] موتورين بآبائهم وإخوانهم، يُجعجع فرسانهم، وتضرب بالدف نساؤهم، وينادي بالثارات جميعهم؛ فيهم مائتا فارس علىٰ رأسهم خالد بن الوليد يواجهون سبعمائة رجل رجالاً حُسرًا. ولم يغنِ قريشًا أن بها خالد بن الوليد، ولم يستطع شيئًا إلا علىٰ غرَّة. وعلىٰ غرَّةٍ، والناس منهزمون قد انفضوا من مواقعهم واستدار بعضهم علىٰ بعض، لم يستطع خالدٌ بثلاثة آلاف أن يقتل أكثر من سبعين رجلًا!!

وفي يوم الحديبية خرجت قريش كخروجها يوم أحد أو أشد، ووقف خالد بن الوليد علىٰ رأس فرسان قريش، وما تجرأ علىٰ قتال رسول الله ﷺ وصحابته، وهم محرمون لا يحملون إلا سيف الراحلة، وقف يبحث عن وقت غفلة كي

(1) من سيرة ابن هشام في ذكر غزوة أحد.

يأخذهم علىٰ غِرَّة، كما فعل يوم أحد، وما استطاع شيئًا(1).

وفي العام التاسع من الهجرة عقدَ رسولُ الله ﷺ لواءً لخالد بن الوليد، رضي الله عنه، بأربعمائة وعشرين فارسًا إلىٰ إحدىٰ قرىٰ الشام (دومة الجندل) كي يغير علىٰ زعيمها أُكَيْدِرِ، فقال خالد: يا رسول الله، كيف لي به وسط بلاد كَلْبٍ وإنما أنا في أناس يسير؟! فقال رسول الله ﷺ: «ستجده يصيد البقر فتأخذه»(2). فتشجع خالد وصار إليه، فوجده علىٰ الحال التي وصف رسول الله ﷺ فأخذه.

وبعد عامين فقط تجمعت قبائل كلب ومن جاورها من بني تميم ومعهم أحياء قضاعة في ذات المكان (دومة الجندل)، فتحرك إليهم خالد في جيش أقل منهم بكثير وقضىٰ علىٰ مقاتلتهم في الحصون وحولها.

وبعد عامين فقط ركب خالد بن الوليد في نفر يسير، مقارنةً بعدد المخالفين، لمن ارتد من العرب من غطفان وبني حنيفة، ثم صار إلىٰ أهل العراق والشام فأتىٰ علىٰ قوىٰ الكفر كلها من عرب وفرس وروم في هذه البلاد، وما تردد في معركة، وما انهزم.

ما الذي حدث؟! خالد هو خالد، بل كَبُرَ سنه ورقَّ، بعض الشيء، عظمه، كيف يَهزم كل هذه الجيوش المتماسكة المجتمعة وكيف يقتل كل هذا العدد من البشر؟!

حدث تغير في المفاهيم والتصورات الداخلية التي تُحرِّك خالد بن الوليد،

(1) المغازي 2/ 582)، وذكره النووي في شرح حديث صالح بن خوّات عن صلاة الخوف في البخاري باب المغازي برقم 3817.

(2) ذكره الواقدي في المغازي 3/ 1025).

رضي الله عنه، ومن معه، نوع جديد من المفاهيم عن طبيعة المعركة وأسباب النصر والهزيمة، جعلت خالدًا يُحدث كل هذا الأثر في واقع الناس. وتدبر هذين الموقفين:

يوم اليرموك جاء أحدهم يخوفه من الروم وقد أقبلت كالسحابة السوداء تسد الأفق، تموج بهم الأرض كما يموج البحر، صوتهم كالرعد. كما يصف ابن كثير، رحمه الله، علىٰ لسان من حضر المعركة. والمسلمون قلة، جاء يقول لخالد: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال خالد: ويلك، أتخوفني بالروم؟! إنما تكثر الجنود بالنصر (أي من الله)[1]، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر (فرس خالد) براء من توجِّيهٍ وأنهم أُضعفوا في العدد.

وحين همَّ بعبور بادية الشام من العراق إلىٰ اليرموك تخوّف بعض من معه واستداروا كأنهم يريدون مراجعته في أمر العبور إلىٰ الشام، فقام فيهم خطيبًا بهذه الكلمات القليلة: "اعلموا أن المعونة علىٰ قدر النية، والأجر علىٰ قدر الاحتساب، فأروا الله من أنفسكم خيرًا يمدكم بمدده".

خالد بالأمس القريب، حين أُمِرَ بالتوجه لأُكيدر يحسب للعدد حسابًا وينادي: كيف وإنما أنا في نفر يسير؟!، وهو اليوم يلغي عامل العدد من أسباب النصر والهزيمة.

وخالد يتمنىٰ شفاء فرسه ليكون أنشط في القتال مقابل أن يزيد جيش الروم ضعفًا كاملاً.. أهذا خالد يوم أحد والحديبية؟!

وخالد يُقْدِمُ علىٰ عبور المفازة سالكًا طريقًا لا يظن عاقل أن جيشًا يسير به

(1) ما بين القوسين مني. والنص من ابن كثير رحمه الله في أحداث غزوة اليرموك.

وينجو، معتمدًا علىٰ أن "المعونة من الله علىٰ قدر النية"، فهو يتكلم بأن السبب المطلوب بذله لعبور هذه المفازة هو صدق اللجوء إلىٰ الله وحسن التوكل عليه، ويُذكِّر من معه بالاحتساب حتىٰ لا يضيع الأجر.

إن العامل الأساس هو الإيمان بالله(العقيدة)، وليس شخص خالد رضي الله عنه، فكما رأيت حدثت نقلات نوعية في شخصية خالد وما أنجزه بعد الإسلام، وهذا الأثر ازداد تدريجيًّا بثبات الإسلام في صدر أبي سليمان، رضي الله عنه وأرضاه.

ويزداد هذا الأمر وضوحًا حين نتذكر **أن الفتوحات الإسلامية لم تتأثر مطلقًا برحيل خالد عن القيادة، وإنما برحيل الجيل الأول من الصحابة ومجيء من كانوا أقلّ شأنًا في أمر الدين.**

إن النصر والهزيمة وطبيعة المعركة من حيث أطرافها له تصور خاص في الشريعة الإسلامية؛ ففي كتاب الله أن الملائكةِ تحضر القتالَ، تثبِّت الذين آمنوا وتلقي الرعب في قلوب الذين كفروا: (إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَان) (الأنفال: ١٢). وحضور الملائكة الكرام متوقف علىٰ تقوىٰ الله لا علىٰ عدد المسلمين وعتادهم، ولا علىٰ كونهم منتسبين للإسلام فقط؛ يقول الله: (بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰف مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) (آل عمران: ١٢٥).

وفي التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة العدد ليس من الأهمية بمكان؛ فـ (كَم مِّن فِئَة قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَة كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ) (البقرة: ٢٤٩)،

وفي التصور الإسلامي عن النصر والهزيمة أننا ستار لقدر الله سبحانه وتعالىٰ، فالله يُنفذِ من خلال عباده قدَرَه ويُظهر آثار صفاته، فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب المتاحة للنصر والله ينصر من ينصره؛ وفي الشريعة الإسلامية الهزيمة سببها الذنوب ـ ومن الذنوب التقصير في الأخذ بالأسباب المتاحة كما أمر الله، يقول الله تعالىٰ ذكره: (أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ) (آل عمران: ١٦٥)، (وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ) (آل عمران:).

والشاهد: أن هذه معارف يكتسبها أحدنا بقراءتها فقط إن صدَّق المخبر بها، أمَّا أن تستيقن منها وتصطبغ بها وتتعامل من خلالها فهذا لا تناله في يوم وليلة، فالشهوات والشبهات تتصارع مع خطاب الوحي ولا يستقر الإيمان في القلب إلا بعد حين، (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ) (فصلت:30)[1].

حين استقرت هذه المعاني في قلب خالد ورفاقه تغيرت أسباب النصر، لا من خالد ولكن من الصياغة الجديدة التي صاغتها العقيدة لخالد ورفاقه.

---

(1) وهذا مفهوم من المثل المضروب في سورة الرعد: (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآء فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ) (الرعد: ١٧)، ولابن القيم في مدارك السالكين وفي الداء والدواء كلام طيب عن النفس المطمئنة والنفس الأمارة، أو قوة الخير وقوة الشر، وكيف الطريق لغلبة الخير علىٰ الشر، لمن شاء أن يستزيد...

ودعنا نفترض الصورة العكسية: لو اجتمع ثلاثون ألفًا من مشركي العرب أمام ربع مليون أو يزيد من الروم والعرب هل ينتصرون؟!

لم يكن بين العرب من يفكر في جمع مثل هذا العدد تحت أي شعار ، وإن اجتمعوا ما كانوا ليفكروا في غزو الروم ، والشواهد في كل مكان تتحدث بأعلىٰ صوت عن تفرق العرب وتشرذمهم حين كانت هُويتهم قبلية وثنية، وعن تفرق الحضور في واقعنا المعاصر حين تخلوا عن الهوية الإسلامية، فالذي جمعهم وألف بين قلوبهم هو الدين ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(الأنفال:63)، اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) (آل عمران:103).

فتوحدهم من الله وحده وبالإسلام لا بشيء غيره.

ومن أوضح الشواهد علىٰ أن العقيدة هي المحرك الأساس للفرد والجماعة، وأن العقيدة هي التي صاغت خالدًا وغير خالدٍ من قادة الأمة، تلك الآيات التي تتحدث عن المنافقين حال القتال، مثل قول الله تعالىٰ: (سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (الفتح: ١١).

ومثل قول الله تعالىٰ: (إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيم) (الأنفال: ٤٩) (الأحزاب: ١٢).

ووجه الاستدلال من هذه الآيات الكريمات: أن من تكلموا في هذه الآيات

من المنافقين كانوا من جنس المسلمين، لا يختلفون عنهم من حيث الظاهر والبيئة التي نشأوا فيها. قد كانوا إخوة وأبناء عمومة، ومتشابهون في الصفات الخارجية ونبتوا جميعًا في مكانٍ واحدٍ من أبٍ واحد، ولكن خُلِعَ قلب هؤلاء حين جاء الخوف والسبب، الذي يذكره العليمُ الخبيرُ سبحانه، أنهم لم يؤمنوا..لم تستقر حقائق الإسلام في قلوبهم، لم يستيقنوا أن الفرار لن ينفعهم، وأنه لا عاصم من الله إن أراد بهم ضرًّا أو أراد بهم نفعًا، ولذا راحت جوارحهم تبحث عن مخرج حين جاء الخوف، كابن نوح، عليه السلام، (قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ) (هود:43)

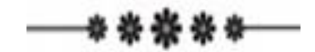
إشكال والجواب عليه:

يشكل علىٰ بعضهم أنه إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يتساوَ الجميع أو يرتبوا علىٰ حسب إيمانهم. هل برز أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وقتيبة الباهلي لأنهم الأكثر إيمانًا؟!

نقول: ليس الأمر كذلك، فالله سبحانه وتعالىٰ خصَّ بعض الأفراد ببعض الصفات، وفتح علىٰ بعضهم من أبواب دون أبواب، فالناس مختصون بطبعهم، هذا حَبَّبَ إليه الجهاد ورزقه بنية قوية وقوة في قلبه، وهذا حبب الله إليه طلب العلم وتعليمه، ورزقه عقلاً وعزيمة في الطلب، وهذا حبب الله إليه الإنفاق وأمده بالمال... وهكذا. والعقيدة تصل بالمرء إلىٰ أقصىٰ مستوىٰ؛ بل تصيغه صياغة جديدة بحيث لا يقارن بمثله الذي لم يتأثر بالعقيدة بعد؛ وقد يمد الله آحاد المشركين وجموعهم فيمكن لهم استدراكًا لهم وعقوبةً للمفرطين من المسلمين، (كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا) (الإسراء: 20).

وإلتزام الشرع يعطي البدن قوة، ومن الشواهد علىٰ صحة هذا الأمر ما ورد في صحيح مسلم من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ طلبت خادمةً لتساعدها في أمر بيتها فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَلا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟! إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، فَهْوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»[1].

ففاطمة رضي الله عنها تشتكي من الجهد المبذول في بيتها وتريد خادمة تحمل عنها، ويكون الجواب وِرْدٌ من الأذكار "يحصل لها بسبب هذه الأذكار قوةٌ علىٰ الخدمةِ أكثرَ مما يَقدرُ الخادم"[2]، أو بعبارة أخرىٰ: "أن الذي يلازم ذكر الله يُعطىٰ قوة أعظم من القوة التي يعملها له الخادم، أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أُموره أسهل من تعاطي الخادم لها"[3].



(1) متفق عليه.

(2) تحفة الأحوذي لشرح سنن الترمذي في التعليق علىٰ الحديث رقم 3330، كتاب الدعوات. وهو قول العَيْني، نقله صاحب التحفة.

(3) فتح الباري حديث رقم 4942.

الفصل السادس

العقيدة.. حرية التفكير..التقدم المدني

حال حديثه عن الفلسفة الإسلامية- أو الفلسفة القرآنية-، وحال حديثه- أيضًا- عن أن التفكير فريضة إسلامية، يتطرق العقاد إلىٰ أن أي عقيدة، وخاصة العقيدة الإسلامية، لا تمانع حرية الفكر ولا تصد عن سبيل المعرفة والتقدم؛ وباستقراء ما قدّم العقاد تحت مسمىٰ "الفلسفة الإسلامية" و "فرضية التفكير" نجد أنه يثير عددًا من القضايا، أهمها: قضية "التفكير" أو قل: "إعمال العقل"؛ وقضية "الجدال"؛ والثالثة: طلب العلم الحديث (المعرفة التقنية التي عند الغرب) كوسيلة من وسائل التقدم التقني (المدني)[1]. وأحاول في هذا الفصل تقديم مناقشة مختصرة لهذه القضايا بما يتفق مع **محور الكتاب الرئيسي، وهو بيان مخالفة عباس العقاد في إسلامياته لما أعرف أنه صريح الكتاب والسنة وصحيح المعقول، وأنه لم يكن ضمن سياق التجديد الإسلامي بل قرأ الشريعة بمقولات المستشرقين**، وقدمت ما عندي في هيئة سرد متواصل دون الدخول والخروج لنصوص العقاد كي تتضح الأفكار التي أواجه بها ما قدّم العقاد ورفاقه.

أولًا: التفكير أو إعمال العقل:

يذكر عباس العقاد أن "القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلىٰ وجوب العمل به والرجوع إليه[2]!!، وبالتالي يقرر أن العقل يجب

1 هذه القضايا تطرق إليها في عدد من كتبه، أهمهم كتاب "التفكير فريضة إسلامية"، وكتاب "الفلسفة القرآنية".

(2) التفكير فريضة شرعية، ضمن المجلد الخامس من موسوعة عباس العقاد الإسلامية ـ طبعة دار الكتاب

العمل به والرجوع إليه، ويؤكد علىٰ هذا الادعاء كثيرًا؛ ومن أمثلة ذلك قوله: "الواقع المكرر في هذه المسألة بذاتها أن حرية العقل لا يقيدها في الإسلام حكم مأثور علىٰ مذهب راجح أو علىٰ مذهب مرجوح"(1). ويذكر أن موانع العقل ثلاثة: عبادة السلف(2) التي تسمىٰ بالعرف؛ والاقتداء الأعمىٰ بأصحاب السلطة الدينية؛ والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية. ويدور حينًا حول التحذير من هؤلاء الثلاث (الأعراف، والسلطة الدينية، والسلطة الدنيوية) علىٰ العقل، ويذكر أن أخطرها اتباع السلف، ويحكي إجماع من كتبوا في التاريخ علىٰ ذلك(3)!! ويقرر أن الإسلام يأمر العقل بأن يستقل في مواجهة السلف ومواجهة الأحبار ومواجهة الاستبداد!!

وما يحاوله العقاد هو إثبات استقلالية العقل في فهم النصوص الشرعية؛ وبالتالي يصبح العقل مرجعًا نأوي إليه- وجوبًا- حال التحدث في القضايا الشرعية!! والأمر ليس علىٰ إطلاقه، فليس بصحيح أن الشرع يأمر بالرجوع للعقل في كل شيء. ففي المسألة تفصيل علىٰ النحو التالي:

لبنان ص829.

(1) التفكير فريضة إسلامية ص870. وفي كتاب "الفلسفة القرآنية، ص14 يدعي أن القرآن فقط كتاب عقيدة يخاطب الضمير، ويحث علىٰ التفكير ولا يتضمن حكمًا من الأحكام يشل حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم، ما استطاع حيثما استطاع"

(2) "عبادة السلف"، أو "عبادة الأسلاف" مصطلح شائع عند المنشغلين بالأديان، ويقصد به تعظيم الأولين بنحت الأصنام علىٰ هيئتهم أو شد الرحال إلىٰ قبورهم وإقامة الأعياد حولها، وهي إحدىٰ طرق الشيطان في تحريف الأديان، كما في قصة قوم نوح، عليه السلام.

(3) ص849، وهو شبه إجماع (إجماع موارب) يصدره بكلمة "يكاد".

يعمل العقل في ثلاث مناطق:

الأولىٰ: حال المخاطبة بالشريعة الإسلامية، وذلك حين نتحدث إلىٰ من لم يؤمن أصلاً.. أولئك الذين ندعوهم للإسلام ابتداءً. **والثانية**: في المناط[1]؛ **والثالثة**: في الدلالة والاستدلال.

حال الدعوة للإسلام، نكلم الناس بما يفهمون، ننطلق من الثابت المشترك بيننا وبين من نتحدث إليه؛ فأهل الأديان نتكلم معهم في أمارات النبوة، وهي قاسم مشترك متعارف عليه، نبين أن النبي ﷺ أنبأ بغيب وجاء بمعجزات أمارةً علىٰ اتصاله بمن يعلم السر وأخفىٰ ومَن هو علىٰ كل شيء قدير سبحانه وتعالىٰ وعز وجل. ومع العقلانيين نبدأ من أدلة عقلية نبرهن بها علىٰ أن الله هو المعبود وحده. ونحدث الجميع عن الله وما أعد للمتقين وما توعد به العاصين.. نحرك في النفس الميثاق الأول الذي أخذه الله علىٰ بني آدم، ونستنفر الفطرة التي فطر الله الناس عليها[2].

ولذا التوحيد قسمان: مقدمة (سبب) ونتيجة. والتسمية تدل علىٰ ذلك:
- توحيد الألوهية، أو التوحيد العلمي الخبري، أو المعرفة والإثبات. قول

---

(1) المناط عند العرب ما نِيطَ (تعلق) به الشيء، يقال: هذا مَنوط به أي مُعلق به، والأنواط المعاليق. القاموس المحيط ، (بيروت، مؤسسة الرسالة،1997)، ص892. وعند علماء الشريعة هو: "العلة التي نيط (تعلق) الحكم بها"، أو "العلة التي رتب الحكم عليها". شرح مختصر الروضة 3/ 233. والحكم الشرعي (التكييف الشرعي للفعل) يتعدد في ذات الشيء، فمثلاً فيما يتعلق بالنفاق: ليس كل أفعال النفاق تؤدي إلىٰ الكفر بالله، وبالتالي ليست كل أحوال المنافقين كفر بالله، وإنما بعضها معصية، وبعضها كبيرة، وبعضها كفر أكبر مخرج من الملة، فهذه أحكام متعددة تتعلق بمناطات متعددة، والغائي منها (أقصاها) وهو هنا الكفر الأكبر المخرج من الملة.

(2) يرتكز الخطاب الدعوي علىٰ تعريف الناس بربهم، وما أعده لهم من ثواب وعقاب في الدنيا والآخرة.

القلب (الإدراك والتصور).

- وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو توحيد القصد والطلب. وهو عمل القلب (إرادته)، وعمل الجوارح، وتتفق مع ما في القلب من إرادة وجودًا وعدمًا، قوةً وضعفًا إلا أن يأتي مانع كإكراهٍ ملجئ.

فجُعِل توحيد الربوبية والأسماء والصفات سببًا لتوحيد الألوهية، أو مقدمةً له. وهذا كثير في القرآن الكريم؛ من ذلك قول الله تعالىٰ: (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ) (البقرة: ٢٥٥). بدأت الآية الكريمة بجملة خبرية تقريرية (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ).... لا معبود بحق إلا الله، أو لا يستحق العبادة إلا الله، ثم اتبعت هذه الجملة الكريمة بعدد من الجمل تبين سبب أحقية الله سبحانه وتعالىٰ للتفرد بالعبادة، وكأن سائلًا يسأل: لماذا؟! فأتت الآية بعدها تعلل هذا الخبر(ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ)، (لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ)، (لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ)، (مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ)، (يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ)، (وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ)، (وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ)، (وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيم).

ومن ذلك، كذلك، قول الله تعالىٰ: (قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) (فصلت: ٩)، والمعنىٰ أن من خلق السموات والأرض في يومين لا يُكفر به ولا ينبغي أن يُجعل له أندادًا.
ومثله قول الله تعالىٰ: (رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن

دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ (الكهف: ١٤)، والمعنىٰ لأنه ربنا رب السموات والأرض؛ لذلك لن ندعو من دونه إلهًا.

والمنطقة الثانية التي يعمل فيها العقل هي المناط. أو المحل الذي يتنزل عليه الحكم الشرعي، أو العلة المؤثرة في الحكم. مثلاً: الحركة الكثيرة تبطل الصلاة.. هذا حكمٌ شرعي لا يعمل فيه العقل، لا يقال: لماذا الحركة الكثيرة تبطل الصلاة؟!، وإنما يعمل العقل في المناط.. في كون الحركة كثيرة أم لا؟! هل تحركتُ كثيرًا أم لم أتحرك كثيرًا؟! وبالتالي تبطل صلاتي أم لا؟!

ومثلاً: خروج شيء من أحد السبيلين ينقض الوضوء.. هذا حكم شرعي لا يعمل العقل فيه، وإنما يعمل العقل في تحقيق المناط: هل خرج شيء من أحد السبيلين أم لا؟! وبالتالي نقض الوضوء أم لا؟!

ومثله: كل مسكر خمر، وكل خمر حرام[1].. هذا حكم شرعي لا دخل للعقل فيه، وإنما يعمل العقل في تحقيق المناط: هل شرب خمرًا أم لا؟!

ومثله: حين نقول: حرَّم الله الزنا وأوجب الحد علىٰ من زنا. هذا حكم شرعي لا يعمل العقل فيه. وإنما يعمل العقل في الحادث محل النظر ليتبين أهو زنا أم دون ذلك!! وبالتالي هل يُحد أم لا؟! وما نوع الحد؟! رجم أم جلد وتغريب؟!

وما يتحدث عنه العقّاد هو مناقشة الأحكام الشرعية، يفعل ما يفعله العلمانيون. وما فعله إبليس قبلهم. وذلك أن مناقشة الحكم تشكيك في المُشَرِّع سبحانه وتعالىٰ ذكره. ومن يناقش الحكم نخاطبه بالتوحيد من جديد.. نبين له أن الله هو العليم،

(1) الحديث عند مسلم رقم 3733.

الحكيم، الخالق، الرازق، القدير، ومن خلق ورزق وعلم كل شيء وقدر علىٰ كل شيء، واتصف بكل الكمال وجملة الجمال، قوله الحق وله الحكم.

ونبين له أن الله أرسل إلينا رسولاً بلساننا ليبين لنا ما أراده منا، وقد كان. ونبين له أن العقل عاجز، وأنه إذا تعارض عقل إنسان مع صريح الشرع فالله أعلم وأحكم: (قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ) (البقرة: ١٤٠)؟!

ومناقشة الحكم من جنس مناقشة إبليس لأمر الله تعالىٰ له بالسجود، ولا يجدي التأويل في هذا؛ فإبليس كان متأولاً: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ) (الأعراف: ١٢)، (قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينا) (الإسراء: ٦١). عرَض الحكم علىٰ عقله فما استقام عنده، لم ير أن الحكم منصف؛ لذا ردَّه وأبىٰ الامتثال له، وكان متأولاً.. كانت له وجهة نظر، بلغة القوم. ولم يصرِّح إبليس بأنه يريد الكفر، بل رد الأمر متأولًا[1].

والمنطقة الثالثة التي يعمل فيها العقل هي: الدليل والاستدلال؛ حيث يعمل العقل في طلب الدليل علىٰ الحكم، أو في الحكم علىٰ الدليل: هل هو صحيح أم غير صحيح؟، وذلك إن كان من أهل العلم؛ ويعمل في مدىٰ دلالة الدليل علىٰ المراد منه، وفي الاستدلال به هل هو صحيح أم لا؟!

تقول: الحركة الكثيرة تبطل الصلاة. فيجيب: ما دليلك؟! فتقول كذا. فيجيبك معارضًا بدليل آخر، أو ناقضًا للدلالة، أو ناقضًا لاستدلالك بالحديث معرِّضًا بعقلك أو بعلمك، أو مُعْرضًا عنك ذاكرًا لما يريد. وفي هذه المنطقة يظهر عامة الاختلاف بين أهل الفقه في تحقيق المناط، وفهم الدليل، وما يتعلق

(1) انظر للكاتب: "التأويل أنواع" بالصفحة الخاصة في صيد الفوائد وطريق الإسلام.

بالدلالة والاستدلال عمومًا.

وعبّاس العقّاد بعيد عن هذا كله، الذي يتكلم عنه العقاد هو الهوىٰ، الذي يعمل في الدليل ليأتي به علىٰ هواه، يقول الله تعالىٰ: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ) (الزمر: ١٨)، "فأصحاب العقول هم أهل الدين الصحيح، وأهل الدين هم أصحاب العقول، ولهذا كان السلف لا يسمون المخالفين بالعقلانيين، بل كانوا يسمونهم بأهل الأهواء". وقد رأينا كيف يستدل عبّاس بالضعيف ويترك الصحيح، ورأينا كيف يركب الكذب وصولاً إلىٰ ما يريد، وكيف أنه يأخذ النصارىٰ بقولهم وهو يعلم أن القرآن الكريم يخطّئهم في قولهم. وكيف يعرض عن قول من نصحوه بل ويُعرِّض بهم. إنه الهوىٰ وليس العقل أبدًا.

الانفراد بالنص:

يسعىٰ العقاد –والذين يوافقهم من المستشرقين– إلىٰ إثبات استقلالية العقل (أي عقل) في فهمه لنصوص الشريعة دون الخضوع لفهم جيل الصحابة والتابعين. **هذه هي القضية المحورية**. يتحركون إليها من عدة طرق، بعضهم عن طريق التشكيك في السنة النبوية، وبعضهم عن طريق تقسيم السنة النبوية إلىٰ تشريعية وغير تشريعية، وبعضهم عن طريق ذم الصحابة والتابعين ومن حمىٰ الله بهم هذا الدين من الأئمة الأعلام المجددين؛ ويمكن التعبير عن هذه القضية ب "الانفراد بالنص". ولذا علينا أن نطرح سؤالًا: ما هي دلالة النص؟

يطلق لفظ "النّص" علىٰ منطوق الوحيين الكتاب والسنة الصحيحة. وهذا الأمر فيه نظر؛ إذ إن منطوق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يمكن بحال

أن ينفصل عن سياق عام يشمل فعل النبي ﷺ وفعل الصحابة رضوان الله عليهم، أو قل: سبب نزول النص وكيفية امتثال النبي ﷺ وصحابته له. وذلك أن الرسول ﷺ لم يبلغنا فقط منطوق القرآن الكريم ، الذي يقال له النص في عرف القوم، وإنما بلغنا القرآن ومراد الله من كلامه، وهذا هو معنىٰ البلاغ المبين المذكور في سبعة مواضع من كتاب الله؛ قال تعالىٰ: (وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (المائدة: ٩٢)، وقال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (النحل: ٣٥)، وقال تعالىٰ: (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (النحل: ٨٢)، ، وقال تعالىٰ: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (النور: ٥٤)، وقال تعالىٰ: (وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (العنكبوت: ١٨)، وقال تعالىٰ: (وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (يس: ١٧)، وقال تعالىٰ:(وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) (التغابن: ١٢).

والبلاغ المبين هو: الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها[1]، أو هو الَّذِي يُبِين عن معناه لمن أَبْلَغَهُ[2]، ويفهمه من أُرْسِلَ إليه[3]. بمعنىٰ أن الرسول ﷺ لم يأتنا فقط بألفاظ القرآن، بل بألفاظ القرآن وبمراد الله من هذه الألفاظ. وبالتالي لم يتلق الصحابة رضوان الله عليهم منطوق آيات القرآن الكريم ثم

(1) السعدي عند تفسير الآية 17 من سورة يس.

(2) الطبري عند تفسير الآية 35 من سورة النحل.

(3) راجع ـ إن شئت ـ تفسير الطبري للآية 35 من سورة النحل.

ذهبوا يفهمونها كما شاءوا.. كلا، بل كانوا يتعلمون الإيمان ثم يضبطون ما فهموه بالقرآن الكريم كما جاء في الحديث عن جُنْدُبِ بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا[1]؛ وجاء في مسند الإمام أحمد من حديث أَبِي عبد الرحمن[2] قال: حدثنا من كان يُقْرِئُنَا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يَقْتَرِئُونَ من رسول الله ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَىٰ حَتَّىٰ يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ.

والمراد: أن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا "نصًّا" (منطوقًا) وتلقوا معنىٰ، وهذا كله هو ما نحن ملزمون به ـ لكوننا تابعين لهؤلاء الكرام ـ قال تعالىٰ: (وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا) (النساء: ١١٥). وقال تعالىٰ: (فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ) (البقرة: ١٣٧). وبدهي أن الصحابة هم أحق من اتصف بوصف المؤمنين في هذه الآيات؛ ذلك أن الله عز وجل شهد لهم بالإيمان في آيات أخرىٰ من كتابه[3]؛ قال تعالىٰ: (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ

---

(1) الحديث في مقدمة سنن ابن ماجه، حديث رقم 60، والحديث صحيح رجاله ثقات كما جاء في شرح السندي لسنن ابن ماجه. والفتيان الحزاورة هم من قاربوا البلوغ.

(2) هو زيد بن خالد الجهني، توفي بالمدينة عام 68ه. والحديث في مسند الإمام أحمد برقم 22384. ولأبي عبد الرحمن السلمي التابعي المشهور حديث بنفس المعنىٰ أحفظه ولكني لم أستطع تخريجه لذا أمسكت عنه.

(3) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية "4/ 3".

ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) (التوبة: ١٠٠). وَقَالَ تَعَالَىٰ: (لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح: ١٨).

والخلاصة أنه لا بد من إعادة تعريف النص الشرعي علىٰ أنه: منطوق القرآن كما فهمه الصحابة، رضوان الله عليهم، وأقرهم عليه الرسول ﷺ، ولا يجوز لأحد أن يأخذ آية من كتاب الله ثم بعد ذلك يفهمها ويطبقها بغير الفهم والتطبيق الذي كان عليه صحابة النبي محمد ﷺ؛ إذ إنه من المعروف أن "العمل المتوارث المستمر من عصر الصحابة، رضي الله عنهم، فمن بعدهم حجة شرعية يجب اتباعها، وتلقيها بالقبول"(1). فمن أراد أن يناقش النص فليناقشه في سياقه الكامل الذي يشمل دلالته الشرعية المأخوذة من فعل الصحابة رضوان الله عليهم. أما القفز إلىٰ النص (منطوق القرآن أو السنة) مباشرة وفهمه بمقدمات عقلية أو لغوية أو عرفية خاصة ببيئة المتكلم فهذا مما لا يقبل بحال. ومن فعلَ هذا نرده بأننا تلقينا وحيين؛ كتابًا وسنة، وقد كان هناك قوم شاهدوا رسول الله ﷺ وسمعوا منه ورأوا من أحواله وأفعاله ما يجعلهم أكثر الناس دراية بمراد الله من خطابه؛ فليس السامع الغائب كالسامع الشاهد، ومات رسوله ﷺ وهو راض عنهم، وفوق ذلك كله زكاهم خالقهم العليم الخبير سبحانه وتعالىٰ ذكره، وأمرنا باتباع سبيلهم؛ كما مرّ بيانه أكثر من مرة في هذا البحث.

ولذا لا يصح التعامل مع منطوق القرآن والسنة بغير السياق العام الذي نزل فيه، أعني التطبيق العملي المتمثل في فعل الصحابة رضوان الله عليهم ومعهم

---

(1) حراسة الفضيلة للشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد عند الكلام علىٰ "المسألة الثالثة: أدلة فرض الحجاب علىٰ نساء المؤمنين".

إمامهم محمد ﷺ. وأضرب مثالاً أبين به قولي: آيات الحجاب، وهي مما يكثر حولها دندنة القوم، أعني قول الله تعالىٰ: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ) (الأحزاب: ٥٣)، وقول الله تعالىٰ: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) (الأحزاب: ٥٩)، وقول الله تعالىٰ: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ) (الأحزاب: ٣٣)، وقول الله تعالىٰ: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) (النور: ٣١).

ولا نستطيع أن نفهم هذه الآيات إلا من خلال السياق الذي نزلت فيه، وهو: المنافقون علىٰ نواصي الطرقات وبالأزقة يتحرشون بالسافرات من النساء- وهن الإيماء غالبًا- حين يخرجن ليلاً لقضاء الحاجة؛ وعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يطالب بضرب الستر بين الرجال والنساء كي لا يرىٰ الرجال أبدانهن، وهن العفيفات الطاهرات أمهات المؤمنين ونساء الصحابة رضي الله عنهن أجمعين، وكي لا يرىٰ النساء أشخاص الرجال، وهم صحابة النبي الكرام، نزلت الآيات الكريمات في هذا السياق.. وقاية للنساء من المنافقين وستر كامل في مجتمع عفيف متعفف مجهد مجاهد لا يظهر في ترف ولا شبق. ونزلت الآيات فشق النساء مروطهن وتخمرن بها[1]، وأصبحن كالغرابيب لا يُعرفن ولا يرىٰ منهن شيء لا بوصف ولا بكشف، ولا تطمع فيهن عين ذي

(1) في ذلك عدة أحاديث عن أم المؤمنين عائشة وأم سلمة، رضي الله عنهما، في البخاري ومسلم وفي سنن أبي داود وغيرهم. وانظر سبب نزول الآيات في ابن كثير والطبري والقرطبي ـ هذا ما اطلعت عليه ـ. وانظر ما ذكره الشيخ بكر أبو زيد ـ رحمه الله ـ فيما أورده من أدلة علىٰ الحجاب في كتابه القيم "حراسة الفضيلة".

قلبٍ مريض لزينة في الثياب أو زينة تسمع أو ترىٰ من تحت الثياب، وقد فارقن بهذا الثياب الكافرات، فلم يكن الأمر اقتباسًا من عادات الجاهلية كما يدعي الكذبة من المثقفين اليوم، ولا سرقة من ثقافة اليهود، بل تشريع من رب العالمين للصادق الأمين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

ومن المعلوم أن التشريع في الإسلام ارتبط بالأحداث؛ فلم ينزل القرآن جملة واحدة، ولم يكن المراد من الوحي مجرد التلاوة والإقرار بما يحمله من أحكام دون الامتثال العملي، **فكيف يؤخذ منطوق القرآن والسنة النبوية بمعزل عن ملابسات أسباب النزول، وكيفية امتثال الصحابة للأمر والنهي؟!**

ثانيًا: الجدال والمراء:

أَتىٰ العقاد علىٰ السفسطة، والفلسفة في الحضارة اليونانية القديمة، وكيف أنها صارت إلىٰ جدالٍ يضيع الوقت والجهد، ثم جاء إلىٰ الإسلام وادعىٰ أن الشريعة الإسلامية لم تُحرم سوىٰ الجدل العِقَامَ الذي لا يهدف لشيءٍ، يقول: "وكل ما ورد عن علماء الإسلام الذين حرموا الجدل فإنما ينصرف إلىٰ منع هذه اللجاجة التي لمسوا شرورها وتحققوا من جريرتها ولم يلمسوا معها منفعة"[1]، ويقول: "وعلىٰ كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لا تجد واحدًا منهم قصد بالمنع أو التحريم شيئًا غير هذا الجدل العقام، الذي يمزق وحدة الجماعة، ويصرف العقل عن الفهم، ويأتي إلىٰ المعنىٰ الواضح فيغمضه، ولا يتفق له يومًا أن يأتي للغامض فيجلوه ويقربه لمن خفي عليه"[2]. ثم يمارس

(1) موسوعة عباس العقاد الإسلام ـ دار الكتاب ـ المجلد الخامس ـ بيروت ط. 1971 ص857ـ859.
(2) التفكير فريضة إسلامية ص858.

نوعًا من الحصر للقارئ؛ فيذكر أن اثنين من العلماء (الغزالي وابن تيمية) هما من تعرضا لقضية المنطق (المجادلة بالعقل)، وأنهما تعرضا لها للتصحيح والتنقيح وليس للرد[1]؛ مع أن كلاهما رفض منطق الفلاسفة، وحالهما- رحمهما الله رحمة واسعة- في رفض مسلك الفلاسفة مشهور.

والذي أفهمه أن تعرُّض عبّاس العقّاد لقضية الجدال جاء من أجل الدلالة علىٰ تعظيم العقل، وقد سبق بيان أننا **لا نفرد العقل ولا نطرده، وإنما له مسار محدد يسير فيه، وذلك لأن العقل محدود الإمكانات ومتنوع إلىٰ حد التضاد. وأما ما يخص الجدال فالحقيقة أننا أمام طرفين ووسط: مراء وجدال وترك للحوار بالكلية.**

المراءُ إفراطٌ. وتركُ الحوارِ بالكليةِ تفريطٌ. والوسط هو جِدالٌ مشروط بأن يكون بالتي هي أحسن: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل: ١٢٥). والمراءُ نوعٌ خاص من الجدال، يزيد علىٰ طلب الحق، وفيه مشاحنة ومخاصمة بين الطرفين، يحاول كل واحد منهما أن ينزع ما بيد صاحبه[2]. والمراء حالة لا يراد فيها الحق، وإنما يراد فيها الغلبة علىٰ الخصم، تكون هناك نتائج، أو مفاهيم، مسبقة يُقرأ النص من أجل الدلالة عليها.. أو يقرأ النص ليؤتىٰ به شاهدًا عليها. وقد نهينا عن المراء قال رسول الله ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِيْ رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِيْ وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا،

(1) ص 858، 859.

(2) يذكر صاحب مقاييس اللغة أن المراء يدور علىٰ أمرين: "مسح شيءٍ واستدرار"، و"علىٰ صلابة في شيء". انظر: مقاييس اللغة، مادة مرىٰ "5/ 252".

وَبِبَيْتٍ فِيٰ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ»[1]. والحق واضح أبلج، ولا سبيل للمراء إلا باتباع المتشابه أو بافتعاله؛ إذ أن الكلام في المتشابه لا ينضبط، وخاصة إن قل العلم.

المحكم والمتشابه:

نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من حيث الإحكام وعدمه علىٰ ثلاثة أقسام: منها ما هو محكم حقيقي، ومنها ما هو متشابه حقيقي، ومنها ما هو محكم إضافي.. ويقال له أيضًا متشابه إضافي.

المحكم الحقيقي: هو الذي لا يحتاج لغيره لبيان معناه، وهو الغالب الأعم.. هو أم الكتاب كما قال منزل الكتاب، ولله الحمد. **والمتشابه الحقيقي**: هو الذي لا يتضح معناه ولا بغيره، وهو قليل جدًّا في القرآن الكريم، ولا ينبني عليه حكم شرعي. فقط يُطلب فيه التسليم بأنه من عند الله. **والمتشابه الإضافي أو المحكم الإضافي**: هو الذي يحتاج لغيره لبيان معناه، مثل المطلق مع مقيده، والعام مع مخصصه، والمنسوخ مع ناسخه، وهكذا؛ فهو وحده متشابه، وحين ينضم إليه غيره يصير محكمًا. يقول الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (آل عمران: ٧). والمقصود أن الذين يمارون هم الذين يقفون في المتشابه الذي لا يتضح معناه، أو يفتعلونه من خلال المتشابه الإضافي، أو من

(1) أبو داود برقم 4802، وانظر: السلسلة الصحيحة "1/ 272". وربض الجنة: أطرافها.

خلال بتر للنص من سياقه القولي أو الفعلي، ثم تفسيره بمقدمات عقلية[1].
والمقصود أن من يفعل هذا هم الذين في قلوبهم مرض، هم الذين في قلوبهم زيغ، كما وصفهم ربهم سبحانه وتعالىٰ. ويفعلون ذلك ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله؛ والذين يتركون النقاش بالكلية هم أصحاب البدع العملية في الغالب، كالمتصوفة[2]، لا يناقش.. يلوذ بالفرار من النقاش ويرمي في وجه من يتحدث إليه بجزء من حديث وابصة ـ رضي الله عنه ـ: «**استفت قلبك وإن أفتوك**».

فالشريعة تنهىٰ عن المراء، وتسمح بجدالٍ بالتي هي أحسن، وتستدعي أهل العزلة إلىٰ النقاش والحوار ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة. والعقاد بعيد عن هذا؛ العقاد في وادٍ آخر، يتكلم عن أن المراء ممنوع ليقفز مباشرة إلىٰ أن كل من كان ذا هدفٍ له أن يتكلم كيفما شاء، وأن يعمل عقله حيث شاء، يوطد لإباحة ما حرم الله بدعوىٰ أنه الجدال "المشروع"، وإعمال العقل "المشروع" في الشريعة!!

ثالثًا: المعرفة والعمل.. رؤية في التقدم الحضاري[3]:

من أهم أبواب الانحراف الفكري باب يتعلق بالأسئلة التي يطرحها المخالفون، كسؤالٍ عن الموقف من الديمقراطية، والموقف من الحريات

(1) في كتاب "الكذاب اللئيم زكريا بطرس، أكثر من مائة صفحة فيها بيان كيف تتكون شبهات النصارىٰ، وأمثلة من كذبهم، وهذه الأمثلة تصلح للاستشهاد بها هنا. وهذا كله من المحكم الإضافي.

(2) احتار العقاد في تأصيل معنىٰ الصوفية في كتابه "التفكير فريضة إسلامية"، وأتىٰ علىٰ صوفة الذي كان يجيز الناس بعرفة ومنىٰ في الجاهلية، وكلامه متخبط، ولو يسع المقام لأفردت له نقاشًا خاصًّا، وخير منه في هذه النقطة جواد علي في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

[3] استفدت في هذا الجزء من الكتاب من بحثٍ منشور بمجلات الأزهر العلمية لأختي الدكتورة إيناس جلال القصاص.

الشخصية (بمفهومها الغربي)، والموقف من الدولة القومية، وكذلك ما ينبثق عن هذا السياق من أسئلة مثل سؤال النهضة بشقيه: لماذا تخلفنا؟ وكيف نتقدم؟ ويقصدون بالتخلف التخلفَ التقني، وبالتقدمِ التقدمَ التقني (المدنية)، ..وراء الغرب. وقد حاول كثيرون الإجابة علىٰ هذه الأسئلة من خلال سياق معرفي غربي لا من خلال النص المؤسس في ديننا والذي يشمل: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتطبيق العملي له والمتمثل في سيرة الرسول ﷺ، وأصحابه، رضوان الله عليهم[1]، وما رسخه علماء الأمة في القرون الأولىٰ من أصول للفهم والتطبيق في المجالات الشرعية المختلفة، كضبط القراءات، والحديث، وأصول الفقه، والفقه، واللغة، والبلاغة، والتاريخ، ثم العلوم الطبعية، فهذه جميعها تمثل النص بمفهومه الشامل كما مرّ معنا في هذا الفصل[2].

ومن أهم ما يمكن ملاحظته في مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر الذي نشأ في كنف الاستعمار الغربي، أنه أخذ من الغربيين مفهوم المدنية كهدف في الحياة[3]، وطوّع مفاهيم الدين طلبًا للمدنية بمفهومها الغربي، فأصبح مفهوم التخلف والتقدم يقاس بقدر ما تم تحصيله من مدنية غربية، ووقف كثير من المنشغلين

1 يؤخذ فعل عموم الصحابة في المجال الاجتماعي والراشدين منهم في المجال السياسي.

2 رصدت قبل صفحات قليلة أن من أسباب الانحراف الانفرادُ بالنص بعيدًا عن التطبيق العملي للرسول ﷺ وصحابته والتابعين لهم بإحسان.

3 أول من أدخل هذه البدعة هو "جمال الدين الأفغاني" نقلًا عن المفكر الفرنسي "فرانسوا غيزو 1787-1874" انظر: ألبرت حوراني، "الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939"، ترجمة كريم عزقول، (بيروت، دار النهار للنشر والتوزيع، د.ت)، ص 144.

بنهضة الأمة خجلىٰ يحاولون التبرؤ من التخلف المدني وتبرئة الإسلام منه، وادعاء ترحيب الإسلام بالتقدم المدني الغربي وقدرته علىٰ الانضمام إليه والمشاركة فيه، ومن هؤلاء عبّاس العقّاد!

وإنَّ للأمور سياقًا آخر، خلاصته أن الدين جاء لتحقيق العبودية لله عز وجل ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴿٢٥﴾﴾ **(الأنبياء: 25) وأننا إن عبدنا الله حق عبادته عمرت بنا الدنيا وجاء الفوز في الآخرة بما أعد الله من نعيم مقيم والنجاة مما توعد به العاصين من عذابٍ عظيمٍ، أليم، مهينٍ. بمعنىٰ أن العقيدة الإسلامية منظومة تعبدية تفرز مدنية خاصة بها. وأعرض عليك الآن بيانًا نظريًا، مختصرًا، مدعومًا بأمثلة عملية مختصرة أيضًا، أحاول بيان أن المنظومة العقدية الإسلامية تفرز مدنية خاصة بها، وأن المدنية الغربية التي نعيشها الآن لا يمكن أن تصل بنا إلىٰ عمران حقيقي، وودت لو أني أفردت كتابًا خاصًا بهذا المبحث ولكني، لكثرة الشواغل، أطرح الفكرة هنا رجاء أن ينشط لها مَنْ مَنَّ الله عليه بوقتٍ وجهد وسعةٍ في العلم والفهم.. يعدِّل ويوسع. وأقدم ما عندي من خلال طرح سؤال عمارة الأرض ومحاولة الإجابة عليه، علىٰ النحو التالي[1]:**

[1] سيأتي السؤال في الصفحة التالية، ونصه: كيف تعمرُ الأرضُ بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله؟! وفي المقابل كيف تفسد الأرض بمن يجد ويجتهد ويطور أساليب العمارة، بل حقق عمرانًا ظاهريًا يراه الجميع؟!

في القرآن الكريم ربط بين تحقيق الإيمان والتقوى من ناحية وعمارة الأرض من ناحية أخرى، مثل قول الله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)(سورة الأعراف: الآية96)، وقول الله تعالى: (فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا. يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا. وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّـٰتٍ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَـٰرًا) (سورة نوح: الآيات 10 -13)، وقوله تعالى: (وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا) (سورة الجن: الآية16). وآيات فيها ربط صريح بين المعصية والفساد (تخريب العمران)، مثل قوله تعالى: (ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ) (سورة الروم: آية41)، وقوله تعالى: (وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ) (الشورى:30). ولعلَّ هذا يثير سؤالًا على هذا النحو: **كيف تعمرُ الأرضُ بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله؟! وفي المقابل كيف تفسد الأرض بمن يجد ويجتهد ويطور أساليب العمارة، بل حقق عمرانًا ظاهريًا يراه الجميع؟!**

أولًا: عمارة الأرض بمن غايته عبادة الله وتعبيد الناس لله:

كان بداية ذلك. ومنطلقه. من ترسيخ التأمل والتفكر ومحاولة الفهم والتفسير ومن ثم التعرف على المآلات (عواقب الأمور) كمنهج حياة[1].

[1] والتدبر المذكور في هذه الأسطر، والمشروح فيما يليها من صفحات، هو التعقل والتفكير الذي يدعو إليه الإسلام لا تفكير أهل الأهواء الذي يجادل عنه العقاد، كما مر معنا في بداية هذا الفصل ونحن نتحدث عن المناطق التي يعمل فيها العقل، والفرق بينهما هو منهجية التفكير، وذلك أن عملية التفكير

وقبل المسلمين كانت عامة المعارف علومًا نظرية.. فلسفية بحتة. وما يعنينا هنا هو أن هذه النقلة الهائلة التي أحدثت طفرة كبيرة في العلوم التي أسست لعمارة ممتدة إنما جاءت من الالتزام بأمرِ الله ونهيهِ في كتابه وسنة رسولهﷺ؛ وبيان ذلك في نقاط على هيئة عناوين جانبية، كالتالي:

التأمل منهج حياة:

في القرآن الكريم إجابة على الأسئلة الثلاثة الأهم في حياة الناس، وهي: من خَلَقَهم وخَلَقَ كل شيء؟، وماذا يراد منهم في هذه الحياة؟، ثم ماذا ينتظرهم بعد الوفاة؟؛ ومن خلال الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة يتم ربط العبد بربه في كل شيء، ربطَ مخلوقٍ بخالق، ربط فقير لا يملك شيئًا بغني مالك كل شيء؛ بمعنى ترسيخ الحقيقة الكبرى في هذه الحياة وهي محورية الله، (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (سورة هود: الآية 123). وواحدة من أهم الطرق التي يعلمنا الله إياها في كتابه للاهتداء إلى تفرده بالكمال والعبادة التأمل (التدبر) في كل شيء وفي جميع الأحوال. التأمل (التدبر) في القرآن الكريم (كِتَابٌ

التي يطالب بها العلمانيون، وينتصر لها العقّاد، تكون حرة.. كل يفكر حسب هواه وأوضح الأمثلة على ذلك مخرجات "علماء" الفلسفة في أمهات الأسئلة التي شغلوا بالإجابة عنها. حيث لا تكاد تجدهم متفقين على رأي واحد، فالعقول حين لا تنضبط بالشرع تتحرك مدفوعة بأمراض النفس ومعطيات الواقع وإكراهاته وطبيعة المعارف السائدة، وتكون النتيجة حالة من الحركة واسعة النطاق التي لا تكاد تتوقف كالسوائم، أو كما وصف الله (كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ)(الأنعام: من الآية 71)، بخلاف عملية التأمل والتفكر المنضبطة بالشرع، (ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ) فجعل أصحاب العقول السليمة هم المهتدون، ولعل الأمثلة المذكورة في الصفحات التالية تبين ذلك.

أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ)(سورة ص: من الآية 29)، والتأمل (التدبر) في آثار السابقين من نجا منهم ومن هلك (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم)(سورة محمد: من الآية10)، والتأمل في ذات الإنسان: (وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)(سورة الذاريات: الآية 21) وفي جميع الأحوال. فحينًا يأمر الله عباده بالسير في الأرض من أجل النظر والتأمل (قلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا) (سورة النمل: من الآية 69)، وحينًا لا يكون أمرًا بل حضًّا على السير والتأمل، (أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ) (سورة الروم: من الآية 9) وحينًا لا يكون أمرًا ولا حضًا وإنما طلبًا رقيقًا ممن يضرب في الأرض أن يتأمل حال سيره، (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (الأنعام:11). بمعنى أن الله العليم الحكيم، سبحانه، في كتابه الكريم دعا إلى إعمال الفكر في كل ما يرد على الإنسان فحتى الذين لا يستطيعون السير عليهم أيضًا أن يتأملوا في الأخبار التي تأتيهم ممن ساروا وشاهدوا، ويستنبط هذا من ختام هذه الآية الكريمة: (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ)[1] ، وذكر السماع لينبه من لم يمش إلى أن يتأمل في الأخبار التي سمعها ممن مشى في مساكن السابقين ورأى كيف هلاكهم بعد أن عصوا رسل الله.

ويفهم من الدعوة للتأمل في كل شيء وفي جميع الأحوال، أن الله، سبحانه وتعالى، يُرسخ التأمل منهجًا للحياة. بمعنى جعل التأمل حالة

[1] سورة السجدة: الآية 26.

تتصف بها الشخصية المؤمنة بالله وما أنزل على رسوله. فليس للمؤمن أن لا يفكر فيما يعرض عليه. بمعنى صياغة شخصية يقظة تدقق النظر وتُعْمِل الفكر فيما يَرِدُ عليها. وقد ظهر هذا جليًا في الصحابة رضوان الله عليهم، فأثمر تأملهم وتفكرهم تساؤلات ظهرت كأنها اعتراض أو استشكال: في مكائد الحروب: (أمنزل أنزلك الله أم هي الحرب والمكيدة؟ .... ليس بمنزلٍ إذًا يا رسول الله)[1]، (رأي تراه لنا أم وحي أمرك الله به... ليس لهم عندنا إلا السيف)[2]، وفي التشريعات: (أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها)[3]. بمعنى أنها كانت شخصية يقظة تمارس التفكير والنقد وتعبر عما في صدرها دون خجلٍ. نعم هذا حالهم، وهم أطوع الناس، وهو سيد الناس، رسولٌ مؤيدٌ بالوحي من الله ﷺ ورضي الله عنهم.

وحين يترسخ التأمل في الشخصية المسلمة فإن الناس ينصرفون إلى ما

---

[1] انظر: عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية**، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1375هـ/1955م)، ج1، ص620.

[2] المصدر السابق، ج2، ص223.

[3] والحديث بتمامه عن أنس بن النضر رضي الله عنه: أن الرُّبيّع وهي ابنة النضر(أخته) كسرت ثنية جارية فطلبوا الأرش وطلبوا العفو فأبوا فأتوا النبي صلى الله عليه و سلم فأمرهم بالقصاص فقال أنس ابن النضر أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال (يا أنس كتاب الله القصاص) . فرضي القوم وعفوا فقال النبي صلى الله عليه و سلم (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره) . انظر: الإمام البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)**، مرجع سابق، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، ج2، ص961.

يحسنون أو إلى ما يحبون، كل يتأمل فيما يحسنه أو فيما يحبه، وذلك أن الناس متخصصون بطبعهم، وهذا واضح من مواقف الصحابة، رضوان الله عليهم، فمن تحدث في تحديد أرض المعركة غير من تحدث في بيان شأن الأسرى، غير من أشار بحفر الخندق. كل موقف يستدعي الذين يفهمون فيه، ويحترم كل واحد إمكاناته الشخصية (تخصصه) فلا يتحدث فيما لا يعلم. وحين انتشر الدين تخصصوا أيضًا: فكان بعضهم في حلق العلم فقيهًا كزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وعبد الله بن عباس وأبي هريرة، وكان بعضهم في القتال يدير المعارك كأبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد أو ينازل الأبطال كالحمزة بن عبد المطلب والزبير بن العوام، وكان بعضهم في السياسة والحكم كأبي بكرٍ وعمر بن الخطاب، وكان بعضهم في قراءة القرآن وتعليمه كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب، وكان بعضهم في التجارة كعبد الرحمن بن عوف؛ ثم كان الأئمة بعد ذلك: فقهاء كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والليث بن سعد، ومحدثين كالبخاري ومسلم وأصحاب الكتب الستة، ومؤرخين كابن إسحاق وابن هشام، وأدباء كالخليل بن أحمد، وعلماء في العلوم الطبيعية كالخوارزمي والبيروني.

والمقصود أن التدبر حالة. وصفٌ لازم للشخصية المسلمة. ويظهر في مجالات متعددة حسب ما يحسن الشخص أو ما يحب. وكان نتيجة ذلك أن بدأ المسلمون علومًا خاصة بهم، بل نستطيع أن نقول: **بدأ مشروع حضاري متكامل في شتى المجالات انطلاقًا من مبدأ التأمل الذي رسخه الله، سبحانه وعز وجل، في كتابه**. فأسس المسلمون علومًا نظرية لم تُعهد من قبل

انطلاقًا من منظومتهم العقدية، وخدمةً لمنظومتهم العقدية؛ كعلم الرجال (ضبط السند)، والفقه (الأحكام التفصيلية)، ودونوا التاريخ، وانطلقوا للعلوم الطبيعية بأنواعها (الفلك، والرياضيات، والكمياء،.. وغيرهم) من الحاجة الشرعية إلى هذه العلوم من ناحية[1]، ومن منطلق التأمل الذي رسخه الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وهذا شديد الوضوح في جميع المجالات فقد سعوا لتعلم الرياضيات حين انتشرت تجارتهم ووجدوا أن طريقة الحساب التقليدية لا تكفي لحساب عملياتهم التجارية، فكان أن نشط الخوارزمي في البحث عن "الصفر" وطريقة الآخر في الحساب، ونشطوا لتعلم الفلك لضبط وقت الصلاة، ونشطوا لتعلم الهندسة والرياضيات حين اتسع العمران وكثر الناس واحتيج لتشييد البيوت الكبيرة[2]؛ **ومن أوضح الشواهد على أن النص، بما رسخه من مبدأ التأمل والتفكر، يكفي لإنشاء عمارة (نهضة) حالُ أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، وذلك بما أوجده من أوليات في مجالات شتى لم يسبق إليها**، وبدهي أنه لم يتصل بغيره ليتعلم منه ويتدرب على يديه[3]، وعندي رؤية، لم تكتمل بعد، في أن معالجة التفاصيل انطلاقًا من الامتثال للأمر والنهي الشرعي أثمر كليات مجتمعية غاية في الفاعلية،

---

[1] كان بداية الاهتمام بالفلك من أجل ضبط أوقات الصلاة.

[2] انظر: خير الدين بن محمود الزركلي الدمشقي، **الأعلام**، (بيروت، دار العلم للملايين، 2002م)، ج7، ص116.

[3] انظر: غالب عبد الكافي القرشي، **أوليات الفاروق في السياسة والإدارة والقضاء**، (القاهرة، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2008م).

والمثال الذي أدرسه الآن هو القيام بحقوق الضعفاء (حلب الشاة من أبي بكر ثم عمر) وتوزيع الغنائم والرواتب (الأعطيات) على المستحقين دون استئثار السلطة بالمال والنفوذ بدعوى أن "الدولة/ الخلافة" في حالة حرب مع القوى العظمى، وأشياء كثيرة مجتمعة جلها في فعل الراشدين.

نعم أفاد المسلمون من علوم غيرهم، ولكن، **يجب أن نلاحظ أن هذه الإفادة جاءت على سياق، أو مشروع حضاري تأسس بدايةً من الكتاب والسنة، ثم تم انتقاء ما فيه فائدة لهذا المشروع مما هو موجود عند الآخرين، فالمسلمون لم يخضعوا خضوعًا أعمى قط لما جاءهم من علوم اليونانيين وإنما مارسوا النقد فراجعوا وصححوا وأخذوا ما يخدم مشروعهم**[1]، فكانت الإفادة من الأمم الأخرى في البدايات طفيفة جدًا لا تكاد تذكر، وفي أمور فرعية تتعلق بتسيير شئون الحياة، مثل البريد، والعسس (التعرف على أخبار الناس ليلًا دون دراية منهم)، والدواوين (تسجيل أسماء الجنود ومن لهم الحق في رواتب منتظمة من الدولة) كان هذا في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي عهد التابعين أخذوا بعض ما استحسنوه من الفرس في إدارة شئون الحياة اليومية، مثل إسقاط الضرائب عن المزارعين، وإعطاؤهم البذور الجيدة دون مقابل؛ ولم نعرف أن غير المسلمين شاركوا في تأسيس الدولة في عهد الراشدين أو عهد التابعين وتابعيهم. وبدأ

---

[1] ينظر: "**علم الرياضيات في التاريخ الإسلامي**"، لعبد الحليم عويس، موقع شبكة الألوكة، أخذ بتاريخ 2021/12/31، من الرابط: https://2u.pw/hJac3

الاتصال الثقافي متأخرًا في نهاية القرن الثاني من خلال الترجمة التي أنشأها ودعمها الخليفة العباسي المأمون(170هـ-218هـ) (786م-833م)، وكان هذا التواصل في علوم الفلسفة بالأساس[1]. **والمقصود أن الاتصال بالحضارات الأخرى جاء متأخرًا (في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث)، بمعنى أنه جاء بعد التأسيس. وما نُقلَ في العلومِ التقنيةِ نُقل إلى سياقِ من البحثِ العلمي أنشأه المسلمونَ ووضعوا فيه ما تحصلوا عليه من علومٍ عند الآخرين**، مع الأخذِ في الاعتبارِ أن ما حصلهُ المسلمون كان شيئًا مُهْمَلًا.. وريقاتٍ ممزقةٍ.. معارفَ مبعثرةً.. قليلةً.. ولولا أنها وُضعتْ في سياقٍ جادٍ ناهضٍ لما تطورتْ. فالحاصل أن المسلمينَ الأوائل نهضوا واستجلبوا آثار العلم المتواجدة عند غيرهم وطوروها، لا أنهم التحقوا بمراكزَ بحثية مشيدة وأمم قوية ناهضة وتعلموا منها ثم قلدوها كما يحدث الآن[2]. ومن يتتبع سيرة أوائل علماء الطبيعة المسلمين، كالخوارزمي والبيروني وابن سيناء وابن الهيثم.. يرى بوضوح أنهم متأخرين عن فترة التأسيس والازدهار وأنهم أخذو كتابات مهملة، وقاموا بتنقيحها وتطويرها، وأنهم لم يخالطوا أممًا متقدمة تتلمذوا على

[1] نص على ذلك عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته للتاريخ، حيث ذكر أن المسلمين لم يستفيدوا من علوم الفرس، وذكر، أيضًا، أن أول اتصال معرفي بعلوم الرومان كان في عهد العباسيين (القرن الثاني الهجري)، ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون "**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**"، (بيروت، دار الفكر، 1408هـ/1988م)، ج1، ص631.

[2] الالتحاق بالأمم القوية والتعلم عندها يورث المتعلم المنتج المعرفي (تقني، أو فلسفي) ومعه منهجية التعلم، أو خلفيات العلم العقدية، ولذا يعود إلى قومه ويتحدث بأن نقطة البدء من تعديل النموذج المعرفي (العقيدة)، وهذا يحاولون فعله منذ قرنين أو يزيد.

أيدي علمائها[1]، وأزيد الأمر بيانًا من خلال التعريج على بناء المدن- وهو مثال مشهور- في الأجيال الأولى من هذه الأمة.

بناءُ المدنِ:

من أوضح الأمثلة على ما سبق بيانه من طبيعة التواصل مع الأمم السابقة وخصوصية هذه الأمة، أو بالأحرى خصوصية كل منظومة عقدية في إفراز واقعها الحضاري بما يتناسب معها، هندسةُ المعمار، حيث خرجت من عندنا في صيغة خاصة جدًا عبارة عن أقواس ودوائر، وهي بهذا الشكل (الأقواس والدوائر) تترجم قيمة عليا عندنا، هذه القيمة هي محورية المسجد في قلب المدينة، كمحورية الكعبة لكل المسلمين.

ارتكز المسلمون على المسجد بدايةً. يقومون ببنائه في أولِ يومٍ ينزلون فيه مكانًا ما، وبجواره السوق تسهيلًا على الناسِ في قضاءِ حوائجهم، بمعنى أن تكون الأغراضُ اليوميةُ للبيت بجوارِ المسجدِ الذي يُؤتى إليه كلَّ يوم خمس مرات، ثم يستديرون حول المسجدِ في حلق كما يفعلون حول الكعبة. من هنا جاءت فكرةٌ جديدةٌ للعمرانِ (تعميرَ المدنِ)، في هيئةِ دوائرٍ وأقواسٍ، وأصبحَ الفنُ الإسلاميُ يتكئُ على فكرة الدوائر في البنيان وفي تشييد المدن، وظهرت بركة هذا الأمرِ في نواحي عدة، منها: قربُ الوصولِ لمركزِ المدينةِ من أطرافها، وعدم تمركز الشمسِ في طول الشارع فلا يشق على من يسير فيه

---

[1] ينظر: دونالد هيل، **العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية**، ترجمة أحمد فؤاد الباشا، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2004).

بخلافِ السير طويلًا في الشوارع المستقيمة، وغير ذلك[1]..

والمقصودُ: أن العمرانَ (البنيان) جاء من قيمةٍ أخرى.. العبوديةِ.. جاء ثمرةً لها.. نَبَتَ من الإلتزامِ بالنصِّ الشرعي دون أن يكونَ هدفًا من البدايةِ.

إتقان العمل والتخصصية والإبداع.

أسس المسلمون الأوائل علومًا جديدة في عددٍ من المجالات، مثل: الفقه، وأصوله، والسيرة والتاريخ، وعلم الرجال (المتعلق بعلم الحديث)، وطوَّروا علومًا قائمة كالعلوم الطبيعية (الرياضيات والهندسة والفلك..)، والأدب والبلاغة. وحين تدقق في ظاهرة تأسيس علوم جديدة وتطوير العلوم القائمة، حين تتأمل في هذه الطفرة العلمية التي قام بها جيل الصحابة والتابعون، وهم لم يتعلموا، من غير الكتاب والسنة تجد أن الأسباب الرئيسية أربعة: أولها: إتقان العمل، وثانيها: استفراغ الجهد وترك الكسل والدعة، وثالثها: المداومة، ورابعها: جعل التفاضل بالتقوى. فهذه الأربعة حين تجتمع تكون المحصلة شخصية جادة تعمل للإتقان (الإحسان في العمل) لا للشهرة ولا للأجر، شخصية تستفرغ وسعها فيما تفعله، وتستمر لا أنها تعمل حينًا وتقعد عن العمل أحيانًا، حوَّلت، هذه الأربعة، الإنسان من جاهلي يأتي المنكرات ما ظهر منها وما بطن إلى

[1] انظر: هيام مهدي سلامة، **جماليات الشكل الهندسي في الفن الإسلامي وتطبيقاتها المعاصرة**، مجلة العمارة والفنون، العدد الثالث، صيف 2016م، ص307-321. ولمزيد من الأبحاث في هذا المضمون انظر- إن شئت- موقع مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، أخذ بتاريخ 28/11/ 2021م، من الرابط: : https://mjaf.journals.ekb.eg/

إنسانٍ أحدث أكبر تحولٍ وأزكى تحولٍ في تاريخ العمران البشري.

وقد حثت الشريعة على إتقان العمل، **وجُعل الاتقان مقصودًا لذاته**.

وذلك فيما أخبرنا الله به من أنه، سبحانه وتعالى وعز وجل، مُطّلع على عمل العامل، وأن عمل العامل معروض على الله يوم القيامة، يقول الله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] . وفي حديث أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه"[2]؛ ومما يدل على أن الاتقان مقصود لذاته ما جاء في الحديث من الحث على تسوية القبر، يقولﷺ: "أمَا إنّ هذا لا ينفع الميت ولا يضره، ولكن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن"[3]، بمعنى أن الاتقان هدفًا للمحبين لله ورسوله الممتثلين لأمره.

ومن الأدلة ردُّ عمل من لم يتقن، ودليل ذلك المسيء صلاته.. هذا الذي

---

[1] سورة التوبة: الآية 105.

[2] انظر: الإمام البيهقي، **شعب الإيمان**، (الرياض، مكتبة الرشد،1423هـ/2003م)، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، ج7، ص232. قال صاحب مجمع الزوائد، "رواه أبو يعلي وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة"، انظر، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بغية الرائد)**، (بيروت، دار الفكر، 1415هـ)، كتاب البيوع، باب نصح الأجير وإتقان العمل، ج4، ص175.

[3] المرجع السابق، باب الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها، ج7، ص234.

لم يتقن صلاته فأمره النبيﷺ، بإعادتها[1].

ودليل الحث على الاستدامة ما جاء في الصحيحين: "إن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل"[2]، وما جاء في وصف عمل رسول اللهﷺبأنه كان ديمة، وفي رواية: "كان إذا عمل عملا أثبته"، ويستدل على هذا المعنى (بذل الجهد قدر المستطاع، وعدم التراخي)، أيضًا، بما جاء في الحث على العمل وعدم اليأس كقوله تعالى: (وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (سورة يوسف: من الآية 87)، وقول الله تعالى: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ)(سورة الشرح: الآية7).

وأما جعل التقوى قيمة عليا فهو من أوضح الأمور في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحال الصحابة رضوان الله عليهم، يقول الله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (سورة الحجرات: من الآية 13) ، ويجب أن نستحضر هنا أن التقوى قيمةً خُلُقيةً وليست وظيفة أو مهنة، ما يعني أنها لا تُعيقُ أحدًا من الاتجاه إلى ما يُحسنُ أو إلى ما يحب، فكلٌ يُنافسُ في تحصيلِ التقوى من حيث يحسن أو من حيث يحب، كما أن التقوى لا تتوقف على حسب أو نسب أو صفات جسدية، بمعنى أن الكل يستطيع تحصيلها.

فكانت المحصلة أن تفرق الناس كل إلى ما يحسن أو إلى ما يحب، وكان أن استفرغ كل واحدٍ جهده فيما اتجه إليه، وأدام عمله، وأتقنه، فظهر الاتقان

---

1 انظر: الإمام البخاري، الصحيح، مرجع سابق، كتاب الآذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، ج1، ص151.

2 المرجع سابق، كتاب اللباس، باب الجلوس على الحصير ونحوه، ج5، ص2201.

الذي هو التخصصية العالية (الإبداع) في شتى المجالات. وظهر سريعًا، فلم يكد يمضي نصف قرن من عمر البعثة المحمدية حتى ظهرت التخصصات المختلفة في المجتمع المسلم: الفقه، والسيرة والتاريخ، والقراءات، والحديث (علم الرجال.. الرواية، وعلم الدراية.. تفقد النص)، والأدب والشعر، ثم تتابعت العلوم الطبيعية تبعًا لحاجة المسلمين إليها، فحين احتاجوا لضبط وقت الصلاة في البلدان الجديدة التي يختلف مناخها عن مناخ مكة والمدينة، كالشام وما بعدها من الدول اتجهوا للفلك فدرسوا ما عند غيرهم وزادوا فيه انطلاقًا من ثوابتهم وبحثًا عن كفايةٍ لحاجتهم[1].

والمقصود أن هذه التخصصية، وهذا الإبداع، جاء من امتثال لنصوص شرعية، ولم يكن مقصودًا لذاته. أو جاء من أشخاصٍ تم صياغتهم بنصوص شرعية بحتة.

القتلى في معارك الإسلام والقتلى في معاركِ الأممِ الأخرى:

كانت معارك الأمم الأخرى بمثابة كارثة تَحل بأهل المنطقة التي يحدث فيها القتال، ليس فقط من تعرض المنطقة لإضعاف قدراتها المادية بسبب تمويل الجيش طوعًا أو كرهًا، وإنما كانت الكوارث تحل لسببٍ آخر، هو عدم دفن القتلى وترك الجثامين تتعفن، مما يؤدي إلى انتشار الأوبئة والأمراض التي تفتك بأهالي المنطقة، وتكون المحصلة أن عدد من يموت بعد المعركة، من

[1] من أفضل من تحدث عن جهد المسلمين في العلوم التقنية الدكتور جورج صليب. له عديد من الكتب واللقاءات المتلفزة يتحدث فيها شارحًا ومدافعًا عند دور المسلمين في التقدم التقني. انظر: جورج صليبا، **الفكر العربي**: **نشأته وتطوره**، (لبنان، منشورات جامعة البلمند،1998م).

الأوبئة والأمراض، أضعاف من يموت في القتال المباشر حال المعركة.

بخلافِ المعاركِ الإسلاميةِ التي لم تكن تسببُ أي ضررٍ للمنطقةِ التي يَنشبُ فيها القتالُ ولم يكن يُقتل في المعركة إلا من يُجهز عليه حالَ القتال. والسبب هو أنَّ الفردَ المسلمَ امتثلَ لأمرٍ رباني، هذا الأمرُ الرباني هو: التعجيلُ بدفنِ الميتِ (ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ) (سورة عبس: الآية 21)، فكان المسلمون يدفنونَ القتلى (منهم ومن غيرهم) يومًا بيوم.. امتثالًا لأمر الله دون أن يُفتشوا في الحكمةِ الخفيةِ وراء هذا الأمر.. فقط يمتثلون للأمرِ كونه من الله العليمِ الحكيمِ، وبالتالي لا تتعفنُ الجثثَ ولا تنتشرُ الأمراضُ المعديةُ كما حدث في معاركِ الأممِ الأخرى، فقد كانوا يتركونَ الجثثَ تتعفنُ وبالتالي تنشرُ الأمراض في المنطقة فيصاب أهلها بالطاعون. فمعالجُة هذا الأثرِ السيءِ للمعاركِ لم يأتِ بعد التعرفِ على خطورةِ تركِ الجثثِ تتعفنُ، وإنما جاء بالتأدبِ بأدبٍ رباني تم الالتزام به دون أن يُعرف سببُهُ. بمعنى أن المقاتِلِ المسلم وهو يُسارع لدفن القتلى بعد يوم طويل من القتالِ لم يَفعلْ ذلك طلبًا للعمران وإنما امتثالًا لأمر الله وحدث العمران دون قصدٍ .. جاء ثمرةً للامتثال لأمر الله.

التكرار وصنع عادات الإنسان:

ذكر أهل التفسير وعلوم القرآن عددًا من فوائد التكرار في القرآن الكريم، منها: أن التكرار يفيد التقرير فإن الكلام إذا تكرر تقرر، ومنها: أن التكرار يفيد التأكيد على معنى من المعاني، ومنها: أن التكرار وجه من وجوه الفصاحة فمع التكرار لا يحدث إخلال بالمعنى، وهذا يسمى عند البلغاء (اقتدارًا)؛ ومنها أن عامة ما يبدو تكرارًا لا يكون تكرارًا حقيقيًا وإنما حين

ندقق النظر نجد فروقًا بين المعنى في ذات الآية أو في السياق[1].وما سبق هو المشهور في أقوال المفسرين، وذكر الزركشي أن من أسباب التكرار أن "الرجل كان يسمع القصة من القُرْآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأوَّلين، وكان أكثر من آمن به مهاجريًّا، فلولا تكرر القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد، وتبصرة لآخرين، وهم الحضور"[2] . واجتهد العلماء في دفع التكرار، أو ما سمّاه بعضهم التشابه اللفظي، واشتهر من بين هؤلاء الإمام الرازي[3]

---

[1] محمود بن حمزة الكرماني، **أسرار التكرار في القرآن الكريم المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان،** (القاهرة، دار الفضيلة، د.ت).

[2]بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، **البرهان في علوم القرآن"**،(بيروت، دار المعرفة،1379هـ /1957م)، ج3، 26.

[3] من أشهر من عني بتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم الإمام الرازي في تفسيره، فقد جمع أقوال السابقين له مثل: الإمام الكرماني، والإمام القفال، والإمام الواحدي، والزمخشري، وعبد القاهر النحوي، ونقل عنه المتأخرون من أمثال: الإمام ابن الزبير الثقفي في ملاك التأويل، والإمام ابن جماعة في كشف المعاني في متشابه المثاني، والإمام زكريا الأنصاري، في "فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن"، ونقل عنه نفر من المعاصرين مثل الإمام الآلوسي، والإمام الطاهر بن عاشور. انظر: ريم عبد الفتاح، **الرازي وتوجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم،** موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، أخذ بتاريخ 2021/12/11:https://2u.pw/WkOr4 ، وانظر: ريم عبد الفتاح، **نظرات في منهج الإمام الرازي في توجيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم،** موقع موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، أخذ بتاريخ 2021/12/11: https://2u.pw/HMkKN . وانظر: محمد راشد البركة،

وكلامُهم يَدْفَعُ التكرار في بعض المواقع دون بعضها. وسياقُهم الذي يتحركونَ فيه سياقٌ دفاعي. وإن كثرة التكرارِ في القرآن الكريم تدلُ على فائدةٍ كبرى أعتقد أنها تتعلق، فضلًا عما ذكره علماء التفسير وعلوم القرآن، ببناء عادات الإنسان، أو تشكيل السلوك الإنساني، وبيان ذلك كالتالي:

حديثًا، ومع تطور وسائل التواصل بين الناس، ومعها وسائل تلقي المعرفة بشتى أنواعها، بدأ الحديث عن أن سلوك الإنسان مصنوع، كله أو جله، حتى تجرأ أحد علماء الاجتماع المعاصرين (الدكتور علي الوردي) ووصف الإنسان بأنه بلا عقل وعنون كتابًا بعنوان (مهزلة العقل البشري) ، يحاول أن يقرر فكرة "الجبر البيئي"، بمعنى أن الإنسان يجبر على أفعاله من البيئة التي يعيش فيها، يقول: كل ما يَظهر على الإنسان من خير أو شر من أثر البيئة، ورفض-هو- أن يتسلَّم جائزة الدولة التقديرية، بدعوى أن ليس له فضل فيما حصل عليه من شهادات، يقول: إنما الفضلُ للبيئةِ وللظروفِ التي أعطتُه ولم تُعط غيره، ولا أدري: ألم يكن معه عشرات، بل مئات، في نفس البيئة وفشلوا، أو لم يكونوا مثله؟!، أم كان وحيدًا طيلة حياته؟!! فلو كانت البيئة هي التي تصنع وحدها لكان الكل سواسية.

ومن خلال كتابين "وعاظ السلاطين" و "مهزلة العقل البشري"[1] حاول

المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه: دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية أصول الدين- الرياض، 1425هـ.

[1]علي الوردي، **وعاظ السلاطين**، (لندن، دار كوفان للنشر، 1995م)، وانظر: علي الوردي، **مهزلة العقل البشري**، (لندن، دار الوراق للنشر، 2008م).

علي الوردي أن ينظر لمفهوم الحركة والتطور في اتجاه الحداثة الغربية، وطالب علماء الدين أن يستسلموا لهذا التطور بل وينظروا له. فهل حقًا يوجد ما يسمى جبر بيئي؟

وما ذهب إليه الدكتور علي الوردي سبقه إليه ابن خلدون في مقدمته، فيما سماه بـ "قوانين الاجتماع البشري" الذي يرى أنها حتمية في الحكم على الوقائع والأحداث، وأن البيئة تشكل تفاصيل الإنسان: لون بشرته، مزاجه، وكل شيء فيه.

وظهر مؤخرًا معارفٌ تجمعت تحت عنوان "بناء [صناعة] العادات". يحاولون صنع عادات الناس والتحكم في سلوكهم، وجعلهم كالآلة بلا عقل إلا في حدودٍ ضيقة جدًا، **والوسيلة إلى ذلك هي التكرار. تكرار الطلبِ، تكرار المعلومة، صناعةُ النموذج (المثَل) (القدوة) وتكرار عرضه. وبفعل التكرار تمت صناعة كثير مما يفعله الإنسان المعاصر!!**

إنه من خلال التكرار تم التحكم فيما يأكل الفرد، ويشرب، ويلبس، ويسمع، ويشاهد، وفيما يتحدث فيه من موضوعات، بل وفيما يفكر فيه ويهتم به من قضايا. وبسببِ امتلاكِ الناسِ لوسائلِ التواصلِ التكنولوجية الحديثة سَهُلَ صنعُ العادات حتى أصبحَ كثيرٌ من الناس على ما يقول علي الوردي: بلا عقلٍ، أصبحَ الحديثُ عن أن للإنسانِ عقلٌ مهزلةٌ!! أصبح الإنسانُ المعاصرُ مصنوعٌ بأفلامٍ ومسرحياتٍ وإعلاناتٍ وأغاني، ومناهجَ دراسية، ومتطلباتِ وظيفة حكومية.. إلخ.

وفي ضوء هذه العرض لواقعنا المشاهد نستطيع أن نقرر أن **من فوائد التكرار في القرآن الكريم صنع عادات الإنسان، ففي القرآن الكريم عددٌ محدودٌ من القصص تمثل كل قصة نموذجًا محددًا من انحرافات البشر**. ويحدث تكرار غير مُخل، ففي كل عرض إضافةٌ في مبنى القصة ذاتها، أو إضافة باعتبارِ السياق، أو تأكيدًا على معنى، وفي كل عرض إظهار لبيان بهي عطر عال منفرد أخّاذ، وتكون المحصلةُ أن الذي يقرأُ كتابَ الله مرةً كلَّ أسبوعٍ (وهو حالُ عامةِ الصحابة[1]) يمرُ عشرات المرات على عدد محدودٍ من المفاهيم والقيم المركزية والقصص الهادفة التي تُثَبّتُ هذه المفاهيم، ويمرُ عشرات المرات على النماذج المثالية لحزب الرحمن من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، ومن اتبعهم بإحسان، ويمر عشرات المرات، كذلك، على النماذج رؤس الشرّ وهم الشياطين ومن تبعهم. بمعنى: تُعرض القيمُ من خلالِ النماذجِ المثاليةِ لها؛ ومن ثم يحدثُ تَنْمِيطًا للشخصية. ولذات الهدف تم توزيع الصلاة على النهار والليل، خمسُ صلوات في وقت النشاط وصلاةُ الوتر قبل النوم، وقيام الليل للمجتهدين الراغبين في الرقي، والأذكار قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، في مواعيدِ ثابتة تقريبًا. بمعنى يُستخدم التكرارُ في القصصِ والآياتِ والشعائرِ من أجل تنميطِ الإنسان.. من أجلِ صناعةِ إنسانٍ بمواصفاتٍ ربانية. فتكون النتيجة أن من يمتثل لهذا البرنامج الرباني يكون حاله على ما وصف اللهُ

[1] يستفاد هذا من حديث وفد بني مالك من ثقيف حين سألوا الصحابة عن طريقة تحزيبهم للقرآن، للاطلاع على نص الحديث ينظر: **مسند الإمام أحمد بن حنبل،** (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1420هـ/1999م)، ج26، ص89.

المؤمنين في كتابه (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (سورة الفتح: من الآية 29).

هذا حال النموذج المثالي (الصحابةُ ﷺ): كأنَّ من ينظرُ إليهم في أي وقت يجدهم رحماءَ بينهم، ركعًا سجدًا، يبتغونَ فضلًا من الله ورضوانًا.

أمثلة تبين أثر الكفر والعصيان في خراب العمران:

بعد عرض النصوص الشرعية التي تبين أن وجود المعصية يستلزم خراب العمران، أحاول تقديم نماذج عملية من واقعنا المشاهد تبين كيف تفسد الأرض، مع التقدم التقني والقدرة على التعمير التي وصل إليها الإنسان المعاصر في عديد من المجالات، حين لا يوجد إيمان.

وحاولت عرض عددٍ من الأمثلة تمثل جوانب الحياة المختلفة، فكان أولها ممثلًا للجانب الخلقي المتعلق بالشخص وسلوكه بين الناس، وهو ظهور الفاحشة (الزنا)، وثانيها يتعلق بالجانب النفسي المستتر عن عيون الناس فكان المثل بـ "الشح والبخل"، وثالثها يتعلق بالتعاملات المادية فكان المثل بتحريم الربا.

ظهور الفاحشة:

في الحديث: "يا معشر المهاجرين، خمس إن ابتليتم بهن ونزل فيكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعملوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا الزكاة

إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدوهم من غيرهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا ألقى الله بأسهم بينهم"[1].

وما ورد في نص هذا الحديث الشريف نشاهد تأويله في واقعنا المشاهد، فقد ظهرت الفاحشة وخاصة في المجتمعات الغربية، وعمل الناس بها، بل سنّوا قوانين تحمي من يجاهر بها، فابتلاهم الله بالطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وكلما عالجوا مرضًا ظهرت فيهم أمراض أخرى أشد فتكًا. وذلك أنه مع تقدم تقنية تشخيص الأمراض، ومع تقدم صناعة الدواء، إلا أن الأمراض تسابق الطب وتسبقه، فمن الزهري، إلى السرطان مرورًا بالإيدز.

وفي التفاصيل نجد أن قدر الله يسير بين الناس بأسبابٍ ظاهرة، فالميكروبات تمتلك خاصة تطوير ذاتها ضد الأدوية التي يصنعها المختصون، وبالتالي حالة من التسابق بين الميكروب والدواء، والميكروب يسبق، والحل في تجنب أسباب المرض بداية. وأسباب المرض كلها من مخالفة شرع الله، بمعنى أن الحل هو الاستقامة على منهج الله، بمعنى أن الفسق والفجور من الأسباب المباشرة للخراب.

الشح والبخل:

يعد "الشح" أحد الأمثلة على الصفات الذميمة التي تكون سببًا في خراب العمران، وقد ذُكر في كتاب الله في ثلاثة مواضع: أولها: في بيان سبب

---

[1] أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1411هـ/1990م)، كتاب الفتن والملاحم، ج4، ص582. وقال صحيح الإسناد.

استمرار الخصومة وعدم حدوث الصلح بين المتخاصمين، يقول الله تعالى: (وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)(النساء: من الآية 128)؛ وثانيها: في موضع النصرة والموالاة بين المهاجرين والأنصار(وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) (سورة الحشر: من الآية 9)؛ وفي موضع التذكير بتقوى الله وإنفاق المال في سبيله: (فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) (سورة التغابن: من الآية 16).

وجاء في الحديث الشريف أن الشح سبب لهلاك الأمم يقول رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظُّلم ظُلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُّحّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دِماءهم واستحلّوا محارمهم"[1]، وفي رواية أحمد زيادة: "إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا"[2].

والشُّحُّ هو شدة الحرص على الشيء والإحفاء في طلبه، والاستقصاء في

---

[1] الإمام مسلم، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (صحيح مسلم)**، (بيروت، دار إحياء التراث الإسلامي، د.ت)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج4، ص1996.

[2] الإمام أحمد بن حنبل، **المسند**، (القاهرة، دار الحديث، 1416هـ/1995م)، أول مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ج6، ص310.

تحصيله، وجشع النفس عليه، يقال هما يَتَشاحّان على أَمر إِذا تنازعاه لا يريد كل واحد منهما أَن يفوته[1] ، والشح أعم من البخل؛ لأن البخل يختص بمنع المال، والشح بكل شيء، والشح لازم (كامن في النفس) كالطبع، والبخل غير لازم، فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقي شره وذلك هو المفلح[2]. وقد ذكر الماوردي في "أدب الدنيا والدين" أن الشح والبخل ذريعة إلى كل مَذَمّة، وخاصة أخلاق أربعة، وهي: الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق. فأما الحرص فهو شدّة الكدح والإسراف في الطلب. وأما الشره فهو استقلال الكافية والاستكثار لغيره حاجة. وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل فإن كان بالخالق كان شكا يؤول إلى ضلال وإن كان بالمخلوق كان استخانة يصير بها مختانا وخوّانا لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فإن وجد فيها خيرا ظنه في غيره وإن رأى فيها سوءا اعتقده في الناس. وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب إلى إنصاف. وإذا آل البخيل (أو الشحيح من باب أولى) إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجوّ ولا صلاح مأمول[3].

---

[1] محمد بن منظور، **لسان العرب**، (بيروت، دار صادر، د.ت)، مادة (شحح)، ج2، ص495.

[2] الإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت، دار المعرفة، 1379هـ)، ج9، ص508.

[3] الإمام علي بن محمد بن محمد البصري (الماوردي)، **أدب الدنيا والدين**، (بيروت، دار ومكتبة الهلال، 1421هـ)، ص199، 200.

والمقصود أنه حين يضعف الإيمان تظهر الأخلاق السيئة (كالشح)، والذي يؤدي إلى القطيعة والفجور وسفك الدماء والظلم، وهذه كلها من التخريب في العمران المعنوي والمادي ولا ينفع معها حضور وفرة من المال ورقي في الأدوات.

وإذا ما خرجنا من دائرة عصاة المسلمين إلى الدائرة الأوسع، أعني الذين لم يؤمنوا بالله وما أنزل على رسوله ﷺ نجد أن الشح تمكن منهم فأدى إلى، ليس فقط الحرص والشره ومنع الحقوق على المستوى الشخصي، وإنما حدثت حالة من تعميم هذه الأخلاق السيئة (الحرص والشره ومنع الحقوق أو الظلم والبغي) فصارت أخلاقًا للدول والتجمعات البشرية (المجتمعات) فكانت النتيجة أن انتشر الفقر والجوع رغم أن أسباب الخير كثيرة، ومن الدراسات الغربية الجادة التي تبين أثر صفة الشح في ظهور الفقر والجوع على مستوى العالم، دراسة بعنوان "صناعة الجوع[خرافة الندرة]"[1]، وفيه أمثلة لقلة من الأغنياء تتعمد إهدار الثروة من أجل مزيدٍ من الكسب، دون نظر لأضرار تسببها لكثير من الناس، فكانت النتيجة أن ازداد الفقير فقرًا وازداد الغني غنى. ولذا رصد الدارسون ما سمّوه بـ "استراتيجيات صناعة الندرة" وذلك من أجل الحفاظ على أسعار السلع كما هي أو زيادتها، وضربوا المثل بما فعلته بعض الدول الكبرى من تخفيضٍ حاد في إنتاج القمح للحفاظ على أسعاره، ومنع دول العالم الثالث من أن تنتج ما يكفيها من الغذاء، وكانت

[1] انظر: فرانسيس مور لابيه و جوزيف كولينز، **صناعة الجوع (خرافة الندرة)**، ترجمة أحمد حسان، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984م).

النتيجة، حسب هذه الدراسة، وجود أكثر من نصف مليار جائع! وكانت النتيجة، كذلك، أن 3٪ من سكان العالم يتحكمون فيما يقارب 77٪ من مساحة الأراضي الزراعية، وأن ما يزرع من مجمل الأراضي الزراعية لا يتجاوز 44٪، بينما لا تصل النسبة في بلدان العالم الثالث إلى 20؛ ومثَّل القائمون بهذه الدراسة بأمثلة تفصيلية كثيرة، منها: انهيار سعر الأرز في وقت الحصاد كل عام، يحدث ذلك عمدًا بفعل "كبار رجال السوق"، مما يضطر الفلاحون إلى بيع كميات كبيرة ليسددوا ديونهم الربوية. وفي الكتاب أمثلة كثيرة تبين سيطرة قلة في الإنتاج والأسعار مما جعل المال دولة بين الأغنياء فازدادوا غنى وتعديًا ولم يستفد كثيرون مما حدث من تطور تقني يحسبه بعضنا عمرانًا، أو تعميرًا في الأرض. بمعنى أن **غياب الإيمان بالله وعدم التخلق بما أمرنا به أخلاقٍ حميدة أضاع فائدة التقنية الحديثة بل جعلها تعمل في اتجاه مضاد**.. في اتجاه التخريب المادي أو المعنوي أو كلاهما، أو جعلها لا تفيد إلا قلة قليلة استذلت الناس واستعبدتهم.

تحريم الربا:

في صريح القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية أن التعامل بالربا يؤدي، حتمًا، إلى نقصان المال وذهاب بركته، يقول الله تعالى: (يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) (البقرة:276)، قال ابن كثير رحمه الله: يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي: يذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يَحْرِمَه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا ويعاقبه عليه

يوم القيامة[1]. وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلاَّ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ».[2]، ونجد تأويل ذلك في واقعنا المشاهد فالربا أحد الأمثلة التي من خلالها يمكننا أن نرى بوضوح كيف أن غياب الإيمان أدى إلى عدم حدوث عمران حقيقي، رغم وفرة المال، ورغم التطور التقني في مجال الخدمات المالية، ويتحدث خبراء الاقتصاد على أن إدارة المال على مبدأ الربا يؤدي إلى أضرار جسيمة تنتهي بخراب العمران، ومن أهم هذه الأضرار: ظهور خلل في توزيع الثروة والموارد الطبيعية، وذلك أن المرابي يربح دائمًا، وبالتالي يزداد غني ويزداد المقترض (الفقير) فقرًا؛ ومن آثار الربا فَقْدُ المال كثيرًا من قيمته مما يؤدي إلى ارتفاع الأسعار (التضخم)؛ ومن آثاره عدم امتزاج عناصر الإنتاج، وذلك أن صاحب المال (المقرض) لا يدخل في عملية الإنتاج (التصنيع)، حيث أن دوره يقتصر على تقديم المال مع ضمان رأس المال والربح، ويتحمل المقترض مخاطر الإنتاج وحده وهذا من شأنه أن يقلل خبرات العمل (حيث يقتصر التعاطي مع التصنيع والتجارة على المقترض فقط دون الغني صاحب المال)؛ ومن آثار الربا الضارة التي أدت إلى تخريب العمران تحول المال (النقود) إلى سلعة،

[1] الإمام ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ)، ج1، ص550.

[2] **سنن ابن ماجة**، (بيروت، دار الرسالة العالمية،1430هـ/2009م)، كتاب التجارات، باب التغليظ في الربا، ج3، ص382. وصححه السندي في حاشيته. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، (بيروت، دار الجيل، د. ت)، ج2، ص765.

وظهور المتاجرة في الدين مما راكم الديون على الفرد العادي[1].

والمقصود أن الانحراف عن الشريعة بإقامة المال على منظومة الربا أدى إلى خراب العمران رغم التقدم التقني في مجال المال، فحين حضر الكفر والعصيان ظهر الفساد في الأرض، كما قال الله: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[2].

البيئة والإنسان المعاصر:

في العقود الأخيرة بدأ التنادي لحماية البيئة ضد المخاطر التي تتهددها[3]، ويقصد بهذه المخاطر الاستنزاف الذي أصاب الموارد الطبيعية كالفحم والبترول والغاز الطبيعي والمعادن، والموارد المتجددة مثل: مصايد الأسماك والغابات والمراعي والأراضي الزراعية؛ وما أعقب كثرة الاستخدام من تلوث التربة الزراعية نتيجة الاستعمال الكثيف للمخصبات الزراعية والمبيدات الحشرية، وتلوث المجاري المائية (الأنهار والبحيرات)، وتلوث الهواء بالغازات الضارة المتصاعدة من المصانع؛ ويلحقون بذلك الزيادة المضطردة في عدد السكان والتي تمثل، حسب زعمهم، خطرًا على الموارد الطبيعية وتنذر بمزيدٍ من النفايات والتلوث؛ وإن أخطر ما في مشاكل البيئة أنها لا تنحصر في

---

[1] ينظر: كمال توفيق خطاب، **الربا والفائدة بين الفقه والاقتصاد**، موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، أخذ بتاريخ 2021/12/7 من الرابط: https://2u.pw/4oPaE

[2] سورة الروم: الآية 41.

[3] كان أول نداء في 22 إبريل 1970م، واتخذ عيدًا، وسمي بـ "يوم الأرض" ويتضمن الآن فعاليات نظمتها عالميًا شبكة يوم الأرض في أكثر من 193 بلدًا حول العالم، ولهم موقع خاص على الشبكة العنكبوتية هذا رابطه: Earth Day: The Official Site | EARTHDAY.ORG

منطقة دون غيرها، بمعنى أن إهمال بعض البشر يتضرر منه كثير منهم إن لم يكن جميعهم، ومثال ذلك مشكلتي ثقب الأوزون وارتفاع درجة حرارة الأرض[1].

ويهمنا هنا رصد أن أهم الحلول المقترحة تتجه إلى طبيعة بناء الفرد. من فرد مستهلك للموارد ومنتج للمخلفات إلى فرد مقتصد في تعاطيه مع الموارد وبالتالي مخرجاته من المخلفات بمختلف أنواعها[2]. لذا نستطيع أن نقول أن السبب في **الأزمة البيئية التي تمر بالبشرية اليوم راجع إلى المناهج العلمانية التي أنتجت الإنسان المعاصر، أو المناهج التي حولت الإنسان من إنسان مقتصد ينافس في تحصيل المكارم إلى إنسان مستهلك، ينفق ماله في متعٍ وملذاتٍ مؤقتة ولا يكاد يتوقف عن إفراز مخلفات تؤذي البيئة.** ولا تتوقف المشكلة على أسباب الأزمة فقط، بل على الحلول التي يقترحونها، فمن ضمن الحلول التي يقترحونها التخلص من بعض البشر عن طريق نشر الأوبئة والأمراض، أو أنهم يرون أن بعض البشر عالة لا قيمة لهم[3]، وهذه

---

[1] ترافس واجنر، **البيئة من حولنا دليل لفهم التلوث وآثاره**، ترجمة: محمد صابر، (القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، 1997م).

[2] زيد بن محمد الرمّاني،"**على من تقع المسؤولية الحقيقية لحماية البيئة؟**"، موقع شبكة الألوكة، قسم ثقافة ومعرفة، أخذ بتاريخ 2021/12/11، من الرابط: على من تقع المسؤولية الحقيقية لحماية البيئة؟ (alukah.net)

[3] هارولد.ف. دورن، "النمو السكاني في العالم معضلة دولية"، في: "**التحركات السكانية في تاريخ أوروبا الحديث**"، لهربرت موللر، **ترجمة شوقي جلال**، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971)، ص 228-249.

كارثة أخرى ترجع لغياب الإيمان بالله وأنه ضمن الرزق لعباده، يقول الله تعالى: (ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيم) (سورة البقرة: 268). و" يعدكم" معناه يخوفكم" الفقر" أي بالفقر لئلا تنفقوا. فالشيطان يثبط الإنسان عن الإنفاق في سبيل الله، وهو مع ذلك يأمر بالفحشاء وهي المعاصي والإنفاق فيها[1]، فالإنسان المعاصر الذي انتجته مناهج العلمانية من ناحية يتسبب في حدوث الأضرار كونه استهلاكيًا ولا يراقب ربًا في تصرفاته ويحتاج إلى جهدٍ كبير في ضبط سلوكه، ومن ناحية أخرى يقدم حلولًا أكثر ضررًا على أخيه الإنسان، والسبب غياب الإيمان بالله. فلا عمران بلا إيمان، ولا حاجة لنا في الجري وراء القوم بحثًا عن "تقدم" أخرنا وأخذنا بعيدًا عن الحياة الطيبة التي وعد الله بها المؤمنين في الدنيا والآخرة، إن السعادة.. كل السعادة.. وإن الرقي.. وإن كل جميلٍ في اتباع ما أنزل الله على رسوله ﷺ، يقول الله تعالى: (مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِن فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰة طَيِّبَةۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) (النحل: 97).

*****

[1] الإمام القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، (القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج3، ص328.

الخاتمة

حول كلِ مشهورٍ فريقان: فريقٌ يؤيده وفريق يعارضه، وربما كان السبب في ذلك أن الاتجاهات العامة في السياسة والثقافة عمومًا تظهر من خلال أطروحات المشاهير. بمعنىٰ أن كلَّ مشهور- من خلال القضايا التي يتبناها- إنما يمثل تيارًا أو اتجاهًا في السلطة والجماهير، ولذا فإن علينا أن نطرح علىٰ ما يقدمه كلُ مشهورٍ سؤالًا مفاده: من يدعم؟ ومن يصارع؟

وإذا أردنا أن نجيب علىٰ هذه التساؤلات من خلال أطروحات عبّاس العقَّاد، فإننا نجد أن أطروحاته ساهمت بشكل كبير في توطين مقولات المستشرقين في الفكر الإسلامي المعاصر، بمعنىٰ أن عبّاس العقّاد قدم قراءة للشريعة الإسلامية بمقولات المستشرقين، وظهر ذلك جليًا من خلال مدرسة الديوان، ومن خلال العبقريات والتي من خلالها قدّم تفسيرًا للسيرة والتاريخ شديدة الغرابة ومضاد للوحي مفاده أن أفرادًا قلائل هم الذين صنعوا التاريخ، وهم صنيعة بيئتهم وما ورثوه عن، ومن، آبائهم؛ وفي العبقريات تطاول علىٰ الصحابة الكرام ﷺ، ومن خلال العبقريات تم الترويج، بقصدٍ أو بدون قصد، لإنكار الوحي والقول بأنها أرضية خرجت من تطورات بيئية، كالذي يقول أرنولد توينبي وسيد القمني وعامة المستشرقين.

وظهر اصطفاف النص الذي تركه عبّاس العقّاد في صف الذين لم يؤمنوا بدفاعه عن النصرانية. ولم يقدم العقاد دفاعًا عامًا بل دافع عن تفاصيل ما نرفضه في النصرانية، كبولس (شاؤول الطرسوسي)، وتحريف الكتاب "المقدس"، وعقيدة الصلب من أجل الفداء. وفي كتابٍ كامل، طبعه عدة

مرات، واعتَرض عليه أقرانه ورفاقه ولم يتراجع. وكتب مدافعًا عن النصرانية في سياق من الهجوم علىٰ المجتمعات الإسلامية لتقسيمها شيعًا (طوائف، ومذاهب، وملل، وعرقيات، وطبقات،،،) ليتمكن منها المحتل.

وقدم عبّاس العقّاد دعمًا لمصدر المعلومات العلماني، فظلّ مستمسكًا بنظرية التطور العضوي والتطور المعرفي، وظلّ يردد القول بأن البيئة والعامل الوراثي هما المؤثر الأكبر في صياغة الشخصية وأن الآثار والوثائق هي المصدر الموثوق للمعلومات، كأن كل شيء نبت من الأرض وتطور بعوامل أرضية مادية، وليس أن الله هدىٰ البشرية وأصلح دنياهم وأخراهم بالوحي.

هذا ما قدمه عبّاس العقّاد في إسلامياته. قدّم نصًا مواجهًا للشريعة والمدافعين عنها.. نصًا يتبنىٰ قضايا المستشرقين ورؤاهم الكلية. ولذا اهتموا بما كتب وقدموه لنا علىٰ أنه قراءة جديدة للشريعة الإسلامية. ولذا وجب علينا إعادة النظر فيما كتب عبّاس العقاد والوعي بأنه مواجه للشريعة لا مدافع عنها.

وبعض الكرام الأفاضل **يطالب بأن نتناول الأفكار** بعيدًا عن الأشخاص؛ والمطالبون بهذا ثلاثة: طيب يحاذر المعارك الجانبية حتىٰ لا يتشتت الجهد بعيدًا عن قضية الإسلام الأساسية وهي عبادة الله وتعبيد الناس لله استعدادًا للدار الآخرة وما فيها من ثوابٍ وعقاب؛ ومحبٌ يدفع عن محبوبه (عبّاس العقاد هنا). لا يريد أن يُنتقص من يحب.. يغيب عنه أن كلًا يؤخذ منه ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ؛ وثالث يحرص علىٰ انتشار الكلمة. يظن أن الناس تنصرف عن القراءة بدعوىٰ أنها معركة خاصة بين الكاتب ومن ينتقده!

والموضوعية المطلقة، تلك التي يتحدث عنها "البحث العلمي" العلماني المعاصر، أكذوبة في الغالب، فكل منا يحب ويكره، وكل منا تطبيق لمنظومة أفكار تتعدل يومًا بعد يوم، زيادةً أو نقصانًا، قربًا من الكبير المتعال أو ارتكاسًا مع الشيطان وحزبه. والله العليم الخبير تحدث عن أشخاص (الأنبياء) وتابعيهم بلفظ صريح (فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا) (الأحزاب:37) أو بإشارة شديدة الوضوح (وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى. ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّى. وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ. إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ. وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) (الليل:17- 21)، وتحدث عن معارضيهم من المنافقين (ومنهم.. ومنهم.. حتىٰ كاد يسميهم بأسمائهم)، وذكر فرعون. فَفَصْلُ الشخص عن الأفكار صعب جدًا، **ومن دقيق ما يجب الانتباه إليه أن الناس لا يمارسون النقد إلا في تخصصاتهم فقط، ويتلقون ممن اشتهر دون نقدٍ ثقةً به، ولهذا تحرص كل منظومة علىٰ صناعة نخبة توجه من خلالها الجماهير**، ولهذا وجب علينا أن لا نناقش الفكرة وندع من سوّقها بين الناس.. لابد من ممارسة حالة من التوازن بين الفكرة والرمز الذي يستخدم في تسويق الأفكار. ثم إنه إن ظهرت موضوعية في البحث فهذه موضوعية في التفاصيل وغالبًا لا توجد موضوعية في السياق الثقافي، ويظهر ذلك من خلال العمل علىٰ تمكين ثقافة دون ثقافة.

ونحن كثير، فلو شغل كل منا بما يحسن لسددنا كل الثغور، ويكفي أن نستحضر هنا أن عبّاس العقاد كتب ما كتب في لحظة فارقة، أعقبت سقوط الخلافة وتمدد المناهج الشرقية (الشيوعية) والغربية (الليبرالية الرأسمالية) والحملات التنصيرية في الأمة، وظهور الصحوة الإسلامية الرافضة للتحولات

الغربية والشرقية وحملات التنصير التي جاءت في ظل الاحتلال الغربي. ترك عبّاس هذا كله وانشغل بالكتابة عن غاندي وفرانكلين وما سبق بيانه.

يبقىٰ شيء لابد من التأكيد عليه، وهو أنني **لا أكفر عبّاس العقّاد**، ولا أيًا ممن آمن بالله وقال إنني من المسلمين، مهما ظهر عليه، لثلاثة: الأولىٰ: أن الناس في حالة تجهيل وليسوا في حالة إعراض، بفعل تمكن المنظومة الغربية؛ والثانية: أن شرعية التحدث باسم الدين تتوفر بشكل كبير للرسميين والمشهورين وليس لي ولأمثالي؛ والثالثة: أن القائمين علىٰ التجديد مختلفون في كل ثوابتهم وهذا بسبب حالة الضعف وتمكن كل من شاء أن يتحدث من الحديث للناس في أي قضية شاء، فلسنا كما كنا: يتحدث من يجاز من العلماء فقط. وإن سلمتَ من الثلاثة هذه فلن تجد من تكفره، سيكون الكل في خير، وسينتهي الذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة. فالتكفير للأفراد بعيد عني كل البعد، ولا أشغل نفسي به. رحم الله العقاد وغفر ذنبه فقد شغل نفسه بما ضره أقرب من نفعه، وشغلنا بالرد عليه. اللهم مغفرةً وأجرًا، إنك كريم منان. اللهم آمين. **لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا ظالمين. والحمد لله رب العالمين، صلي اللهم وسلم وبارك علىٰ نبيك محمد وعلىٰ آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين.. آمين.**

محمد جلال القصاص

رجب1443 . فبراير 2022



تعريف بالكتاب:

لقرنٍ، أو يكاد، من الزمان وأطروحات عبّاس العقّاد محل أخذ ورد، من الذين عاصروه والذين جاءوا من بعده؛ فأثنىٰ عليه النصارىٰ. وأثنىٰ عليه، وبالغ في الثناء، غلاة الملحدين المنكرين للوحي والبعثة من أمثال سيد القمني، وكذلك العلمانيون. يقولون: استطاع تنقية السيرة النبوية من الخرافات! واغتر بالعقّاد نفر من الطيبين ظنوا أن امتداح النبي ﷺ يعني تعظيمه واتباعه؛ وكل من مرَّ بالنبي ﷺ امتلئ تعظيمًا له وتوقيرًا ثم يتبع أو لا يتبع، ولذا جُعل الاتباع أمارة علىٰ الإيمان والمحبة.

وثمة إصرار شديد علىٰ غرس قراءة عبّاس العقّاد للسيرة النبوية (العبقريات وما كتبه عن الصحابة ﵃)، وكذلك رؤيته للتوحيد والأنبياء وموقف العقل من النص، في حسّ المسلم المعاصر، يتحلقون حول أفكاره وينثرونها، طوعًا وكرهًا، علىٰ الحضور. ولذا كان لابد من مناقشة أفكاره والكشف عن السياق الذي أخرجه والسياق الذي يصر علىٰ نشر أفكاره بين الناس، وماذا يقول عن الله ورسله، وعن الرسول وصحابته رضوان الله عليهم، وكيف يرىٰ موضع العقل من الشرع. كشفٌ ومناقشةٌ. وكلٌ له منظوره ومفاهيمه التي يجادل بها ويجادل عنها، وللمتلقي أن يفكر فيما يقال ثم يتبنىٰ ما يراه صوابًا، فكلنا موقوف بين يدي الله ومسئول، ثم إلىٰ نعيم مقيم أو عذابٍ أليمٍ مهين والعياذ بالله. (أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَٰكُم عَبَثا وَأَنَّكُم إِلَينَا لَا تُرجَعُونَ). نسأل الله الكريم المنان رشدًا وعزيمةً علىٰ الرشد.

د. محمد جلال القصاص